بوعلام بطاطاش

مذكـــرات
آخر إنسان على الأرض

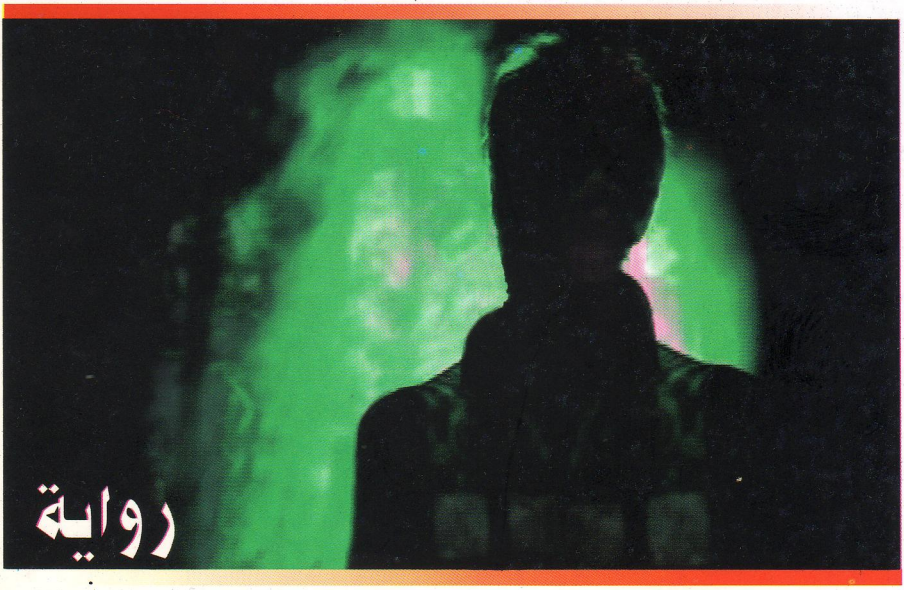

رواية

دار الحكمة

مذكرات آخر إنسان على الأرض

رواية

عنوان الكتاب مذكرات آخر إنسان على الأرض - رواية

المؤلف بوعلام بطاطاش betatache_b@hotmail.com

الناشر أحمد ماضي

© دار الحكمة للنشر، الجزائر 2009

العنوان 91 شارع ديدوش مراد، الجزائر العاصمة

الموقع الالكتروني www.hikmahouse.com

البريد الالكتروني dar_elhikma@yahoo.fr

الهاتف 00 213 21 23 58 83

الفاكس 00 213 21 23 58 89

ردمك 978-9947-842-59-1

الإيداع القانوني 2009 - 2059

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة في إطار
الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

بوعلام بطاطاش

مذكرات آخر إنسان على الأرض

رواية

دار الحكمة

***

إنه لأمر صعب، التعلّم من دون أستاذ أو مرشد! ربّما هذه الصعوبة هي التي جعلت الكثير من الأشخاص يرفضون الخوض في مجاله، ويعللّون مواقفهم بقيمة الفائدة المتحصّل عليها في الأخير، حيث يعتبرونها ضئيلة مقابل الجهد المبذول لاكتسابه، وكثيرا ما يقرنون التعلّم بالتسلية، لكنني أخالفهم الرأي، فهذه المسألة في نظري تحمل أبعادا أخرى، إذ ستمكّنني من فتح أبواب كثيرة طالما كانت مغلقة أمامي، فالعديد من الأسئلة التي كانت تتبادر إلى ذهني والتي لم أجد لها إجابات مقنعة يمكن لها أخيرا أن تنكشف أمامي، فأنا أبحث مثلا عن سرّ الوجود، عن قيمة الحياة، عن الدور المنوط لنا على هذه الأرض، ووقوفي عاجزا أمام هذه المسائل هو الذي دفعني إلى الإصرار على التعلّم. لقد تمكّنت أخيرًا من اكتساب هذه اللغة، أعترف بأنني قد أبطأت كثيرًا، فأربع سنوات كاملة مرّت من حياتي كلمح البصر لكنها في الحقيقة تمثّل مدة طويلة في حياة شخص، خاصة إذا كان من جيلنا، لكن هل من حل آخر ؟. توصّلت إلى تعلّمها بطريقتي الخاصة، لكنني متيقن تماما من عدم إتقانها جيدا، نظرا للتشاكل الصعب لمختلف القواعد المؤسسة لها، لكن الإشكالية المطروحة بالنسبة لي تتمثل في كون التعلم من الكتب لا يسمح بتعلم الأصوات التي تثيرها الحروف، فتعلّمي للأبجدية كان وفق اجتهاد شخصي بحت، حيث قدّمت لكل حرف صوتا من الأصوات التي أستطيع التلفظ بها، وبالتالي حديثي بهذه اللغة سيكون حتمًا مخالفا ومغايرا تماما لحديث أصحابها، لكن ما يهمّ هو أنني الآن أستطيع قراءة الكتب بكل حرية وأعي ما تحتويه من معلومات مختلفة، وأحيانا أستعين بالمعاجم والقواميس أثناء مصادفتي بعض الكلمات الجديدة، لذا فما أكتبه الآن يمكن أن يفهم من طرف الجماعة اللغوية التي توظّفها، لكن الشيء المؤسف حقا هو أنّ استعمالي لها يبقى منحصرا في شخصي فقط فلا أحد من أصدقائي يريد تعلمها، إنهم يقولون أنها مضيعة للوقت، وأنا أعترف أنه قد تبادر إلى ذهني في وقت من الأوقات الكف عن تعلمها، لكن الفضول، والرغبة

في معرفة كلّ شيء، وخصوصا معرفة محتوى تلك الكتب هو الذي جعلني أحاول وأعيد الكرّة ولا أيأس إلى غاية تحقيق هدفي المنشود، فأنا الآن أستعمل هذه اللغة !

تملّكني ارتباك رهيب عندما أخذت القلم لأخطّ به هذه الخطوط الأولى، لم تكن أول خطوط بالنسبة لي لأنني تدربت على ذلك من خلال كتب التعلم من قبل، لكن أن أمنح لنفسي حرية التعبير عن طريق هذه اللغة، فهو أمر رائع ومرعب في الوقت نفسه، لقد تعجّبت كثيرًا عندما اطلعت على وجود آلاف اللغات المستعملة في تلك الحقبة، لا أعرف فائدة ذلك خصوصا وأنّ أغلب تلك اللغات لها بدورها حروفها ورموزها الخاصة. لم أتمكّن من الاهتداء إلى رموز اللغة التي تستعملها قبيلتي، لكنني متأكد من أنها لغة قديمة جدا، فلربما تمثل إحدى اللغات الموجودة آنذاك ولكنها لم تكن إلا شفوية مثلما هي عليه الآن .

استمر إذن تعلمي لهذه اللغة أزيد من أربع سنوات، تعجّب فيها أصدقائي ورفيقاتي من قوة العزيمة التي تملّكتني، حيث تفاهمت معهم منذ البداية وقلت لهم بلهجة جدّية حازمة: سأخصص جزءا من وقتي لتعلّمها، وربما سأفيدكم بأشياء جديدة، من يدري؟ فقال هايمون في نبرات ضاحكة: إنّ ما يفيدنا هو الأكل والدفء. ضحك الجميع تعبيرا عن تأييدهم لكلامه، فقلت له بسخرية: أنت لا تفكر إلا في الأكل، ألا يأتي اليوم الذي تفكر فيه في شيء أكثر أهميّة؟ فقال: أنا أفكر كثيرًا في التخلي عن رفيقتي! فنظرت إليه أنتيجوني قائلة بحنق: إذا كنت تفكر في ذلك، فاستعد منذ الليلة للبحث عن فراش آخر لتنام فيه، فقاطعها هايمون متوسلا: كلا.. إنني أمزح فقط يا حبيبتي، أنت تعرفين أنني لا أحب سواك. ثمّ رمقني بنظرة تحمل في طيّاتها التودد والاستعطاف قائلا: لِمَ لا تتحدث أنت؟، فقلت له مبتسما: عدني بأنك ستنقص من الأكل، لأنني أخاف أن ينفذ المخزون قبل عثورنا على مؤونة أخرى!، فقهقه الجميع ومعهم أنتيجوني. قام هايمون واتجه نحوها حيث وضع قبلة على فمها ثم تمتم قائلا:

إن كنّا لا نستطيع أن نمزح قليلاً، فيستحسن التزام الصمت. لقد كان خائفا من غضب رفيقته، يعتبر الشخص الوحيد الذي يمكن التعرف عليه من بعيد بسبب ضخامة جسمه، فهو بدين نوعاً ما، متوسط القامة، ذو بطن بارز تحت المعاطف التي يرتديها، أما وجهه فكروي تظهر في طرفيه وجنتان منتفختان ومحمرّتان، وبالكاد نتمكّن من رؤية أنفه الصغير، ويملك عينين صغيرتين خضراوين توحي للذي ينظر إليهما بالصفاء الذي يحمله في قلبه. وتختلف أنتيجوني عنه في كونها - وعلى الرغم من جسمها البض الممتلئ - تملك قدا يقارب طول جسم هايمون، الشيء الذي جعل بدانتها لا تؤثر في تناسق أطراف جسمها، بل كانت رشيقة إلى درجة كبيرة، مستطيلة الوجه، بيضاء البشرة، رسم أنفها بطريقة جميلة: أنف صغير ودقيق، يتماشى مع فمها الصغير وشفتها الرقيقتين، أما عيناها فهما واسعتان وسوداوان كسواد شعرها. كانت المشاحنات التي تدور بينهما غالبا ما تكون بسبب الأكل، لقد كانت تودّ أن يقلّل رفيقها من الأكل حتى ينمحي ذلك البطن الكبير، لكنه لا يصغي لملاحظاتها على الرغم من الاهتمام المصطنع الذي يتكلّف به أثناء نهرها له. كان يقول لنا بصوت يوحي بالبساطة وعدم المبالاة: إننا لا نملك ملاذا في هذه الدنيا إلا الأكل والحب، لذلك يستحسن أن نستمتع بهما قبل فوات الأوان.

يقال بأنّ الناس الذين يرغبون شيئاً ما بقوة غالبا ما تكون الصدفة حليفتهم. وهذه حقيقة أؤمن بها، فقد مضى على وجودي فوق هذه الأرض أكثر من سبع وعشرين سنة، طرحت خلالها العديد من الأسئلة المتعلقة بمسألة الهدف من الحياة، فبما أننا سنموت! لماذا نتعذّب بهذا الشكل؟ ما الذنب الذي اقترفناه؟ لم يقدم لي أحد الإجابة الوافية، كانت مجرّد تخمينات لا أكثر. ثمّ بدأت لذة الحياة تنقص شيئاً فشيئاً، إذ لم أكن مقتنعا بأنّ الحياة متوقفة على هذه الأمور التي نقوم بها والتي قام بها أجدادنا من قبل. أنا أعرف أنّ أشياء كثيرة قد تغيرت، وأنّ وضعيتنا لا يحسد عليها، ربما نحن نمثّل أتعس جيل وجد على هذه الأرض، بل أنا متأكد من ذلك، فكيف يمكن للمرء أن يستمتع بحياة تتشابه أيامها؟. إذا ما قارنت نفسي مع أصدقائي أجد أنني

مختلف عنهم بعض الشيء، فأنا أحب البحث والاستطلاع، إنّ ما تبقى لنا من الوقت ليس بالشيء الكثير، لذلك كنت أودّ أن أغادر هذا العالم وأنا ملم بأغلب تفاصيله، فكانت الصدفة غير المتوقعة على الإطلاق، كانت المغارة التي نسكنها الآن عبارة عن مخزن للمؤونة التي نجمعها، ثمّ تغيرت الظروف وأصبحت مأوى لنا. كنت أعتقد أنّ أجدادنا قد تمكّنوا من فتح كلّ القاعات التي تحتويها المغارة لذلك كنّا مقتنعين بالقاعات الست مختلفة الأشكال والأحجام التي بين أيدينا، لكن في إحدى الأيام اصطدمت الخوذة التي ألبسها بجدار قاعة المؤونة، فأحدثت صوتا لم يكن لغيري أن يعرف بأنه مختلف عن الصوت الذي يمكن أن تحدثه على جدار آخر، فأمسكت فأسا وبدأت أطرق على الجدار وأنا أتحسس الصوت الذي يصدر منه، ثمّ أطرق على الجدار المحاذي له، فقلت في نفسي: أنا متأكد من وجود فراغ في الجهة الأخرى، لذلك طلبت من أصدقائي أن يقدموا لي يد المساعدة في عملية الحفر، وكما توقعت، فإنّ قاعة المؤونة كانت بجوار قاعة أخرى. طلبت من إيوس أن تقدم لي المشعل ولمّا ناولتني إياه تقدّمت للدخول إلى القاعة الجديدة، فقال بروميثيوس محذرا: من فضلك دعني أدخل الأول، فلربما يوجد بها شيء يمكن أن يؤذيك، فقلت له باسما: شكرا يا بروميثيوس ولكنني سأدخل لوحدي. قمت أولا بإدخال المشعل لأرى إن كانت مفتوحة من جهة أو من جهات أخرى، فوجدتها محاطة بالجدران ولا توجد بها أيّة فتحة عدا تلك التي قمنا بحفرها، عندئذ أدخلت الرجل اليمنى وانحنيت قليلاً، ثمّ أدخلت رأسي، فالرجل اليسرى لأجد نفسي بداخلها. ظهر لي للوهلة الأولى أنها فارغة لا يوجد بها سوى بعض الحجارة المتراصة بعضها فوق بعض مشكلة كتلة كبيرة، فقلت لأصدقائي: إنّ هذه القاعة ستصلح لأن تكون مخزنا إضافيا إذا ما عثرنا على مؤونة كثيرة، فهي باردة والشيء الجميل فيها أنه يمكن غلقها لأن الفتحة التي حفرناها صغيرة. ثمّ ناديت مينيلاوس قائلا: ساعدني على إخراج هذه الحجارة من هنا. فدخل وبدأ يقذف بها إلى الفتحة، ثمّ توقف قائلا: توجد صخرة كبيرة هنا، يستحسن تركها لأنه لا يمكن إخراجها من الفتحة. فاقتربت منه متسائلا: صخرة! هل يمكن

تحطيمها؟ ثمّ بدأت أتفحصها جيدا، واندهشت عندما لامست يدي مساحتها، فقلت له في ذهول: كلا إنها ليست بصخرة، أنظر! وبدأت أزيل الغبار المرتص على سطحها لتتضح المساحة ملساء، فهتفت لأصدقائي قائلا: لقد وجدنا كنزا، تعالوا! فقال هايمون مازحا: هل هو أكل؟ فرد عليه أورفيوس حانقا: من فضلك أسكت. دخل أورفيوس ومعه مشعل إضافي كما دخلت النساء بدورهن القاعة حتى أصبحت ممتلئة عن آخرها، فقلت لمينيلاوس: ساعدني من فضلك على إزالة هذه الحجارة والأتربة. لمّا انتهينا من فعل ذلك اتضح أنه صندوق معدني، حاول مينيلاوس فتحه فأبى، فقالت هستيا بنبرات ضاحكة: من الممكن أن توجد به ملابس دافئة. ردّ عليها ديموفون قائلا: أظنّ أنّ ما يملئه هو الذهب، فالكنوز غالبا ما تكون من الذهب، فعلّقت أرتيميس قائلة: وما الفائدة من الذهب، فنحن لسنا بحاجة إليه! ثمّ واصلت كلامها حالمة: آه لو كانت ملابس ناعمة ودافئة! فساندتها داناي حيث خاطبَتها قائلة: معك الحق لو نجد فيه ملابس ستكون أنفع لنا من الذهب. أما ستيروب فقالت بصوت مرتفع وبنبرة تشبه إلى حد بعيد نبرة الرجال: أما أنا فأتمنى أن تكون وسائل حرب، فلربما سنتحصل على وسيلة دفاع أحسن من تلك التي نستعملها. وفي كلّ تلك الأثناء ومينيلاوس يحاول فتح الصندوق الذي بدا مستعصيا عليه، فقال في الأخير متأففا: أظنّ أنّ هذا الصندوق يأبى أن يظهر لنا أسراره، فطلبت من أورفيوس إضاءة الصندوق جيدا، ثمّ بدأت أتفحصه علّني أجد ثغرة تمكّننا من تحطيمه إلا أنّه كان متماسكا وصلبا للغاية، حاولت إدارة الذراع الموجودة بجانبه ظاناً أنها المفتاح الذي يمكّننا من رغبتنا إلا أنّ الذراع بقيت مسمرة في موضعها، حاول ديموفون تحريك الصندوق وقلبه لكنه هو الذي سقط أرضا، فضحك عليه أورفيوس وهو يقول: أمسك هذا المشعل وانظر إلى قوة الرجل الحقيقي! أمسك حافتي الصندوق بإحكام وحاول جاهدا تحريكه لكنه لم يتمكّن بدوره من فعل ذلك، فقال يائسا: أنا أستسلم! ثمّ أضاف مازحا: حتى بروميثيوس لن يتمكّن من فعل ذلك! كان كلامه هذا في الحقيقة بمثابة دعوة قدّمها لأقوى

رجل بيننا جميعا ممّا جعله يتقدم ليحاول تحريكه فأثنيته قائلا: لا تجهد نفسك يا بروميثيوس، فإنه حتمًا ممتلئ بأشياء ثقيلة، سنحاول فتحه غدا.

لم أنم في تلك الليلة، حيث كنت أفكر في مختلف الطرق التي ستسمح لنا بفتح الصندوق، لكنني لم أعثر على أية منها، خاصة وأنّ قوة بروميثيوس العظيمة لن تنفع! فكيف لنا أن نقوم بذلك؟ وفي اليوم التالي كنت مع بوسيدون وبروميثيوس في تلك القاعة حيث بدأت أزيل الأتربة الملتصقة على جدرانه ثم قمت بتنظيفه حيث مرّرت الدهون على مختلف جوانبه، ولمّا انتهيت قلت لهم: لنترك هذه الدهون تفعل فعلها، فلربما سيلين وينفتح لنا. تركناه مدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع دخلت من جديد إلى القاعة مع بروميثيوس ومينيلاوس، ثمّ بدأت في تنظيفه من جديد، وأثناء قيامي بذلك ضغطت على قفل متواجد بأحد أطرافه دون قصد، فبدأنا نسمع زفيرا وشهيقا حيث خيّل لنا تواجد شخص يتنفس بداخله، تراجعنا إلى الوراء وسلّ بروميثيوس سيفه لمواجهة أيّ خطر، لكن ذلك الصوت ما لبث وأن توقف. نظرنا إلى بعضنا البعض وعلامات الحيرة بادية على وجوهنا، ثمّ تقدمت بخطى كلها ريبة وخوف، ودرت حول الصندوق، لا شيء تغير فيه سوى ذلك القفل الذي ظهر أنه أعمق من حالته الأولى، حاولت رفع بابه فإذا به يتحرك، فهتفت لبروميثيوس دهشا: إنه يتحرك، هيا ساعدني، تقدّم بروميثيوس وأمسكه من الجهة الأخرى ورفعنا باب الصندوق. لقد انفتح أخيرًا! ثمّ قلت لمينيلاوس: خذ ذلك المشعل وأضئ لنا المكان، ففعل، وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما وجدناه مليئا بالكتب، حيث قال مينيلاوس في شيء من الضيق: على الأقل تنفع لأن نشعل بها النار. أخذت كتابا من تلك الكتب ووجدت أنها تحمل خطوطا غريبة، ثمّ أخذت كتابا آخر وإذا به يحمل صورا ملونة ورائعة لم نشاهدها من قبل، فنادينا الآخرين حيث قدموا مهرولين، الكل يتساءل عن محتوى الصندوق، كان بعضهم سعيدا والبعض الآخر بدا مستاء من النتيجة، فالكل كان يتمنى أن يجد شيئاً خاصا، والكل لم يفلح في تخميناته بما فيهم أنا، إذ كنت أظنّ أن محتوى الصندوق لا يعدو أن يكون ذهبا أو مالا أو ألماسا!. وجدنا

بعض الأدوات بداخله، البعض منها كنّا نعرف استعمالها مثل الخنجر الذي قدمته لستيروب والتي قدمته بدورها لبروميثيوس كهدية لكنه أعاده لي قائلا: أنت الحكيم، فهو لك. كما وجدنا الولاعات، حيث كانت فينوس الأولى التي تمكّنت من إشعال واحدة منها، فقامت بتعليم البقية كيفية إشعالها. أما المنظار فلم نكتشف استعماله إلا بعد أيام من عثورنا عليه بينما لم نعلم بوظيفة الأدوات الأخرى .

كانت الكتب التي تحمل الصور محلّ اهتمام الجميع، فكأنها تحمل صورا عن عالم آخر غير عالمنا هذا، وكثيرًا ما كانت محور الأحاديث والنقاشات. أوصلتنا السهرات التي قمنا بها في تلك الآونة إلى قمّة السعادة والهناء، وكأننا ولدنا من جديد، أو أنّ الدنيا في حدّ ذاتها قد ابتسمت لنا بعد تجهم طويل. أما أنا فكنت مهتما أكثر بتلك الخطوط التي حاولت فهمها، كانت فينوس الوحيدة التي أبدت بدورها اهتماما خاصا بها، حيث حاولت معي في الأشهر الأولى في فك رموزها ثمّ ما لبثت وأن استسلمت قائلة: إنّ عملية فهم هذه الكتابة ستستغرق سنوات عدة، ومن الممكن ألا نكون أحياء آنذاك لذلك أعلن لك عن انسحابي. تأثّرت لقرارها المفاجئ لكنني اخترت المواصلة حيث أظهرتُ إصرارا عنيدا على تعلمها. كانت فينوس على حق، فعملية فك شفراتها قد دامت أكثر من أربع سنوات لكنني مازلت حيًّا وأنا الآن أتقن هذه اللغة جيدا. أصبحت أدير السهرات، وأقوم بسرد تاريخ البشرية وكيف كان الناس يعيشون قديما، وما هي أصناف أكلاتهم والأزياء التي يرتدونها، وأين كانوا يعيشون، والحيوانات والطيور والحشرات المتواجدة في عصرهم بأسمائها ومختلف طرق عيشها. كان أصدقائي منبهرين بكل الأشياء التي أرويها عليهم والتي سمعنا بعضا منها من أفواه أجدادنا لكننا كنّا نظنّ أنها مجرد أساطير فقط. ثمّ جاء اليوم الذي اطّلعت فيه على الرسالة، حيث قمت بجمعهم داخل القاعة الرئيسية قائلا لهم: هذه الورقة هي بخط الشخص الذي وضع كلّ هذه الأشياء بداخل الصندوق، لم يكن وضعه في ذلك المكان رغبة منه في إبعاده عن الناس، بل كان قصده أن يجده أشخاص مثلنا، لقد أراد تعريف الأجيال المقبلة بالنمط الذي كانت

البشرية تعيش فيه. لذلك أقترح أن نأكل اليوم ونغني ونرقص احتفاء بهذا الشخص الذي أضاف نكهة خاصة لحياتنا، ولقد طلب منيّ في رسالته أن أكتب عن ظروف معيشتنا وأن نترك بدورنا بعض الأشياء للأجيال القادمة ...لم أتمكّن من مواصلة الحديث حيث اغرورقت عيناي بالدموع، والشيء نفسه حدث لإيوس ومينيلاوس وأورفيوس وغيرهم، ثمّ تشجعت وقلت: على الرغم من كلّ الظروف التي نعاني منها، فإنني سألبي طلبه وسأكتب من أجله عن حياتنا، لقد قام بشيء عظيم لذلك علينا أن نلبي طلبه. قضينا تلك الليلة حتى الصبح ونحن نأكل ونرقص ونغني، أظنّ أنه قد مضى زمن طويل لم نكن فيه سعداء بمثل تلك الدرجة، وإن لم تخنني الذاكرة، فالمرة الأخيرة التي غنينا ورقصنا فيها هي عند قبول بروميثيوس أن يكون رفيقا لفينوس .

اخترنا إبقاء القاعة التي وجدنا بها الصندوق على حالها، وكنت أذهب إليها بين الآونة والأخرى لأخذ أو إعادة كتاب من الكتب المتواجدة بالصندوق. قرّرت الاطلاع على كلّ محتوياته، لكنني كنت أستغرق في قراءة الكتاب الواحد ما بين الخمسة إلى الثمانية أشهر تبعا لحجمه، لم أكن أرضى بقراءتها فقط بل كان عليّ استيعاب كلّ المعلومات الواردة فيها، وبما أنّ هذه اللغة جديدة عليّ، فكنت غالبا ما أعود إلى القواميس والمعاجم. لقد فكّر هذا الصديق في كلّ شيء، كنت أودّ أن يكون حاضرا بيننا حتى نظهر له عمق امتنانا له، لكن...! .

آثرت إشراك الجماعة في تعلّم هذه اللغة الجديدة، فجمعتهم في إحدى الأمسيات وخاطبتهم قائلا: أنتم تعرفون أنّ الوقت الذي نقضيه داخل المغارة أطول من الوقت الذي نقضيه خارجها لذلك أقترح عليكم تعليمكم هذه اللغة الجديدة، فقاطعني بوسيدون قائلا في دهشة: أأنت تمزح؟ فقلت له بصوت يحمل كلّ معاني الجدة: كلا إنني لا أمزح على الإطلاق إذا أراد أحدكم تعلمها، فأنا مستعد، ومن لم يرد تعلمها فهو حر، أنا لا أريد أن أكون أنانيا وأحتفظ بها لنفسي، بل أريد أن نتقاسمها معا. إنّ هذا الصندوق يحمل كنوزا كثيرة وعظيمة وأنا بحاجة إلى سنين كثيرة للتمكّن من الإطلاع عليها جميعا، فهل

هناك من يريد تعلّم هذه اللغة؟ نظر بعضهم إلى بعض ثمّ نطقت أمفتريت قائلة: أنا مع رأي رفيقي بوسيدون إنه لم يتبق لنا من الوقت الكثير لذلك لا نرى جدوى من تعلّمها، فيكفينا أنك تجيدها. ثمّ قالت داناي برقة: أما أنا فإنني أريد أن أسمع محتوياتها منك يا حبيبي! وقالت سيليني مبتسمة: أنا أوافقك الرأي يا داناي، فحبيبنا يجيد الحكي بطريقة مذهلة، فقاطعتُها محاولا العودة إلى مجرى الحديث قائلا بتعجب: ألا يوجد حقاً أحد يرغب في تعلّمها؟ فقالت فينوس بصوتها الرقيق: أنا أريد تعلّمها، ولقد كنت خجولة من عرض هذا الأمر عليك لمعرفتي بانشغالاتك الكثيرة أما وأن تعرضه علينا، فأنا أودّ ذلك إن لم يمانع بروميثيوس طبعا، فنظرت إلى بروميثيوس الذي أجابها قائلا: أنت حرة ولا مانع عندي، ثمّ قال أورفيوس مازحا: أظنّ أنّ الدروس التي ستقدّمها لها لن تكون ليلية أليس كذلك؟ فاحمر وجهي وبدأ أصدقائي يضحكون، رأيت بروميثيوس يبتسم، فحاولت تدارك الوضع متسائلا: إذن لن أعلّم سوى فينوس؟ ثمّ واصلت حديثي بلهجة تحمل كلّ معاني الأسف قائلا: إنكم غير واعين بقيمة الأشياء التي ستضيعونها! فقال أورفيوس وهو يضحك مغيّرا تماما الموضوع: لِمَ لم يضع رفيقنا آلات موسيقية في الصندوق؟ أظنّه يكره الموسيقى! وانفجر الجميع ضحكاً .

ذكاء فينوس الحاد جعلها تتعلم بسرعة لدرجة أنني استغربت من الأمر وظنّنت أنها تدرس لوحدها، لكنها كانت هكذا ذكية، هي فتاة لا يتجاوز عمرها العشرين سنة كانت أصغرنا جميعا وتعتبر من أجمل النساء في قبيلتنا، كانت ساحرة بعينيها الزرقاوين وأنفها الصغير الدقيق وسحنتها ناصعة البياض، وشعرها الأصفر الحريري، وقدها المعتدل، إنها مثال للجمال، وفوق ذلك كله، فهي تمتاز بالذكاء، إنها بصورة أخرى تجسّد المرأة الكاملة سواء في الجمال أو الوسامة أو الرشاقة أو الذكاء. عندما أنظر إلى وجهها المائل إلى الطول قليلاً ألاحظ في ملامحها صورة حبيبتي أفروديت. كان لكل أصدقائي رفيقات سوى بروميثيوس الذي توفيت رفيقته منذ أكثر من ست سنوات، يناهز عمره الستين سنة لكن ملامح وجهه تظهر أنه ما يزال شابا في الأربعين لا أكثر وكان قويا جدا.

لم تكن فينوس مرتبطة بعد، ولم نرد أن نفرض عليها هذا الشخص أو غيره، فالنساء عندنا لديهن الحرية المطلقة في اختيار الرفيق أو حتى في تغييره، كما كان بإمكانهن أن يخترن رفيقا لديه مسبقا رفيقة أو أكثر، المهم ألا تقدّم الرفيقات الأخريات اعتراضا على ذلك، فالعلاقات بيننا يجب أن تكون واضحة والخيانة غير موجودة باعتبار أنّ الشخص ليس بيده حيلة في رفض انفصال الرفيقة عنه، فأظنّ أنّ مصدر القيمة الكبيرة التي تحتلها المرأة عندنا يعود إلى قلّة عددهن في الأجيال السابقة حيث كان هدف أجدادنا تكاثر عددهم، ولتحقيق ذلك وضع حق الاختيار للمرأة بشرط قبول الرجل وهذا ما خلق التفاهم السائد بين الطرفين، لكننا واصلنا إتباع تلك التقاليد على الرغم من أنّ النساء في قبيلتنا قد أصبحن أكثر عددا من الرجال، فأنا مثلا أملك ست رفيقات، لكن إن أرادت إحداهن أن تكون رفيقة لشخص آخر فيمكن لها ذلك، ولديها الحرية المطلقة بمضاجعة أيّ منهم، بشرط إعلامي بتوقف العلاقة التي تربطني بها، ومنذ جيل أو جيلين لا أكثر أصبح من الضروري للرجل أن يبدي موافقته على ذلك الانفصال، بينما لم يكن شرطا في السابق. لم تنفصل رفيقاتي عنّي لأنهن معجبات بي لسبب أو لأسباب لا أعرفها، ربما لطريقة تعاملي معهن. ومثلما قلت سابقا، فإنّ فينوس ذكية جدا إذ لم تمض سنة على بدأ تعلمها للغة حتى أصبحت تجيدها مثلي، بل أصبحت تعرف أكبر عدد من الكلمات لدرجة أنه عندما تصادفني كلمة صعبة، فعوض أن ألجأ إلى القاموس أسألها أولا، وكثيرًا ما كانت تقدّم لي المعنى وكأنه مستخرج من المعجم مباشرة، أظنّ أنها تحفظ كلّ شيء عكسي أنا الذي لا أستطيع الحفظ بل أركّز أكثر على الفهم .

في إحدى الأمسيات عرضت عليها أن تحكي لنا قصة من قصص ألف ليلة وليلة، فقامت بذلك بطريقة رائعة وكان الجميع منبهرا بها حتى رفيقها بروميثيوس لم يصدق أذنيه، وكأنّ شهرزاد قد خرجت من الكتاب مباشرة. لم يثر اختيارها لبروميثيوس استغرابنا على الإطلاق، بل كان مصدر مزاح من طرفنا، أتذكر مداعبتنا لها في إحدى المرات قائلين لها: ما هي العبارات التي

استعملتها لإقناع بروميثيوس لأن يكون رفيقك؟ فمثلما نعرفه، فهو قليل الكلام ونادرا ما يتفوه بعبارة رقيقة، إنّ تجربته في الحياة قد جعلته شخصا مختلفا عن غيرنا! فماذا كان ردّه؟ إلا أنها حاولت تغيير الموضوع، لكننا ضغطنا عليها وأصررنا على أن تبوح لنا بمحتوى الكلام الذي جرى بينهما، فقالت لنا بلهجة تهديد: إن لم تسكتوا، فإنني سأخبره عندما يعود بأنكم تعاكسونني! فلم يكن لنا سوى التوسل لها بعدم القيام بذلك حيث ابتعدنا عنها ونحن نضحك.
إنها نِعم الرفيقة، لم تجعله يوما يشتكي منها، فكثيرًا ما يأتي رجال قبيلتي إليّ شاكين من معاملة رفيقاتهن لهم، أو العكس تأتي رفيقاتهن لتشتكين لي من معاملة رفقائهن، بينما لم أسمع منهما شيئاً عن الآخر. أحيانا أحسده عليها، أنا لا أنكر أنّ رفيقاتي الست يتكفلن بي على أحسن وجه، إلا أنّ فينوس تحمل خصوصية لم أتبيّن بعد ما هي. أحيانا تنظر إلى عيني وكأنها تخاطبني بصوت هادئ قائلة: أنا أعرف ما يدور بخلدك، لكنني كما تعرف لست لك بل لغيرك، فمن الأفضل أن تكف عن تلك النظرات! فأهرب من القاعة التي تتواجد بها لأتنفس الهواء البارد الذي يعيدني من جديد إلى جادة صوابي. أظنّ أنّ بروميثيوس قد تفطن إلى إعجابي برفيقته وربما التلميح الذي قدّمه أورفيوس في تلك الأمسية لم يكن مجرد مزحة، لكنني أعرف بروميثيوس جيدا، فهو لا يضمر لي الحقد أبدًا. كان وما يزال نِعم الصديق، وأنا مدين له بكل شيء. لقد وجدته بجانبي بعد مقتل والدي، ولولاه لما تمكّنت من الصمود أمام هذه الحياة، إنه أكبرنا جميعا، بل الأكبر سنا على هذه الأرض، فأنا أعرفهم جميعا، أقرانه كلهم ماتوا إما بسبب المرض أو بسبب عدم تحمل البرد، إلا هو! أحيانا أنظر إليه وأرى في عينيه نوعاً من الحسرة وكأنه غير راض بهذه الحياة. لقد كان لدخول فينوس في حياته أثر كبير، إذ تغيرت تصرفاته نوعاً ما، وظهر بريق جديد في نظرته، ربما قد عاد من جديد إلى التمسك بالحياة، من يدري؟! إنه يبقى مصدر قوتنا، فالكل تعلّم منه فنون القتال، إنه يعرف كيفية التصرف في كلّ المآزق التي يمكن أن نقع فيها، ووجوده معنا يجعلني أشعر بالأمان، فأنا لا

أخاف من أيّ شيء، وهذا ما يجعلني أحسّ بالذنب بمجرد التفكير في فينوس، ففعلا أنتِ لست لي، ويستحسن لي أن أفكر في رفيقاتي.

***

بدأنا نحس منذ أيام بانخفاض تدريجي في درجة الحرارة، أظنّ أنّ شتاء هذه السنة سيقضي علينا، فعندما أخرج من المغارة لا أرى إلا صورة واحدة: جبال من الجليد تتراءى أمامي، كلّ شيء أبيض، لا وجود للون آخر، هذا اللون اللعين الذي يثير أعصابي. كم كنت أودّ أن أرى تلك الخضرة التي شاهدتها في الصور، ترى كيف كانت الحياة آنذاك؟ حتمًا الجو لم يكن باردا مثل هذا الطقس الذي نتصارع معه. وعلى الرغم من البرودة الشديدة التي نحسّ بها اليوم إلا أنها لا تقارن بتلك العواصف الثلجية التي لا يستطيع الإنسان أن يختبئ منها، فهي تتسلل كاللص بين فتحات المغارة، بين الثياب التي نلبسها، لتلدغنا كما تفعل الثعابين، أنا لا أعرف هذه الأخيرة لكنني أذوق يوميا شدة لسع البرودة. أحيانا تستسلم النار لجبروت البرد الذي تحمله الرياح، فتصبح بدورها تفرز البرودة عوضا عن الحرارة التي نشتاق إليها. كثيرًا ما فكّرت في حظنّا التعس الذي جعلنا نولد في هذا الزمن البارد. كان مقياس درجة الحرارة الذي وضعه الصديق مفيدا للغاية، ففي الأول لم نكن نعرف دوره ولا أهميته، حيث قالت لي ستيروب: بما أنكم لستم بحاجة إليه، فهلا قدمتموه لي لأزين به جدار القاعة الرئيسية ؟. لم أر مانعا لرفض طلبها حيث منحته لها بكل فرح، لكن في إحدى الأيام جاءتني فينوس مسرعة وبيدها كتاب حيث قالت بحيرة: أنظر إلى هذه الصورة، ألا ترى أنّ محتواها يشبه إلى حد بعيد ذلك الشيء الذي علّقته ستيروب؟ نظرت بدقة إلى الصورة ووجدته فعلا مشابها له، وقرأت تحت الصورة: مقياس الحرارة، فقلت مستغربا: عن أيّ حرارة يتحدث؟ نحن متجمدون وهو يقيس الحرارة. فقالت انتظر واستمع جيدا: " *مقياس الحرارة: وسيلة لقياس درجات الحرارة، القصوى والمنخفضة، منقسم إلى درجات* ..." فقاطعتها متسائلا: هل تريدين القول بأنّ هناك شيء يتحرك ويتغير فيه ويقيس الحرارة والبرودة معا؟! فقالت متعجبة: لست أنا القائلة، بل الكتاب هو الذي يشير إلى ذلك! فأرسلتها في الحين لجلب ذلك الشيء حتى نتأكد

معا إن كان يتناسب مع ما يقوله الكتاب. عادت فينوس بسرعة وهي حاملة معها المقياس وبدأت أتفحصه: نعم هناك درجات معلّمة عليه وهناك شيء أحمر بداخله يمكن أن يشكّل المادة التي تتحرك فيه، لكن كيف؟! وضعناه على صخرة موجودة في القاعة كنّا نستعملها كطاولة لوضع الأشياء، ثمّ تسمّرنا أمامه ننتظر تحرك اللون الأحمر، لكنه لم يفعل، انتظرنا مدة طويلة ثمّ قمت وقلت لها بأسف: حتى وإن كان هو الشيء الذي تحدّث عنه الكتاب، فلربما أصابه عطب. أيّدت فينوس رأيي، فقلت لها مبتسما: على الأقل ينفع للتزيين. أخذَته من فوق الصخرة وفركته محاولة مسحه ثمّ صرخت فجأة: لقد تحرك! فقلت لها وأنا مرتبك: من؟ فقالت وهي ما تزال في دهشتها: هذا اللون، لقد تحرك، لقد كان في درجة 03° فتحوّل إلى درجة 06°، وها هو الآن في درجة05°، انتظر إنه في درجة 04°، لقد بقي في درجة 04°! ثمّ تابعت كلامها وفي عينها يلمع بريق خاص: لقد فهمت! إنّ تغيّر الدرجات يتم ببطء، وثبات درجة حرارة هذه الحجرة جعل تلك المادة الحمراء لا تتحرك، وعندما فركت سطحه أحدثت تغييرا على حرارته وهذا ما جعل اللون يتحرك!. فقلت لها برجاء: أعيدي التجربة من فضلك. ففركته من جديد على ملابسها، فإذا باللون يتصاعد إلى الأعلى، فقلت لفينوس مازحا: لقد أصبحنا عالمين كبيرين كالذين نقرأ عنهم في الكتب، تجارب واختبارات! وأردفت قائلا: إنّ صديقنا لا يزال يدهشنا في كلّ مرة، فردّت فينوس قائلة والابتسامة مرتسمة بشكل رائع على شفتيها: لقد أصبت! ففي جعبته الكثير من الأسرار التي لم يفصح لنا عنها بعد.

في تلك الأمسية جمعت أصدقائي في القاعة الكبيرة وقلت لهم بافتخار: اليوم اكتشفنا شيئاً عظيما، ثمّ نظرتُ إلى ستيروب وتابعت كلامي: إنّ المكان الذي اخترته يا ستيروب لتعليق ذلك الشيء يتناسب مع الدور الذي يؤديه، لكنه ليس للتزين فقط! بل يحمل أهميّة بالغة، فعن طريقه يمكن لنا معرفة شدة البرودة إن كانت تزداد أو تنخفض، الشيء الذي يسمح لنا باتخاذ الاحتياطات اللازمة، فإذا كانت درجة الحرارة منخفضة جدا، فإننا لن نخرج

ونغامر بحياتنا بل ننتظر أن ترتفع، كما يمكن لنا أيضاً أن نوفر من الحطب الذي نشعله إن كانت القاعة بدرجة الحرارة المناسبة. فقال مينيلاوس في شيء من الفضول: أريني إياه من فضلك، وقال هايمون بنفس الإحساس: نعم أريد أنا الآخر رؤية طريقة عمله، فقامت فينوس تشرح للجميع كيفية قراءة المقياس، إلا أنّ عدم معرفتهم بالأرقام قد حال دون استيعابهم لكامل مضمون كلامها، فقلت لهم مازحا: إنكم لم تودوا التعلم، أتتذكرون؟ فرد عليّ هايمون وهو يضحك: إننا لسنا أذكياء مثلكما!.

كنت متعجبا من درجات الحرارة التي كتبت على المقياس، والتي كان أعلاها 70° وأخفضها -60°، هل كانت الحرارة تصل إلى تلك الدرجات فعلا؟ بالنسبة للبرودة، وكما اطلعت عليه في أحد الكتب هناك مناطق متجمدة على هذه الأرض تشبه المنطقة التي نعيش فيها لكن درجة الحرارة الآن تتراوح ما بين 02°و05° داخل المغارة، وبين -10° و-15° في الخارج، أنا لم أقسها في الليل لكنني متأكد من أنها لن تصل إلى تلك الدرجة القصوى، والشيء نفسه بالنسبة للحرارة، هل يمكن أن ترتفع إلى درجة 70°؟ فالكتب لم تشر إلى ذلك على الإطلاق، يستحسن لي أن أسأل فينوس فلديها الإجابة عن جميع الأسئلة.

***

لم يكن البرد هو المشكل الوحيد الذي يعترضنا عندما نخرج من المغارة، بل نواجه أيضاً صعوبة كبيرة في التنفس، فكل واحد منّا يحس بالضيق، وتزداد الأمور تعقيدا عندما نجهد أنفسنا، إذ تتسارع دقات قلوبنا وترافقها حركة سريعة للأقفاص الصدرية لدرجة نحسّ على إثرها بالاختناق، فتجدنا نسقط على الأرض بسبب فشل جميع أطرافنا، وقد يصل الوضع في بعض الأحيان إلى درجة الإغماء. أتذكّر يوما كنّا نقوم فيه بالبحث عن المؤونة، وكان ذلك في مكان غير بعيد عن المغارة. وأثناء حفرنا في الموقع الذي حدّده لنا بروميثيوس، وبالضبط في جبل جليدي سميك، وجدنا حيوانا ضخما، وبحسب الصور الموجودة في الكتب أظنّه ضبي كبير، كانت عملية إخراجه متعبة للغاية، لدرجة بدأ الجميع يحس بصعوبة التنفس بما فيهم أنا، أحسست وكأن رئتي قد عصرها شخص ما، لم أصب بالاختناق من قبل. كثيرًا ما شاهدت أصدقائي يغمى عليهم، فنسرع ونعيدهم إلى المغارة حتى يسترجعوا وعيهم وذلك بإزالة بعض الملابس من على أجسامهم، لكن في تلك المرة أصبنا جميعا وفي اللحظة نفسها تقريبا بالإغماء، ولولا بروميثيوس الذي حملنا الواحد تلو الآخر إلى المغارة بمساعدة رفيقاتنا لكنّا الآن قد فارقنا هذا العالم وللأبد .

ينحصر أكلنا على اللحم والدهون فقط ولا يوجد أيّ مصدر آخر، ونادرا ما نعثر على بعض أوراق الأشجار في الجليد محتفظة بخضرتها، فنقوم بمضغها، وكأننا نشمّ فيها رائحة الماضي، كانت تحمل نكهة خاصة لا توصف! يتمثّل عملنا في البحث عن المؤونة، أحيانا نعود محملين بأكثر من حيوان، وأحيانا أخرى نعود فارغي الأيدي، إننا لا ننتظر انتهاء المؤونة من المغارة حتى نقوم بعملية البحث بل يوجد بها دوما القدر الذي لا يجب أن نتجاوزه من المخزون، فالكل يعلم أنّ الأيام التي تقبل علينا لن تكون سهلة، لذلك اتفقت مع الجميع على العمل في كلّ الأيام التي يتحسن فيها الطقس وذلك لجمع وتخزين أكبر عدد ممكن من جثث الحيوانات. كنت أتعجب من طريقة

بروميثيوس في معرفة أماكن تواجد الحيوانات داخل الأكوام الهائلة من الجليد والثلوج، إلى أن جاء اليوم الذي لم أستطع فيه صبرا، فخاطبته قائلا: بروميثيوس، أنا ممتن لك بكل ما أعرفه، وأنت تعلم بهذا، فأنت معلمي الوحيد بعد موت والدي، ولن أنسى ما قمت به من أجلي على الإطلاق، لكن لديّ سؤال واحد قد حيّرني كثيرًا وأريد طرحه عليك منذ زمن .. فقاطعني قائلا بهدوئه المعتاد: أيرتبط سؤالك بأماكن الحيوانات داخل الجبال؟ فقلت له متعجبا: كيف أدركت ذلك! هلا علمتني الطريقة التي تستعملها للاهتداء إليها؟ فمثلما نعلم جميعا، فهذه الحيوانات قد ماتت منذ مدة طويلة، والعواصف الثلجية لم تترك لنا أيّ أثر، ولا نصل إليها إلا بعد حفر خطوات عدة داخل الجليد، فهل يمكن لك أن تفك لي هذا اللغز المحيّر؟ فقال باسما: اسمع جيدا .. لكنني قاطعته قائلا: يستحسن أن نتعلم جميعا طريقتك؟ فقال وقد ارتسم على عينيه بريق خاص: معك الحق! ثمّ قام بمناداة الآخرين، ولمّا التفوا حولنا قال بصوته الرزين: إنّ الأمر في غاية البساطة، عندما تحاصركم العاصفة ماذا ستفعلون؟ فقلت: نحاول الاحتماء منها في الموضع الذي يجعلنا نتقي شرها، فقال: وهو الشيء نفسه الذي قامت به هذه الحيوانات، فعند هبوب العواصف لم تجد الحيوانات إلا أطراف الجبال لتتقي منها ومات الكثير على أطرافها، وأحيانا تجرفها الانزلاقات على بعد عدة خطوات، لذلك يكفي النظر إلى الجبال التي ترون أنها تصلح لأن تكون الملاذ من العواصف، ثمّ تنظرون إن كان ذلك الجبل حادا أم لا، عندئذ يظهر لكم إمكانية تعرضه للانزلاقات، ولا يتبقى لكم سوى البحث في أطرافه، ثمّ خاطبني قائلا: هل تريد أن تحاول؟ فقلت مبتسما: نعم، فعن طريق التجربة نحسّن ما تعلّمناه. بدأت أتفحص السلاسل الجبلية المحيطة بي آخذا بعين الاعتبار اتجاه الرياح والأماكن التي تصلح كملاجئ، فعثرت على جبل له تجويف في وسطه، وهو مائل نوعاً ما، فقلت لبروميثيوس بصوت كله ثقة في النفس: هذا الجبل ينفع أن يكون ملجئا، وقد تعرّض لانزلاقات ممّا يعني أنّ الحيوانات ستكون ربما في.. نظرت يمينا وشمالا، وأشرت بيدي قائلا: هنا !، ثمّ بدأت أحفر مع جنودي، بينما كان

بروميثيوس يتفرج علينا، ليس من عادته أن يفعل ذلك، فهو دائمًا يشاركنا عملية الحفر. قمنا بنزع الثلج وتكسير الجليد وحفرنا نفقا يمتد خمس خطوات لكننا لم نعثر على أي شيء، استدرت نحو بروميثيوس وأنا محتار من الأمر وسألته: ألا يصلح هذا المكان؟ فردّ قائلا: بلى، فقلت مستغربا: ما الخلل إذن؟ لِمَ لم نجد فيه شيئاً؟ فبدأ يضحك ويقهقه، تعجّب جنودي من تصرفه، ثمّ توقف عن الضحك بحيث ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وقال: ألا تتذكر أننا استخرجنا منذ حوالي ثمانية أشهر وفي هذا الموقع بالضبط أكثر من أربع حيوانات؟ عندئذ تبادرت إلى ذهني صورة الحيوانات الضخمة المستخرجة منه، فارتميت عليه وأنا أصرخ مازحا: وأنت تركتنا نحفر ونجهد أنفسنا دون أن توقفنا! وارتمى عليه جنودي حيث أردوه أرضا وهم يضحكون.

توجد المغارة التي نسكن فيها في جبل عال نوعاً ما، أما إذا ما قارنناه بالجبل الذي تظهر لنا قمته من بعيد، فسيصبح عبارة عن ربوة فقط. تحيط بنا السلاسل الجبلية من كلّ جهة، لم تكن المغارة عالية عن سطح الأرض لكنها لم تكن أيضاً بمستواه، فهي مرتفعة عن الطريق الذي نسلكه بنحو ثلاثين خطوة، كان موقعها رائعا، فهو لا يتعبنا كثيرًا عندما نعود محملين بالمؤونة، بالإضافة إلى أننا نستطيع أن نراقب كلّ من يتجاسر ويقترب منّا. للمغارة فتحة واحدة يبلغ عرضها حوالي أربعة أقدام بينما علوها، فهو بالكاد يسمح لبروميثيوس الذي يعتبر أطولنا جميعا بالمرور مع انحناء طفيف لرأسه، عندما ندخل منها يقابلنا جدار يدفعنا مباشرة إلى الدوران يسارا حيث نمشي في نفق صغير يمتد عدة خطوات نعرج إثره على اليمين ونجد أنفسنا في قاعة كبيرة مستطيلة الشكل وواسعة يتوسطها موقد كبير محاط من جميع أطرافه بقطع من الجلود السميكة والناعمة، تعتبر القاعة الرئيسية في المغارة، وفيها نشعل الحطب ونجتمع في سهراتنا وبها ينام جنودي، وبمحاذاة بابها من الجهة اليسرى نجد الأدوات التي نستعملها للدفاع عن أنفسنا من سيوف وسهام وخناجر، بالإضافة إلى أدوات الحفر الأخرى، أما في الجهة اليمنى، فإننا نضع على طول الجدار رزما كبيرة من الحطب. تقابلنا عند دخول القاعة فتحة أخرى بمثابة

باب يؤدي بدوره إلى قاعة أقل مساحة من الأولى وهي قاعة دائرية الشكل، أنام فيها أنا مع رفيقاتي الست، وتوجد فتحة أخرى على الجهة اليمنى للقاعة الكبيرة، ولا تبعد كثيرًا عن الباب الذي ندخل منه، هي أعرض بقليل من فتحة قاعتي وتؤدي إلى قاعة ثالثة أقل مساحة من القاعة الرئيسية وأكبر من قاعتي، وهي دائرية الشكل وباردة جدا وفيها نضع المؤونة إذ نكدس بها كلّ الحيوانات المتجمدة، حيث تعمل النساء باستمرار على وضع قطع الجليد عليها حتى لا تتعفن. وفي هذه القاعة قمنا بحفر تلك الفتحة التي أدت بنا إلى القاعة الرابعة أين تمّ فيها العثور على الصندوق، والتي أصبحت تحمل اسمه: "قاعة الصندوق"، وإذا ما عدنا إلى القاعة الرئيسية نجدها تشتمل أيضاً على فتحتين إضافيتين، في الطرف الآخر منها حيث تؤدي الفتحة الأولى إلى قاعة مثلثة الشكل صغيرة قليلاً يستعملها جنودي إذا ما أرادوا الانعزال مع رفيقاتهم، ويتوسطها موقد صغير، وبمحاذاته يوجد فراش مكون من جلود وعدة أفرشة صوفية، إنه أحسن فراش في المغارة كلها، في النهار يسمح لمن يشاء دخول تلك القاعة، بينما يرتبط دخولها في الليل بدور كلّ واحد منهم، وتؤدّي الفتحة الأخرى إلى أصغر قاعة في المغارة كلها، دائرية الشكل نستعملها جميعا كدورة الحمام. أما إذا عدنا إلى الممر الأول وعوض أن ندور يمينا يمكن لنا أن نواصل مباشرة إلى الأمام وعلى بعد ثلاثة خطوات نتسلق بعض الصخور على اليسار لنجد أنفسنا أمام فتحة صغيرة تطل على الطريق في أسفل الجبل، إلى جانب المسلك المؤدي إلى المغارة، وفي هذا الموضع بالذات نتناوب على حراسة مسكننا عندما نشعر بوجود خطر ما .

تتكون قبيلتي من سبعة رجال واثنتي عشر امرأة، اتفقوا جميعا على أن أكون حكيمهم. لديّ ست رفيقات اخترن العيش معي وهن: هستيا، ستيروب، أرتيميس، داناي، إيوس، وسيليني، كلهن أصغر مني وجميعهن جميلات، إن طلب مني أن أختار بينهن ما استطعت! فأنا أحبهن جميعا، لكل واحدة منهن طريقتها الخاصة في التعامل معي، لا أستطيع أن أملّ منهن أبدًا، فهن دائمًا بشوشات ومرحات. أما رجال قبيلتي فهم: بروميثيوس الذي سبق وأن تحدثت

عنه، إنه أكبرنا وأقوانا جميعا، رفيقته هي فينوس، ثمّ أورفيوس ورفيقته رودوب، وهايمون ورفيقته أنتيجوني، أما ديموفون فرفيقته هي فيليس، بينما يعيش بوسيدون مع أمفتريت، أما مينيلاوس فيعيش مع هيلينا. لم يتحمل الكبار البرد، فماتوا جميعا وفي أشهر متقاربة، كان ذلك قبل عثورنا على الصندوق بحوالي تسعة أشهر. لقد شكّلت وفاتهم صدمة كبيرة لنا، إلا أننا تمكّنا من تجاوز تلك المصيبة. وعلى بعد ثمانية جبال من مغارتنا أو مسيرة نصف يوم، توجد قبيلة أخرى، أظنّ أننا نشكل معا آخر سكان الكرة الأرضية، وللأسف تعتبر تلك القبيلة عدوة لنا!.

إنّ عملية البحث عن الحطب مغايرة تماما لعملية البحث عن المؤونة، وأصعب منها بكثير، فالحطب نادر في هذه المنطقة، وللوصول إليه يجب الحفر في أعالي الجبال، لكن الجليد الملتصق بها أشبه بكثير بالصخور المكونة لها. كثيرًا ما نحفر لعدة أيام في موقع معيّن لكننا لا نجد فيه أدنى خشبة، وأحيانا أخرى نجد جذع شجرة مهترئ بفعل الجليد والثلوج بحيث لا يصلح لأيّ شيء، إنّ هاجسنا الكبير يتمثل في الحطب، فدرجات الحرارة التي تنقص باستمرار تجعلنا نستهلكه بكثرة .

بدأت الموارد تنقص، وقد لاحظنّا ذلك منذ بضعة أشهر فقط حيث أصبحنا نتناول اللحم عن طريق حصص نحاول عدم تجاوزها لأننا أصبحنا مضطرين إلى البحث في حدود المغارة وما يتضمنه من مخاطر علينا إذ أننا نقوم باستهلاك المخزون الذي تركناه للطوارئ لكننا أحيانا نعود ونبتعد قليلاً عندما نرى تحسناً في الطقس، إلا أنّ المخاطر كانت كثيرة جدا فالطرق ومعالم الجبال تتغير تبعا لتغيرات أحوال الطقس، والرياح المؤثرة فيها. إنّ الخروج من المغارة لا يتم إلا في أوقات خاصة، فدرجة الحرارة تتناقص بسرعة لذلك نفضل عدم المكوث في الخارج طويلا، ونختار الفترات التي تظهر فيها الشمس، لكننا أحيانا وأثناء الطريق تهب علينا رياح شديدة وباردة تجعلنا نولي مدبرين إلى مغارتنا، فنمسك بعضنا البعض، ونطأطئ رؤوسنا ونمشي بخطوات متثاقلة

بينما يجد البرد طريقه إلى أجسامنا، ومن حين لآخر يسقط أحدنا، فيقوم الذي بجانبه على مساعدته للوقوف مجددا والاستمرار في السير، كنّا شديدي الخوف وحذرين من إصابة أحدنا، فعددنا القليل لا يسمح على الإطلاق بأن نفرط في أيّ واحد منّا، بل لا أتصور مطلقا أنه بإمكاننا الاستمرار في الحياة إذا ما فقدنا فردا من قبيلتنا .

عندما نعود إلى المغارة تتكفل النساء براحتنا، فهن يقمن بتغيير ملابسنا وتقديم الماء الساخن بالإضافة إلى حصص اللحم، أظنّ أنني أوفرهم حظا في هذا المجال، فكل واحدة من رفيقاتي تحاول أن تقوم بقدر المستطاع وبطريقتها الخاصة بإضفاء الراحة لي، أشعر أحيانا بالخجل، فأنا أعرف أنني لست مذنبا إذ لم أجبرهن على أن يعشن معي بل اخترن ذلك بمحض إرادتهن. لقد تحدثت أكثر من مرة معهن قائلا: إن أعجبت إحداكن برجل في القبيلة فلا يجب أن تتحرج إذ باستطاعتها العيش رفقته، ولن أكون غاضبا، بل على العكس، فما يسعدكن يسعدني أيضاً، وإن كانت إحداكن تشعر بنوع من الملل أو الضجر، فالرجاء أن تصارحني وألا تخاف أبدًا من ردّة فعلي، فأنا أريد راحتكن. لكن عرضي كان يقابل بالرفض، مظهرين لي مدى حبّهن وتعلقهن بي.

إننا نستعمل الحطب للتدفئة واللحم للأكل، أما الدهون، فإننا نستعملها للإنارة، ولدلك عضلاتنا، فعندما نمرّر تلك الدهون الحارة على أجسادنا نشعر بالانتعاش والراحة والدفء، أما الجلود التي ننتزعها من الحيوانات، فإننا نبسطها على الأرض أو نعلقها على الجدران، فهي تنقص من البرودة التي تنفذ من تلك الصخور، لكنها لا تنفع لأن تستعمل كملابس لكونها يابسة، وفوق ذلك، فإننا لا نتوفر على المواد التي كان يستعملها أجدادنا لتليينها، والحقيقة أننا لم نحاول على الإطلاق تليينها، فنحن نملك القدر الكافي من الملابس والجلود التي تركها لنا آباؤنا وأجدادنا، إذ لا تزال صالحة.

وفي الأيام التي تمنعنا العواصف من الخروج، نبقى مجتمعين داخل القاعة الكبيرة نتبادل فيها أطراف الحديث والضحكات، ونستعيد الأحداث التي

وقعت للبعض منّا أثناء الرحلات التي قمنا بها في الخارج، وكان أورفيوس ينال دائمًا حصة الأسد منها، إذ لا يتمتع ببنية جسدية قوية، فهو نحيل نوعاً ما، مستطيل الوجه، له أنف صغير دقيق وعينين صغيرتين خضراوين، أبيض البشرة وأصفر الشعر، أحيانا يترك لحية صغيرة غير كثيفة تحجب ذقنه المدبّب، قصير القامة مثل رفيقته رودوب، إلا أنها تختلف عنه بكونها سوداء العينين والشعر، تمتلك نظرة ساحرة لكنها نادرا ما ترفع عينيها عن الأرض، فهي خجولة إلى حد بعيد، لا تشاركنا أطراف الحديث، بل تظل متكئة على أورفيوس لا تتركه على الإطلاق، كنّا عندما نستشير بعضنا في مسألة ما تردّد العبارة نفسها: " إنّ رأيي مثل رأي أورفيوس"، وفي إحدى المرات كنّا أمام موقف كان علينا اتخاذ القرار فيه، فسبقني ديموفون وابتدأ بها قائلا وهو يبتسم: ما رأيك يا رودوب؟ لاحظنّا جميعا علامات الحيرة والخجل بادية على سحنة وجهها التي أصبحت حمراء، كانت محرجة إلى درجة كبيرة ثمّ بعد تفكير عميق نظرت إلى أورفيوس وقالت: أنا مع رأي أورفيوس، فاسألوه أولا. لم نتمالك أنفسنا حيث انفجرنا ضحكا، وحتى أورفيوس لم يستطع أن يمسك نفسه، لكنه تدارك الأمر حيث ضمّ رودوب إلى صدره بقوة وطبع قبلة على رأسها قائلا: لا تهتمي بهم، فهم أغبياء!. كلّ أصدقائي يتحملون غضب الطبيعة إلا أورفيوس، فهو شديد التذمر وكثير السقوط، حيث يقف على رجليه ويبدأ في السب والشتم: تبًّا لهذه الطبيعة! تبًّا لك أيها الطقس! تبًّا لك أيتها الرياح! أنا أكرهك! أتسمعين؟ أكرهك. وعوض أن نخفّف من معاناته ننفجر ضحكا على الرغم من التعب الذي يكون قد نال منّا جميعا. إنّ من يسمع أورفيوس في الخارج سيعتقد أنه شخص آخر غير أورفيوس الذي يمزح في المغارة، كان بوسيدون من أشدنا إثارة لأعصابه، وغالبا ما يقول له ونحن في خضم عاصفة باردة: اسمع يا أورفيوس، في المرة المقبلة لن تأتي معنا، بل ستأتي رفيقتك رودوب، فهي أقوى وأشجع منك، أما أنت فابقي مع النساء في المغارة. فيستدير نحوه أورفيوس صارخا في وجهه: تبًّا لك أنت أيضاً، أتظنّ أنك أشجع مني؟ هيا لنتبارز الآن؟ هيا ماذا تنتظر؟ فيتقدم إليه هايمون بابتسام محاولا تهدئته: إنه

يمزح معك فقط، هيا استعد قواك وسر، فالطريق ما يزال طويلا. كان هذا المشهد يتكرّر تقريبا في أغلب الرحلات التي حاصرتنا فيها العواصف، وكان أورفيوس حانقا بحق على بوسيدون، لكن وبمجرد الدخول إلى المغارة ينسى الجميع معاناة الرحلة، ويبدأون في الضحك والمرح. إنّ كلّ خروج يعد مغامرة حقيقية لنا، وعودتنا سالمين يمثل بالنسبة لنا فوزا على الطبيعة، فنحن في صراع دائم معها لذلك نحتفل دائمًا بفوزنا عليها، وكل يوم نسلم منها إلا ويعتبر شعاع أمل للأيام المقبلة، لكن الجميع يعلم أنه سيأتي اليوم الذي ستقضي فيه علينا جميعا مثلما قضت على أجدادنا من قبل وهي الحقيقة التي نتقبّلها بكل صبر.

قلت لبروميثيوس: إنّ شتاء هذه السنة سيكون قاسيا، وأنت ترى أنّ الحطب الذي بحوزتنا غير كاف، لذلك أفضّل أن نركز بحثنا على جمعه فما رأيك؟ فقال: معك الحق، علينا بجمع مخزون إضافي، سوف نضعه في الممر، وفي قاعة الصندوق وفي كلّ مكان فارغ، ويستحسن أن نركز بحثنا على المناطق التي لم يسبق لنا استكشافها، فعلّنا نجد فيها ضالتنا.

انتابني إحساس غريب، فدرجة الحرارة الآن بداخل المغارة قد وصلت إلى -10°، وفي الخارج تناهز -25°، ممّا يعني أنه وبحلول الشتاء فإنها ستصل إلى -35° أو -40°، وبالتالي سنجد أنفسنا محاصرين داخل المغارة إذ يستحيل الخروج منها، لذلك يجب أن نحضّر أنفسنا جيدا. كنّا في كلّ سنة نقوم بالأعمال نفسها، فقبل حلول أيّ شتاء كنّا نجمع القدر الكافي من المؤونة والحطب الذي يسمح لنا بقضاء الفصل داخل المغارة، وأحيانا يصفو الجو نوعاً ما، فنذهب إلى الأماكن التي خبأنا فيها الحطب والمؤونة بجوار المغارة لنقوم بإدخالها ، لكننا لاحظنّا خلال هذه السنة ندرة الحطب في المواقع التي اعتدنا العثور عليه، بل حتى المؤونة بدورها قد بدأت تتناقص، الأمر الذي يعني أننا سنضطر إما إلى أخذ المزيد من المخزون القريب منّا أو الابتعاد عن مغارتنا وما يحمله لنا من مخاطر، والمشكلة التي تؤرقنا تتمثل في أننا لو تركنا

المغارة مدّة من الزمن ستصبح عرضة لهجوم القبيلة الأخرى التي لا تنتظر سوى هذه الفرص لاغتنامها ما دامت مقتنعة بأنها لن تستطيع مواجهتنا وجها لوجه.

الشيء الوحيد المفرح هو أنّ شتاء هذه السنة سيكون مختلفا عن سابقيه لأنه سيكون أكثر إثارة. أنا أتحدث خاصة عن الأيام التي سنقضيها فيه من دون أن نخرج، فالكتب التي وجدناها باستطاعتها أن تنسينا السجن الذي سنكون فيه، ستشكل لنا فضاء لا نخرج فيه من المغارة فحسب، بل ستحملنا إلى عوالم أخرى مغايرة تماما لواقعنا، سنعيش الأشهر الخمسة وكأننا في عصور أخرى، سنغلق باب المغارة ولن نترك سوى الفتحة العلوية حتى يدخل منها الهواء، سننسى حتمًا الثلوج والجليد، وسأقرأ لهم الروايات التي لم نطلع عليها وسنشاهد الصور وستقرأ فينوس التعاليق الخاصة بها، سوف نتثقّف حتمًا، لكن ذلك لن ينسينا الألعاب الجسدية التي نقوم بها والتي عن طريقها نحافظ على قوتنا، وسأحاول في هذه المرة التغلب على بروميثيوس، إنه الآن عجوز!.

كنّا جالسين في القاعة الرئيسية، فنهضت وقلت بصوت عال: استمعوا إليّ يا أصدقائي، في هذا الشتاء من يتمكّن من التغلب على بروميثيوس، فله الحق في اختيار الحيوان الذي يعجبه، وسيكون له ولرفيقته فقط، هل أنتم موافقون؟ فصرخ الجميع بصوت واحد: نعم هذه فكرة جيدة! نظر إليّ بروميثيوس وقال بصوته الهادئ والرزين: إنني لم أهرم بعد! فقاطعه أورفيوس قائلا وهو يخفي ابتسامة ماكرة: فينوس هي التي تستطيع أن تؤكد هذا الأمر، ثمّ وجّه حديثه إليها قائلا والابتسامة ما تزال مرتسمة على شفتيه: هل صحيح ما يقوله رفيقك؟ لكنها لم تجبه، بل احمر وجهها فقط.

***

غالبا ما تراودني في الليل صور الذين فقدتهم جميعا: والدي وأفراد قبيلتي، إنهم لم يفارقوا ذهني، لن أنسى أبدًا أبي ونصائحه التي كان يقدمها لي طوال الوقت: ليس هكذا، أنظر، بهذه الطريقة... يا لك من ولد غبي، هل ستتعلم يوما؟ أما أمي فلم أعرفها على الإطلاق، ماتت وعمري لم يتجاوز العامين، الشيء الذي سمعته عنها أنها كانت جميلة جدا، لم يقبل أبي بعدها أيّة امرأة أظنّ أنه كان يحبها كثيرًا، أتذكر يوما ناداني فيه، ولمّا وصلت إليه بدأ يتفحص وجهي ثمّ قال وعلامات الدهشة بادية على محياه: إنّ ما قالته خالتك صحيح، فأنت تشبه أمك كثيرًا، ثمّ رأيت عينيه مغرورقتين بالدموع، كانت المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها دموع أبي!. كان حكيما عظيما، أتذكر جيدا الطريقة التي كان يتعامل بها مع أفراد القبيلة حيث كان يحل كلّ النزاعات الموجودة بينهم، وكم هي كثيرة، كان يخرج مع الرجال للبحث عن المؤونة ولا يعود إلا بعد مرور أسابيع وهو محمّل بالكثير من الحيوانات ورزم الحطب، قال لي ذات مرة: اسمع يا بني، إنني حرّمت عليهم جميعا أخذ الجثث المتواجدة في محيط هذه القرية، فأنا أرى الطقس يزداد سوءا!. لم أفهم دلالة عباراته إلا عندما كانت العواصف تحاصرنا وترفض أن نبتعد عن المغارة حيث أصبحت تهددنا بشكل دائم ومستمر.

كان عدد أفراد القبيلة يتجاوز المائة، وكنا نسكن في سفح هذا الجبل في بيوت من الحجر والجليد، سمعت بعض نساء القبيلة يتحدثن مع بعضهن ورنّت في أذني عبارة لم أنساها إلى حد الآن " إنهم يمثلون آخر جيل " وكنّ يتحدثن عنا، كنت آنذاك في الثامنة من عمري ،لم أكن قد فكرت في هذا الأمر من قبل، لكن بعد حديثهن بدأت الأسئلة تراود فكري: فأنا لم أر أي طفل صغير أقل من فينوس وأفروديت بصفتهما آخر الأطفال الذين ولدوا، فلماذا يا ترى؟ هل لأنهم لا يحبون الأطفال أم لأنهم يخافون أن يأكلوا كلّ مؤونتهم؟ ذهبت إلى خالتي لأتحرى الأمر، فسألتها قائلا: لقد مضى وقت طويل يا خالتي لم أسمع

فيها بولادة مولود جديد، فما السبب يا ترى؟ أمسكتني بين ذراعيها واحتضنتني حيث قالت: أظنّ أنك كبرت كثيرًا يا بني إنك تطرح أسئلة أكبر من سنّك بكثير، فقلت لها مترجيا: أجيبيني يا خالتي من فضلك، هل لذلك علاقة بالمؤونة؟ فقالت بصوتها الرقيق والحنون: كلا يا بني، المشكل الوحيد يكمن في هذا البرد الذي حرمنا من الولادة، أظنّ أنه قد أحدث خللا في أجسامنا... لكن لا تفكر في الأمر، فأنت موجود، وعدد الفتيات أكبر من عددكم لذلك ستكون لك رفيقة أو أكثر في المستقبل ثمّ ضمتني من جديد إلى صدرها محاولة إخفاء قطرات الدموع المتساقطة على خدّيها. منذ ذلك اليوم وأنا أكره هذا البرد، فتبًّا له لأنه نغّص حياتنا وتبًّا لهذا الجليد الذي حرمنا من الاستمرار في الحياة.

عندما يغيب أبي مع جنوده في رحلاته الكثيرة بحثا عن المؤونة، يتولى عمي أمور تسيير القبيلة، كان أقل سنا من والدي وكانت لديه رفيقتين وابنة واحدة تدعى أفروديت، أكبُرها بأربع سنوات، لمّا بلغتُ سن الرابعة عشر احتدم الصراع بين أبي وعمي بسبب طريقة توزيع المؤونة، فعمي كان يطالب بتوزيع حصص أكبر وأكثر، بينما فضل أبي الإبقاء على الحصص نفسها قائلا أنّ المستقبل أسود ويجب التحضير له من الآن. لم يرض عمي بكل التعليلات التي كان يقدمها له والدي، وأظنّ الآن أنّ المشكلة كانت أكبر بكثير من المؤونة، فعمي أراد أن يكون الحكيم الذي يقدّم الأوامر والذي يستشار في كلّ شيء، وليس التابع الذي تقدّم له الأوامر، إذ غالبا ما يعود أبي من رحلاته، فيقوم بتغيير بعض القرارات التي اتخذها عمي، وهذا ما لم يكن يرضاه هذا الأخير، واتخذ سبب المؤونة ليقوم بتحريض القبيلة عليه، ولمّا لم يتمكّن من تحقيق رغبته، دخل إلينا يوما، كنت متواجدا بالبيت مع والدي حيث كنت مستلقيا في الطرف الآخر من القاعة، فقال له عمي بصوت مرتفع يحمل معنى الأمر والتهديد: اسمع يستحسن لك أن تتخلى عن قيادة هذه القبيلة إنك أصبحت شيخا لا تقوى على تسييرها، دع الأمور لي، فقاطعه أبي بلهجة حانقة: أنسيت أنّ أمور القيادة هي موكلة لمن تختاره القبيلة، فحتى وإن تخليت عنها فلن يختاروك.. لكنّ عمي قاطعه بدوره قائلا والغضب يتأجج منه: لأنك تحرضهم

عليّ... فردّ أبي بالنبرة نفسها: لم أفعل أبدًا ما تقوله.. تساءل عمي متعجبا: وقراراتي التي تلغيها دائمًا؟ فردّ أبي بصوت هادئ ورزين: أنا أعيد الحق لأصحابه فقط. لكن عمي لم يقتنع بما سمعه حيث غيّر مجرى الحديث قائلا باستنكار: المؤونة موجودة بكثرة وأنت تحرم القبيلة منها، لماذا تدفع بهم إلى المخاطرة بعيدا وهي تتواجد بمحاذاتنا؟ وهنا غضب أبي، فمسألة المؤونة في نظره هي الخط الأحمر الذي لا يجب تجاوزه أبدًا لأن حياة القبيلة مرتبطة به، فردّ عليه بحدّة قائلا: هذا أمر لا يمكن لك أن تفهمه، والآن فقط تأكدت بأنني قد أخطأت عندما كنت أتركك في مكاني أثناء رحلاتي، لذلك، فمن الآن فصاعدا سأترك بروميثيوس في منصبي. اندهش عمي من هذا القرار الجديد، فقال: أنت تمزح أليس كذلك؟ لكن أبي لم يرد عليه، فرفع عمي صوته من جديد في وجه أبي متوعدا إياه بقوله: لن أغفر لك هذا يا ابن أمي، اسمع جيدا سوف تندم على قرارك. وهنا لم يتمالك أبي أعصابه حيث ردّ عليه بلهجة أكثر حدّة قائلا: هل تهددني؟ هيا أخرج من بيتي..

صرخ أبي في وجهه، فخرج عمي وهو يتمتم بكلام غير مفهوم، سمع سكان القرية كلهم بالحادثة وفي اليوم التالي وُجد أبي مقتولا على سريره والدم يغطي صدره، اتجهت الشكوك نحو عمي، ولمّا ذهبوا إلى منزله وجدوه فارغا، لم يكن هو الوحيد الذي غادر القرية بل رحل معه جانب من أصدقائه المقرّبين برفيقاتهم وأشيائهم الخاصة. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أخذوا معهم الكثير من المؤونة التي كنّا نخبئها في المغارة المتواجدة بالجبل. أتذكر ذلك اليوم جيدا وأتذكر أيضاً أنه لم تقطر دمعة واحدة من عيني رغم نواح وعويل نساء القرية على جسد أبي الذي وضع وسط ساحة القرية كانت خالتي أشدهن في النواح والعويل وكانت تصرخ بين الفينة والأخرى قائلة: هاهم تركوك وحيدا يا ابن أختي، ماذا ستفعل الآن؟ تعال إليّ، تقدّم لأحتضنك، لا تخف ما دمت هنا، لقد تركنا والدك ونحن في أمسّ الحاجة إليه ماذا سنفعل يا ترى؟.

كان همّ بروميثيوس وما تبقى من رجال القبيلة هو البحث عن المؤونة لأن الشتاء كان قادما، فأمضوا ثلاثة أسابيع وهو يجمعون الجثث إلى غاية أن تحصلوا على القدر الذي يكفي لقضاء الشتاء في أمان، وكان الكل يرى في بروميثيوس الحكيم المثالي الذي سيحل محل أبي، إذ قام بعمل جبار، لقد أنقذ القرية من الهلاك المحتوم، ثمّ جاء اليوم الذي أخبرنا فيه أحد أفراد القبيلة بمكان تواجد عمي وجماعته، وهي مغارة تقع على بعد ثمانية جبال جنوبا عندئذ أخذت خنجر والدي، وتسللت في الصباح الباكر ذاهبا إلى الجهة التي أشاروا إليها، كنت حذرا من أن أقع في قبضتهم، ولم أكن أعرف ما سيفعله عمي إن أمسك بي! حتمًا لن يقتلني. كنت خائفا من أن ألتقي جنوده، فعددت الجبال الواحد تلو الآخر إلى أن وصلت إلى السابع حيث تسلقته وبدأت أراقب من بعيد تحركات جنود عمي وتمكّنت من رؤية أفروديت بمعطفها المطلي بالأحمر وهي تتدرب في الخارج، كنت أرتعد من البرد، فنسمات الهواء البارد جعلت جسمي كله يرتعش، بقيت هناك مدة طويلة وأنا أراقب دخول وخروج رجال القبيلة إلى أن لاحظت عمي عائدا مع جنوده وهم يحملون جثث الحيوانات، عندئذ نزلت الجبل من الجهة الأخرى، واقتربت من مغارتهم بحيث لم ينتبه إليّ الحراس لانشغال الجميع بنقل الجثث إلى داخل المغارة، وكان عمي واقفا مع أفروديت، يصرخ على جنوده آمرا وناهيا. اقتربت منه دون أن أثير انتباه أحد إلى أن كنت وراءهما تماما على بعد خطوتين، التفتت أفروديت وتعرّفت عليّ فتغير لون وجهها وتجمدت في مكانها عندما رأت الخنجر بيدي، أحسّ عمي بوجود شخص وراءه، فاستدار، ولمّا رآني اندهش هو الآخر، لم أترك له أدنى فرصة للتفكير بل قمت مباشرة بزرع الخنجر في صدره قائلا له بصوت واضح وثابت: هذا من أجلك يا أبي، ثمّ أطلقت ساقي للريح، لم ألتفت إلى الوراء، بل واصلت عدوي، تارة أسقط على الثلج وتارة أخرى أتعثر فقط من دون أن أسقط وأحيانا تنزلق رجلي على الجليد. وطوال ركضي لم ألتفت مطلقا إلى الوراء، أتذكر فقط الصراخ الذي أصدرته أفروديت، كنت أظنّ أنّ جنوده يعدون ورائي وبمجرد أن أقف سيمسكون بي ويقتلونني شرّ قتلة، لذلك آثرت

عدم الالتفات ولا التوقف. كانت قريتنا ما تزال بعيدة، فظللت أجري إلى أن أحسست بيد تمسك بي، ظنّنته أحد جنودهم، فبدأت أصرخ، لكنني وبمجرد رؤية بروميثيوس سكتت. كان مندهشا من تصرفي حيث قال: أين كنت؟ القرية كلها تبحث عنك!. لم أستطع أن أقدم له الجواب بسبب التعب الذي أنهكني، فقد كنت ألهث والعرق يتصبب من جبيني على الرغم من برودة الطقس، التفتت إلى الوراء، كنت واثقا من أنهم على قرب منّا وسوف يجهزون عليّ وعلى بروميثيوس لكنني لم أشاهد أحدا منهم، فنظرت يمينا وشمالا، لم يكن يتواجد في المكان سوانا، عندئذ استعدت أنفاسي ورويت له ما حدث، فقال صارخا في وجهي: أيها الغبي كدت تقضي على نفسك! لِمَ لم تخبرني بالأمر؟ فقلت له بصوت عال: .. أردت الانتقام لوالدي بنفسي، ثمّ أضفت بافتخار: ولقد قمت بذلك، سيكون أبي فرحا لو كان على قيد الحياة! وفي تلك اللحظة بالذات انهمرت الدموع من عيني، فأمسكني بروميثيوس ووضعني على ظهره متجها بي إلى القرية وهو يقول: بل سيصفعك حتمًا!.

روى بروميثيوس للقبيلة ما حدث ولم يخف في الحقيقة سعادته، وفرح الجميع بتصرفي خصوصا وأنّ الأخبار التي وصلتنا فيما بعد تشير إلى وفاة عمي متأثرا بالطعنة التي قدّمتها له. كانوا كلهم سعداء بي إلا خالتي التي غضبت عليّ غضبا شديدا إذ أخذت عصا كان يستعمل كرمح وبدأت تعدو ورائي متوعدة: سأعلمك أيها الشقي كيف تتصرف لوحدك دون استشارة أحد. كانت خالتي في أعماقها سعيدة بما قمت به، إذ سمعتها يوما تروي بفخر قصة ثأري لإحدى نساء القبيلة واصفة إيايّ بالبطل، لكن عندما دخلت إليها غيّرت الموضوع، فتقدمت نحوها وقبّلت جبينها ثمّ انصرفتُ. مسكينة خالتي! فهي لم تعش طويلا حتى تطمئن عليّ .

تولى بروميثيوس قيادة القبيلة بعد مدة غير طويلة من تلك الحادثة، واتفق الجميع على أنه أهل لها، فقام وسط الساحة وألقى عليهم خطابا، ومن بين الأمور التي أتذكرها قوله: لا تنتظروا من الحكيم أن يفعل كلّ شيء،

الحكيم هو الذي يسانده الجميع، بدونكم لن أفعل شيئاً، حياتنا مرهونة بوحدتكم، لنكن متحدين حتى نتمكّن من السيطرة على هذه الطبيعة التي تحاول أن تفرض نفسها علينا، أنا موافق على قيادتكم إلى أن يكبر قليلاً ابن حكيمنا العظيم، وعلينا أن نضع ثقتنا فيه، لقد أثبت للجميع شجاعته وشهامته سيكون نِعم الحكيم لكم لأنه ذكي وواع بما هو خير لكم، لا لأنه ابن حكيمنا المقتول، بل لكون صفاته تؤهله للقيادة، فعلى جيل الشباب تحمّل المسؤولية من الآن ليكون مستقبلهم آمنا بين أيديهم. فبدأ الجميع يصرخ: بروميثيوس، بروميثيوس، بروميثيوس .

لقد وفى بروميثيوس بوعده، فبمجرد بلوغي الثامنة عشر من عمري جمع أفراد القبيلة وخطب فيهم قائلا: لقد آن الأوان لأن يقودنا هذا الشاب، وسنكون له السند في تسييره شؤون القبيلة. لم أوافق على تولي ذلك المنصب إلا بعد أن وعدني بروميثيوس بالاشتراك معي في التسيير، كنت أقوم بالمهام وأنا أستعيد كلّ الذكريات التي أملكها عن والدي، فأقول في نفسي: لو كان في موقف كهذا ماذا سيفعل يا ترى؟ ولمّاً أصل إلى رأي ما أعرضه أولا على بروميثيوس، وعندما أنال موافقته أعرضه على القبيلة .

في إحدى الأمسيات هاجمتنا القبيلة الأخرى بقيادة هاديس وكان من المقربين إلى عمي، لم أكن أتصوره بتلك الهمجية، استغل ذهابي مع بروميثيوس ورجال قبيلتي للبحث عن الحطب، ليقوم بتكسير بعض البيوت وحرق الأمتعة وسرقة المؤونة. وعندما عدنا وجدنا كلّ شيء محطم. ثارت ثائرتي وقلت لبروميثيوس: هيا بنا لنقضي عليهم جميعا! فقال بصوت ينم عن الحكمة والتعقل: إنّ الليل قادم! علينا أولا أن نضع الجميع في مكان آمن ودافئ، والقبيلة الأخرى ستكون الآن حتمًا في انتظارنا بكامل عدتها، لذلك يجب أن نفكر أولا في المؤونة التي نفذت، فقلت لبروميثيوس: إنها المرة الثانية التي يستولون فيها على ممتلكاتنا، لذلك يجب أن نقوم بمثل ما قاموا به، وأن نلقنهم درسا لن ينسوه أبدًا .

جمعنا من المؤونة ما يسدّ حاجاتنا خلال شهر، وقمنا بإسكان أصحاب المنازل المهدمة في المغارة. وفي إحدى الليالي جاءني بروميثيوس قائلا: غدا سيذهب هاديس وجماعته للبحث عن المؤونة، فالفرصة الآن سانحة للانتقام. لم أنم في تلك الليلة من شدة الفرح، وفي الصباح الباكر جمعنا الرجال واتجهنا نحو مغارتهم، لم تكن فيها إلا النساء وشيخين طاعنين في السن. لم نواجه أية مقاومة، أخذنا من المؤونة المقدار الذي سرقوه منّا وتركنا لهم الباقي، كنت في تلك الأثناء أبحث عن أفروديت إلا أنني لم أشاهدها، أظنّ أنها خرجت مع الرجال. كان كلّ رجل منّا محملا بجثة حيوان أو حيوانين، ولمّا وصلنا إلى قريتنا استقبلتنا النساء بالغناء والرقص وكأننا عدنا من معركة كبيرة. كنّا جميعا سالمين وهذا هو المهم، لقد لقّناهم درسين: الأول يتمثل في عدم الاستهانة بقوتنا، والثاني أننا وضعنا سعادتنا في حريتنا وحريتنا في شهامتنا، إننا لم نقم بما فعلوه إذ لم نأخذ إلا حقنا ولم نكسر شيئاً من متاعهم، لقد ثأرنا لأنفسنا بحكمة وليكن هذا درسا لهم.

لم يهضم هاديس ما حدث، حيث قام بعد أسابيع قليلة من تلك الواقعة بمحاصرة بعض من جنودنا كانوا يبحثون عن الحطب، فقضى عليهم جميعا. كان نزول الخبر علينا كالصاعقة حيث حلّ الحزن على جميع أفراد القبيلة، وتعالت الأصوات الداعية إلى الانتقام، وبلغ الغضب ذروته. طالبني البعض بالقضاء على القبيلة كلها ومحوها من على سطح الأرض. حاولت تهدئتهم وإقناعهم بأنّ القتل لا يحلّ جميع الخلافات ولا يجب أن نعود إلى قانون الغاب، لكنني لم أفلح في التخفيف من شدة غضبهم إذ صرخت امرأة في وجهي قائلة: أنت ثأرت لأبيك بقتل عمك، فلماذا ترفض الآن الثأر لدماء أبنائنا؟ نظرت إلى تلك المرأة ثمّ نظرت إلى جميع وجوه الحاضرين في الساحة وخاطبتهم بصوت عال: صحيح، لكن أصدقكم القول إن قلت لكم بأنني نادم على ما قمت به، فالقتل لا يمكن له أن يمحو ألم الفراق ولن يحدث أبدًا السعادة التي تعوض من افتقدناه، فلا يجب أن يكون الانتقام هو المسعى الوحيد، بل يجب أن نجعله المسعى الأخير الذي إن لم تفد المساعي الأخرى في تصويب

الأخطاء سنكون مضطرين عندئذ إلى اللجوء إليه، يجب أن نعالج الأمور بحكمة. فقاطعني أحدهم قائلا: وما الحل؟ أنسكت ونبقى مكتوفي الأيدي ننتظر دورنا في الموت؟ فقلت له: لم أقصد هذا الأمر، أنا لا أريد أن نتصارع وأن نعيش في خوف وقلق وحروب ومآسي، أنتم تعرفون أننا آخر جيل على هذه الأرض، فلِمَ نعقد الأمور أكثر؟ أليس ممكنا أن ننعم سويا بما بقي لنا من أيام عليها؟ ألا ترون أنّ عدونا الحقيقي مشترك ويتمثّل في هذا الطقس الذي يحاول يوما بعد يوم أن يفتك بنا؟ إننا إذا واصلنا الصراع مع القبيلة الأخرى، فمن المستحيل علينا أن نوفق بين البحث عن المؤونة والخوف من الاعتداءات، فقاطعني مجددا الشخص نفسه قائلا بغضب: وماذا تريد أن نفعل؟ هل سنستسلم لهم؟ فقلت: لا ولكن سنحاول لمّ الشمل من جديد أو على الأقل الوصول إلى اتفاق عدم الاعتداء، سأرسل أسكليبيوس المعروف بحكمته ليتفاوض معهم، سنحاول أن نطوي صفحة الماضي إلى الأبد، فقاطعني من جديد قائلا: وإن رفضوا العرض؟ فقلت: عندئذ سنتخذ الإجراءات التي تتماشى مع ذلك الوضع.

كنا ننتظر عودة أسكليبيوس بفارغ الصبر، وكنت في الحقيقة طوال مدة الانتظار أرتعد من الخوف، الخوف من أن يقتل الرسول، فأسكليبيوس محترم من قبل الجميع، ومحبوب كثيرًا بيننا، وهو يعرف جيدا هاديس، لذلك كنت آمل أن يصل إلى إقناع هذا الأخير بضرورة التعاون للتمكّن من مجابهة هذه الطبيعة. اقترب حلول الليل وتزايدت مخاوفي، ثمّ نظرت إلى بروميثيوس الجالس بجانبي، وكان هو الآخر شاحب الوجه، تبدو عليه علامات القلق إلا أنه كان يحاول إخفاءها، لكن ملامح وجهه تظهر أنه بمثل حالتي، نظر إليّ وفهم ما يجول بخاطري، فقال هامسا في أذني: لقد اتخذت القرار المناسب، ثمّ سكت. مثّل قرب حلول الليل بالنسبة إلي علامة على أنّ أسكليبيوس لن يتمكّن من العودة، وهذا ما سيعقد الأمور بحيث ستأخذ أبعادا أكثر خطورة، لذلك بدأت أبحث في ذهني عن الطرق التي أتمكّن بها من توحيد الجميع على القرار الذي سنتخذه، وبدأت أسمع الهمسات والإشارات التي يقوم بها البعض، وفجأة قدم

إلينا أحد الرجال وهو يجري قائلا: لقد عاد أسكليبيوس، لقد عاد أسكليبيوس!

.

لمحناه وهو يمشي بصعوبة، فذهب إليه بروميثيوس وساعده على الوصول إلى البيت الذي كنّا مجتمعين فيه. كان وجه أسكليبيوس أبيضا بسبب الثلج الملتصق به وكان أنفه محمرا من شدة البرودة لدرجة أنّ الدم قد تجمد على شفتيه اللتين كانتا منتفختين، وبهما تشققات عديدة وكأنهما تقطعتا إربا إربا، لقد كان البرد شديدا، أخرج يده من القفازات الجلدية وإذا بهما قد أدميتا، فقامت إحدى النساء وأحضرت قطعتين من الصوف وإناء به دهون حيث طلت يديه بها ثمّ طوّقتهما بقطعتي القماش، وبعدها نزعت من رجليه حذاءه الجلدي، كان المنظر مرعبا لا يطاق إذ لم نكن قد رأينا في السابق رجلين أثّر فيهما البرد بتلك الدرجة، فطلبتُ من الجميع الخروج من القاعة حيث تركنا تلك المرأة معه، ثمّ طلبت من بروميثيوس أن يخبر الآخرين بأننا سنحاول أن نعرف ما حدث معه عندما تتحسن حالته .

لم يتعاف أسكليبيوس إلا بعد أسبوع من عودته، جمعت أفراد القبيلة في الساحة وقلت له أمامهم: الآن يمكن لك أن تروي لنا بالتفصيل ما جرى. فقال بصوت خفيض: ذهبت إليهم كما اتفقنا، وقبل أن أصل إلى الجبل الذي توجد به مغارتهم، حاصرني رجلان من قبيلتهم حيث صرخ أحدهم في وجهي قائلا: لقد جئت لتتجسس علينا! وقال الآخر بسخرية: يا له من أبله، أتى لوحده، فقاطعته قائلا: كلا، بل جئتكم لأمر هام وأريد رؤية حكيمكم، فقال لي أحدهما بحنق: أنت تكذب، ونظر إلى صديقه ثمّ قال بغضب: يستحسن أن نقضي عليه الآن، فقلت صارخا في وجهه: ألا تفهم ما أقوله؟ إنني رسول وجئتكم حاملاً رسالة لحكيمكم، وأيّ شيء سيصيبني ستتحملان كلّ العواقب التي ستنجر عنه، فقال الآخر وعلامات الارتباك بادية على وجهه: يستحسن أن نأخذه للحكيم ليتدبر أمره، ثمّ فتّشا ملابسي ولمّا لم يعثرا على أيّ سلاح، كبّلا يدي ثمّ قاداني إلى المغارة، لاحظت في طريقي وجود بعض الجنود الذين

يحرسون المغارة ، ولمّا دخلنا إليها شاهدت النساء مجتمعات في القاعة الأولى، بينما كان الرجال في القاعة الأخيرة الموجودة في الطرف الآخر من الرواق، كانوا مشكلين حلقة حول النار، وكان على يمين هاديس تاناتوس وعلى يساره أفروديت، وكانت المرأة الوحيدة في القاعة. لمّا رآني هاديس تعجّب وقال للجنديين: هل كان يتجسس علينا؟ فقلت: كلا، بل جئتك رسولا، فقاطعني وعلامات الغضب بادية في صوته، حيث صرخ قائلا: أسكت يا أسكليبيوس، فأنا لم أوجه حديثي إليك. التزمت الصمت ثمّ نطق أحد الجنديين قائلا: هذا ما كنّا نظنّه، لكنه يقول بأنه مبعوث من طرف قبيلته، فقال مخاطبا إياي: هل هذا صحيح؟ فأجبته: نعم. ثمّ قال بسخرية: إذن جئت معلنا استسلام قبيلتك؟ فقاطعته قائلا: بل جئت للسلم لا للاستسلام. فقال وكأنه يريد أن ينهي لقائنا بسرعة: هيا هات ما عندك، فقلت: إنّ التصرف الذي قمت به اتجاه أفراد قبيلتنا لم يعجب أحدا منّا، لكننا آثرنا الحكمة والتعقل وقلنا: يجب أن نوقف هذه العداوة الموجودة بيننا، فنحن من قبيلة واحدة ونشكّل آخر السكان على هذه الأرض، إذ لا يوجد غيرنا، إنّ عدونا واحد ويتمثل في هذه الطبيعة التي تريد أن تقضي علينا، نحن على علم بأنها سوف تصل إلى هدفها عاجلا أم آجلا، لذلك نودّ أن نعيش في سلام وأمن ما تبقى لنا من أيام عليها، ولهذا، فإن الحكيم يخبركم بإمكانية عودتكم إلى القرية وأننا سوف نطوي صفحة الماضي وسنحاول أن ننسى كلّ ما حدث في السابق، فما رأيكم؟ نظر هاديس يمينا إلى تاناتوس ثمّ يسارا إلى أفروديت وابتسم وقال ساخرا: أي بمعنى آخر تريدون أن نستسلم؟ فقلت: بل نريد أن نعيش في سلام، فتساءل بحدة: تحت إمرة حكيمكم؟ فأجبته: إنّ مسألة القيادة يمكن أن نسويها فيما بعد، فأنت تعلم قوانيننا، فأفراد القبيلة هم الذين يختارون الحكيم، لكنه قاطعني قائلا: أنا أعلم بذلك، وأعلم أيضاً أنكم أكثر عددا منّا، أي أننا سنكون حتمًا تحت إمرته. ثمّ وقف وهتف فيهم قائلا: هل تريدون أن تكونوا تحت إمرة ذلك الصبي؟ فأجابه جنوده بصوت واحد: كلا، أنت حكيمنا، يعيش حكيمنا هاديس، يعيش، ثمّ بدأوا يصرخون: هاديس، هاديس، هاديس، فرفع يده فسكتوا على

الفور ثمّ قال: اسمع يا أسكليبيوس، إنني أحترمك كثيرًا فقد كنّا أصدقاء في السابق، لكنني سأقول لك شيئاً واحدا: إذا أردتم أن نتوحد، فإننا نقبل ذلك لكن على شرط أن أكون أنا الحكيم، فنحن نملك أقوى الرجال على الرغم من قلّتهم، وسنمحي بذلك كلّ ما سبق وفق ما تقوله، عندئذ فقط يمكن أن نتحدث عن السلم، أتسمع؟ وإلا فلا سلم بيننا! ثمّ جلس ساكتا، ففهمت أنّ الأمر لا نقاش فيه، لذلك قلت له: هل تسمح لي بالانصراف؟ فقال مبتسما: عندما أأذن لك، ثمّ صرخ في وجه الجنديين بلهجة آمرة قائلا: خذوه إلى أمام المغارة. تابع أسكليبيوس روايته قائلا: لقد أمضيت ما تبقى من اليوم أمام الباب تحت تلك البرودة حيث لم يسمح لي بالعودة إلا بعد مدة طويلة، وأنتم شاهدتم الحالة التي وصلت فيها إليكم. ثمّ سكت أسكليبيوس، فقمت مخاطبا الجميع: لقد سمعتم ما رواه لنا، وسمعتم بردّ هاديس فما رأيكم؟ فقال أحدهم غاضبا: هيا نهاجمهم الآن ونقضي عليهم جميعا، وقال آخر بنفس الحدة: إنه يريد أن يأكل طعامنا ويتركنا جائعين لن نقبل أن نموت من الجوع، وقال شخص آخر بامتعاض: لو هاجمناهم عندما قتلوا أفراد قبيلتنا لما كانت له الجرأة الآن لهزأ بنا، فقلت لهم: سأجتمع أنا وبروميثيوس وممثليكم لدراسة الوضع. شكرا لكم، ثمّ قلت لأسكليبيوس وأنا أغادر الساحة: هل تستطيع الحضور؟ فردّ قائلا: أنا رهن أوامركم .

اجتمعنا، وكنت أول المتحدثين، حيث خاطبت أسكليبيوس قائلا: هل رأيُ هاديس يمثّل بالنسبة لك رأي الجميع أم أنه يمثل رأيه فقط؟ فقال: حسب ما شاهدته، فإنهم لا يعارضونه أبدًا. ثمّ سألته من جديد: تبعا لمعرفتك به في السابق، أتظنّ أنه سيكرر ما قام به؟ فقال بنبرة تحمل كلّ معاني اليقين: نعم. فنظرت إلى الحاضرين وخاطبتهم قائلا: قدموا لي آراءكم واقتراحاتكم، فقال بروميثيوس: نود أن نسمع رأيك أولا، فقلت: حسناً، أنتم ترون أنّ هاديس يسيطر على قبيلته، ولقد سبق وأن وجدنا أحد أفرادها مقتولا من طرفه لأنه حاول العودة إلى قبيلتنا، فأغلبهم يخافون منه، إنّ عدونا ليس لا القبيلة ولا الجنود، بل هو هاديس لأنه يمثل جانب الشر في عصر نحن لسنا بحاجة إليه،

لذلك أقترح عليكم تصفيته لوحده، وإذا ما لاقينا مقاومة من طرف أتباعه، فإننا لن نقوم إلا بالدفاع عن أنفسنا، فما رأيكم بفكرتي هذه؟ فقال بروميثيوس: أنا أوافقك الرأي، فربما بمقتل هاديس ستعود قبيلتهم إلى جادة الصواب. لم يعارضني الآخرون بل ساندوا فكرتي، وقمت بعدها بشرح الخطة التي سنتبعها للقضاء عليه. وعندما أخذ الجميع يغادر القاعة طلبت من أسكليبيوس البقاء حيث قلت له بصوت خافت: قلت بأنّ أفرودوت قد حضرت الاجتماع، فقال: نعم، فسألته وعلامات الحيرة بادية على وجهي: هل تظنّ أنها مقتنعة بآراء هاديس؟ فقال: لقد ظلّت ساكتة طوال الاجتماع، لكنها نادت مثل الآخرين بحياة هاديس، فشكرته وتركته ينصرف .

إنّ آخر لقاء لي معها يعود إلى اليوم الذي قتلت فيه والدها، لم أكن أقصد ذلك وأنا الآن نادم على ما اقترفته، فعلى الرغم من خيانة والدها لنا إلا أنه كان من اللائق أن أتبارز معه في ساحة المعركة وأن نتقابل بأسلحتنا، وليس أن يقتل بتلك الطريقة وأمام عيني ابنته، أظنّ أنها الآن تكرهني كرها شديدا وتنتظر فقط الفرصة السانحة لكي تقضي عليّ، وأنا أفهمها وأفهم شعورها، فلقد عانيت الأمر نفسه، لكن من قال أنّ الأيام ستدور بهذا الشكل؟ من يتصور أن أفروديت التي نشأت معي ولعبت معي وتدربت إلى جانبي، ستصبح يوما عدوة لي؟ عندما كنّا صغارا قلت لها في إحدى المرات: أنا أعلم أنك ستكونين رفيقة لي، فقالت: ومن قال لك أنني سأطلبك؟ فقلت لها: لن تجدي أحسن مني ، فأنا ابن حكيم القبيلة، وأنا وسيم وقوي وذكي ولا أحد يستطيع أن يتغلب عليّ، انظري إلى قوتي، ثمّ بدأت أقفز وأقوم بحركات بهلوانية حتى وقعت على الأرض، فساعدتني على النهوض، وقالت مبتسمة: لن أكون رفيقة لإنسان متهور! ثمّ تركتني وهي تضحك. نعم أنا إنسان متهور، لقد قتلت والدها أمام عينها. عندما أقارن جمالها مع جمال الفتيات المتواجدات في المغارة أجد أنّ الفرق بينهن شاسع، كانت فينوس الوحيدة التي تقاربها في الجمال، إنك قد خلقت لي يا أفروديت لكن الطبيعة أبت إلا أن تفرّق بيننا .

***

اخترنا ديموفون ليقوم بمهمة مراقبة تحركات القبيلة الأخرى لأنه كان خفيف الحركة وسريع العدو. ركّزنا اهتمامنا على تحركات هاديس، كان ديموفون يرتدي أثناء مراقبته معطفا أبيض من الجلد وتحته أربعة أقمصة صوفية، ويضع على رأسه قبعة بيضاء تمتد من أعلى رأسه إلى غاية رقبته، حيث تخفي شعره وأذنيه إلى جانب رقبته وتمتد من الأمام إلى غاية عينيه حيت كانت تغطي حاجبيه، وكان يلبس أيضاً قفازين أبيضين من الجلد الناعم يمتدان إلى غاية تداخلهما مع يدي المعطف، ومن بين ما يرتديه أيضاً حذاء من الجلد هو من اللون نفسه ويصل إلى غاية ركبتيه، وكان هذا اللباس يمثل تقريبا طراز لباس القبيلة كلها، والاختلاف يكمن فقط في نوعية الجلود التي تختلف باختلاف الحيوانات المأخوذة منها والألوان المتعددة، بينما جاءت ألوان ملابسه كلها بيضاء حتى يتمكّن من أداء عمله متفاديا لفت نظر أفراد القبيلة الأخرى. أخذ معه بعضا من الأكل، واتجه قبل ارتفاع درجات الحرارة إلى الجبل المقابل لمغارة القبيلة الأخرى حيث اتخذ موقعا هناك يلاحظ فيه كلّ تصرفاتهم، آخذا حيطته من حراس المغارة إذ لم يتمكّنوا من التفطن إليه، وكان يتبع الجنود في كلّ تحركاتهم سواء أثناء بحثهم عن المؤونة أو أثناء بحثهم عن الحطب.

استمرت مراقبته لهم أسبوعين كاملين. كان يخرج باكرا ويعود قبل حلول الليل، وفي نهاية الأسبوع الثاني اجتمعنا في بيتي وطلبنا منه أن يقدم لنا تقريرا مفصلا عن كلّ الأشياء التي لاحظها، فأخبرنا بأنّ هاديس يشاركهم في جميع الرحلات التي تقام للبحث عن المؤونة، ويبقى في المغارة عندما يكون الأمر متعلقا بالبحث عن الحطب، فكانوا يخرجون لمدة ثلاثة أيام، ويبقون في المغارة يومين، وبخصوص المواقع التي يبحثون فيها أخبرنا بأنها كانت تتغير مع كلّ دورة، فالأيام الثلاث الأولى تخصص لموقع واحد ثمّ تأتي أيام الراحة بعدها يقومون بتغيير الموقع حيث يذهبون إليه طوال ثلاثة أيام أخرى وهكذا دواليك.

وأحيانا يخرج نصف الجنود للبحث عن المؤونة ويخرج النصف الآخر للبحث عن الحطب، وفي تلك المدة تبقى المغارة خالية من الجنود حيث لا يوجد بها سوى النساء والعجائز وجندي واحد يحرسها متخذا مكانه في الجبل المقابل للمغارة، حيث يقبع بداخل مغارة صغيرة.

قال بروميثيوس وقد أشرقت عيناه: شيء رائع، بما أنهم منظمون بهذا الشكل، فمن السهل علينا أن نوقعهم في كمين! وقال آخر بحماس: يجب أن نسرع قبل أن يغيروا من برنامجهم، فقلت: معكما الحق، ونظرت إلى ديموفون مخاطبا: هل هم اليوم في راحة أم أنهم خرجوا في رحلتهم؟ فقال ديموفون: اليوم بدأت راحتهم، الشيء الذي يعني أنه في يوم الغد سيمكثون في المغارة، ولن يخرجوا منها إلا بعد غد، فقلت له: إذن ما عليك إلا أن تذهب بعد غد وتتبعهم لتتعرف على المكان الذي سيذهبون إليه، ثمّ خاطبت بروميثيوس قائلا: هل رجال قبيلتي مستعدون؟ فقال: إنهم على أتم الاستعداد ولا ينتظرون سوى إشارتك.

كان يوم المعركة باردا، أحسست بالبرودة تتسلل إلى جسمي قبل خروجي من الفراش، لم أنم جيدا طوال الليلة، حيث كنت أفكر في المواجهة التي سنقوم بها، وكان همي الوحيد هو الرجوع منها من دون أن أفقد أيّ فرد، فمقتل أحد رجالنا من طرف هاديس سيؤدي بالضرورة إلى تناقص حجم المؤونة، لأننا لن نستطيع جمع نفس المقدار الذي اعتدنا عليه. ولكي أضمن فرص النجاح في مهمتنا آثرت أن أضيف عنصرين حتى يكون عددنا أكبر من عددهم، فعددهم عندما يخرجون في رحلاتهم حسب رواية ديموفون ثابت لا يتغير فهم أربعة عشر فردا، لذلك ارتأيت اصطحاب عدد أكبر من الرجال مع الأخذ بعين الاعتبار عدم ترك القرية والمغارة من دون حراسة .

إنّ أغلبية الرجال الذين سيشاركون في هذه المعركة هم نفسهم الأفراد الذين كانوا يذهبون معنا للبحث عن المؤونة والحطب، فأنا أعرفهم واحدا واحدا، ستة منهم كانوا في مثل سني، أما البقية فيكبرونني. اكتسبوا الخبرة في

المعارك أيام كان والدي حكيما، حيث هاجمنا أفراد أتوا من الشمال، كانوا كالوحوش، إلا أنّ جنودنا تمكّنوا من صدهم وقتلهم جميعا. كانت المرة الأولى التي أرى فيها غرباء بتلك الوحشية، ففي السابق كانوا يأتون إلينا من الجهات الأربع للانضمام إلى قبيلتنا والتعاون معا على الاستمرار في الحياة، فالمناطق التي كانوا يسكنون بها قد أصبحت غير صالحة للحياة بسبب البرودة الشديدة. أعجبوا بالطقس السائد عندنا، كنا نقدم لهم استقبالا حارا، فهم جاءوا جائعين يطلبون المساعدة، فاستجبنا لطلبهم بصدر رحب. لكن الأفراد الذين هاجمونا كانوا مختلفين عنهم حيث أتوا كالغزاة. لاحظت شجاعة أبي في الميدان، إذ كنت قابعا داخل البيت أختلس النظر إلى الخارج عبر النافذة، فإذا بي أراه حاملاً سيفه يضرب به يمينا وشمالا مسقطا العديد من الأعداء. عادت صور ذلك المشهد لتتراءى أمام عيني، فتنهدت وقلت متمتما: ليتني أملك تلك الشجاعة لأحارب بها اليوم، فالظروف تتشابه تقريبا، ونحن نبحث عن السلم لقبيلتنا، وقد حاولنا الصلح معهم لكنهم رفضوا، لذلك لم يتبقى سوى القوة كوسيلة نحاول عن طريقها المحافظة على أرواحنا. كنت في الحقيقة أبحث فقط عن المبرر الذي أحاول عن طريقه إقناع نفسي القيام بتلك المعركة، إذ أرفض في صميمي مثل هذه الطرق، لكن ما باليد حيلة، يجب أن نكون جميعا متحدين، ويجب أن أظهر لهم بأنني أساندهم، لذلك يجب أن أقاتل بشراسة على أمل قتل هاديس بيدي حتى أتمكّن من شفاء غليل النساء اللواتي قتل رفاقهن .

كنا نلبس جميعا معاطف بيضاء اللون وكل واحد منّا كان يحمل خنجرين وسيف، إلا ثلاثة أشخاص كانوا يحملون معهم رماحا بدل السيوف، خرجنا قبل ارتفاع درجات الحرارة، واتخذنا مسارا غير مباشر للوجهة التي كنّا نقصدها حيث لم نرد أن نترك وراءنا آثارا حتى لا يكتشف أمرنا. كان الطريق شاقا، إذ اتخذنا مسالك تمر فوق مرتفعات الجبال، ممّا جعلنا نمضي وقتا طويلا لكي نصل إلى المكان الذي كان سيقصده هاديس وجماعته، كنّا خائفين من أن يسبقونا إليه، إلا أننا تمكّننا من الوصول إلى الموقع قبلهم، لكننا فقدنا

الكثير من قوتنا بفعل التعب الذي أصابنا نتيجة الوعورة التي صادفناها في الطريق. حاول جنودي إخفاء تعبهم وقلقهم، فرسموا على وجوههم ابتسامات مصطنعة توحي بسعادتهم لكنهم في الحقيقة كانوا خائفين مثلي من المصير المجهول الذي ينتظرنا. إنّ عدم تعودنا على القيام بالمعارك على الرغم من التدريبات المستمرة التي كنّا نقوم بها قد جعلنا نشك في قوتنا. كنّا خائفين دوما من أن تهاجمنا أطراف أخرى، غير أنّ وقتا طويلا قد مرّ من دون أن يحل أيّ غريب إلى قريتنا، الأمر الذي أوحى لنا باحتمال موتهم جميعا سواء تحت تأثير البرد أو الجوع، ثمّ جاءت مشكلتنا مع القبيلة الأخرى لنضطر من جديد على التدرب وأخذ الحيطة حتى لا يقضى علينا.

قال بروميثيوس بصوت خافت وجديّ: انتبهوا، إنّ هدفنا هو هاديس لا غير، لذلك فإننا عندما نتمكّن من قتله ستكون المعركة قد نجحت بالنسبة لنا ويجب علينا أن نترك الميدان، إنّ انسحابنا لا يعد خوفا وإنما نجاحا لنا، فلا تحاولوا أن تقضوا عليهم، دافعوا فقط عن أنفسكم، وإن رأيتم بأنّ حياتكم مهددة، فيمكن لكم أن تدافعوا عنها، واحذروا من هاديس وتاناتوس فهما محاربين قويين. ثمّ سكت بروميثيوس ونظر إليّ وكأنه يقول لي: تحدث معهم وارفع من معنوياتهم، فقلت بصوت خفيض ولهجة حازمة: أيها الأصدقاء، فكروا في الذين فقدناهم، هاديس هو السبب، سيدفع ثمن حماقته غاليا، وليكن عبرة لأفراد قبيلته، حتى لا يفكروا بأننا ضعفاء أو خائفين، إننا أقوى وأكثر عددا منهم وسننجح لأن هدفنا نبيل، فنحن لا نحاول إلا حماية شرفنا وشرف قبيلتنا، لقد علّقوا آمالا كبيرة علينا، إنهم ينتظرون أن نثأر لهم وهذا ما سنقوم به، وسوف نقوم به، إننا نريد السعادة للجميع وهذا منطقنا في هذه الحياة ، وكل من يحاول تحقيق سعادته بإيذاء الآخرين، فلن نسكت عنه هل أنتم معي؟ فقال الجميع بصوت واحد وعيونهم تتلألأ حماسا: نعم نحن معك!، ثمّ تابعت كلامي قائلا: ها هي خطتي، كلّ واحد منّا سيأخذ موقعا في هذه الجبال وسيغطي نفسه بالثلج، وسنقوم بإخفاء آثارنا وعندما أخرج من الثلج ستكون علامة لبدأ المعركة لن نبتعد كثيرًا عن بعض، فهم سيمرون حتمًا من

هذا الطريق وكما قلت لكم، إننا لا نريد القضاء عليهم بل يكفينا هاديس، هل فهمتم؟ .

أخذ كلّ واحد منّا موقعه حيث اختفينا تحت الثلوج، لدرجة أنه عندما ننظر إلى الطريق يخيّل لنا أنه لم يمر منه أيّ شخص، إذ لا نرى سوى الثلوج التي تكسو المنطقة، بينما لا يظهر جنودي على الإطلاق، كانت درجات الحرارة قد ارتفعت قليلاً لكننا بدأنا نحس بالبرد وهو يدخل أجسامنا، كنت أتمنى أن لا يبطئ هاديس وإلا فإن كل جنودي سيصابون بالمرض. خيم على المكان صمت رهيب وطويل، كنت أفكر في الأشياء التي يمكن أن تتبادر بأذهان جنودي في تلك اللحظات، النار حتمًا من بين الأشياء التي يتمنونها، لكننا فجأة سمعنا وقع الأقدام على الثلج. كنت أتوسط جنودي، نظرت إلى المنعطف الذي تصدر منه الأصوات إلى أن شاهدتهم يسيرون باتجاهنا وكان هاديس بلباسه وهيأته يتقدمهم شامخا رأسه، لكنه فجأة توقف، ونظر يمنة ويسرى، كنت أظنّه قد اكتشف أمرنا، وبالتالي فعل المفاجأة التي عولنا عليها لن تكون ممّا يجعلنا لا نتّكل إلا على قوتنا فقط. رفع هاديس يده ونادى تناتوس، وهمّ بالحديث إليه، كانت كلّ آذاننا وأعيننا متجهة صوبه، أحسسنا بالعرق وهو يتصبّب من جبيننا ونحن داخل الثلج، قال مخاطبا تاناتوس بصوته الجهور: لقد وصلنا إلى الموقع فهل سنبحث هنا أم نتقدم قليلاً؟ فقال تناتوس بصوت ينمّ عن الأدب والخضوع: بالأمس كنّا قد بحثنا في هذه الجهة، حيث أشار بيده إلى المكان المحدد، وتابع قوله: لكننا لم نجد فيه شيئاً لذلك يستحسن أن نبحث في هذه الجهة وأشار إلى المكان الذي كنّا نتواجد فيه. لقد أحسنت يا بروميثيوس! فقد علمت بدقة الموقع الذي سيختارونه. تقدم هاديس وقال: هيا ابدأوا بالحفر. كان هاديس على بعد خمسة أمتار مني، وكان جنوده موزعين على كافة الموقع، ولمّا همّوا بالحفر خرجت من تحت الثلج وخرج جنودي في اللحظة نفسها. اندهش الجميع حيث سقط بعضهم أرضا بينما لم يجد البقية متسعا من الوقت لرفع أسلحتهم لقد حوصروا جميعا! لم يجد هاديس ما سيقوله بل بقي فاتحا فمه من وقع الدهشة، فقلت لهم بصوت مرتفع ولهجة حادة: اطرحوا

أسلحتكم وأدواتكم على الأرض، ولن نؤذيكم!، فرأيتهم ينظرون إلى هاديس وهم حيرى من أمرهم، فخاطبت هاديس قائلا: اسمع، يستحسن لك أن تأمرهم بالاستسلام وإلا فإنهم سيقتلون جميعا، نحن لا نريد قتلهم بل نريدك أنت فقط. حدّق فيّ هاديس متعجبا ثمّ قال بسخرية: ماذا؟ هل تريد أن تقتلني كما قتلت عمك؟ فقلت له بصوت حازم يحمل كلّ معاني الثقة في النفس: كلا، بل أريد أن نتصارع معا، فقال بروميثيوس مقاطعا إياي: بل اتركه لي، فأنا أريد أن أقتله بيدي! لكنني رفضت عرضه وقلت له بنبرة توحي بأنني قطعت في الأمر ولا أريد أية معارضة: بل أنا الذي سأقتله وأكفيكم شرّه. عندئذ بدأ هاديس يضحك، ثمّ تساءل بازدراء: وإذا تغلبت عليك وتمكّنت من قتلك، فمن يضمن لنا بأنكم ستدعوننا نذهب سالمين؟ فقلت له وأنا أنظر إلى بروميثيوس: أنا أضمن لك ذلك، ثمّ نظرت إلى جنودي وقلت لهم بصوت جدّي يحمل أمرا لا نقاش فيه: إذا قُتلت فاتركوهم في حالهم واخلوا سبيلهم أتسمعون؟ لقد لاحظت استياء بروميثيوس من تصرفي هذا، حيث لم نتفق من قبل على هذه المسألة فكل ما في الأمر أننا نقتل هاديس، لكنه لا يستطيع أن يرفض أوامري. قال هاديس لجنوده بصوته الجهور: ارموا أسلحتكم أرضا! فقام ديموفون بجمعها، ووقفت وجها لوجه أمام هاديس الذي رفع بسرعة سيفه وأراد أن يفتك بي لكنني كنت أسرع منه حيث قفزت إلى اليسار وارتطم سيفه على الثلج، لكنه تمكّن من سله بسرعة منتظرا ضربتي، كنت أتحرك يمنة ويسرى بخفة وأنا أنتظر الفرصة السانحة التي أوجه فيها ضربتي، حاول مجددا أن يصيبني إلاّ أنّ ضربته اصطدمت من جديد بالثلج، رفع سيفه بسرعة وكرّر ضربته في اتجاهي إلا أنها اصطدمت هذه المرة بسيفي، فكادت أن توقعني أرضا لكنني تمكّنت من استعادة توازني، فحاول مرة أخرى أن يصيبني إلا أنني ابتعدت قليلاً إلى الوراء فذهبت ضربته في الهواء، عندئذ انحنيت ووجهت له ضربة كدت أخرق بها فخذه لكنه استطاع أن يصدها بسيفه ورفعه إلى السماء ثمّ أسقطه بقوة وكاد أن يقطع رقبتي لولا تدحرجي على الثلج حيث وقفت من جديد. كان جنودي متسمّرين في أماكنهم وعلامات الخوف بادية على

وجوههم، بينما كان جنود هاديس أكثر ثقة في قائدهم وكأنهم يعلمون بأنّ النصر سيكون حليفه، حاول هاديس من جديد أن يخرق صدري بسيفه إلا أنني استدرت بسرعة حيث لم يتمكّن سيفه إلا من تمزيق معطفي الجلدي وتقطيع جزء من جلدي فأحسست بالدم الفاتر يبلل جسدي لكنني لم أعره اهتماما إذ واصلت تركيزي على حركاته وضرباته. قام بتوجيه ضربة أخرى قوية تمكّنت من صدها بسيفي إلا أنها أسقطتني أرضا وأسقطت سيفي جانبا فقفز نحوي هاديس محاولا شق صدري بسيفه لكنني تمكّنت من تجنب الضربة، وفي اللحظة نفسها قمت وبسرعة فائقة بإخراج الخنجر الموجود في معطفي حيث غرزته بكل ما تبقى من قواي في جسده، أحسست بالخنجر وهو يخترق معاطفه الواحد تلو الآخر إلى أن انغرز في قلبه، ولم يتبق سوى يد الخنجر الذي ظللت ماسكا به. لم يكن ينتظر مني تلك الضربة إذ كان يظنّ أنني لا أملك سوى ذلك السيف الذي رآه يتهاوى بعيدا، فشاهدت الدم يسيل على صدره، ثمّ خرّ صريعا على جسدي حيث لطّخ معطفي الأبيض. لم ينبس بكلمة، كانت عيناه مفتوحتين وكأنهما تعبّران عن شدة الدهشة التي تملّكته.

أبعدته عنّي ثمّ أمسكت مكان إصابتي بيدي التي أصبحت هي الأخرى مخضبة بالدماء ثمّ نظرت إلى جنود هاديس الذين لم يصدقوا بعد ما شاهدوه، فقلت لهم بصوت عال من غير خشونة ولا افتخار، بل بلهجة الواعظ: اسمعوا جيدا، إننا لا نريد أن نتصارع في زمن أرى فيه وجود ضروريات أهم، إنّ المسألة الآن هي مسألة حياة أو موت، إنّ الصراع الذي نعيشه يوميا مع الطبيعة يجب أن يجعلنا نتوحد لا أن نفترق، فوحدتنا هي التي ستمكّننا من العيش والتمكّن من هذه الظروف القاسية، إننا سنعيد عرضنا عليكم، فإن أردتم العودة فمرحبا بكم، نحن بحاجة إليكم، وإن اخترتم الاستمرار في العيش بمغارتكم فلكم ذلك، لكن لا تهاجموا أفراد قبيلتنا، ونحن لن نهاجمكم وهذا وعد منّا، لكن إذا قمتم بذلك، فلتتحملوا نتائج أفعالكم، ثمّ واصلت حديثي قائلا: عودوا من حيث أتيتم، أو واصلوا طريقكم فأنتم

أحرار، بعدها استدرت مخاطبا جنودي: أعيدوا لهم أسلحتهم وأدواتهم، فهم بحاجة إليها ثمّ سكتت.

قام جنودي بتنفيذ ما أمرتهم به ثم تقدم إلي كل من بروميثيوس وأسكليبيوس حيث نظرا إلى إصابتي، ثمّ قال أسكليبيوس وهو يبتسم: إنها إصابة بسيطة لكن يجب أن تعود إلى القرية حتى نضع الدهون عليها إن أردت الشفاء بسرعة.

نظرت جيدا إلى جنود القبيلة الأخرى وهم يحفرون قبرا في الثلج ليضعوا فيه هاديس، كنت أودّ أن أرى أفروديت لكنني لم أتعرف عليها، فكلهم يتشابهون تحت معاطفهم وقبعاتهم الجلدية، ترى ما رأي أفروديت فيما فعلت؟ ربما ستكون سعيدة الآن لأن هاديس لم يتمكّن مني، فهي ربما تريد أن تنتقم لوالدها بيديها مثلما فعلت أنا بالنسبة لوالدي . لم نبق هناك طويلا إذ تركناهم قبل إنهائهم عملية الحفر حيث اتبعنا الطريق الموجود بين الجبال عائدين بسرعة إلى القرية، كنت متكئا طوال الطريق على كتف بروميثيوس الذي همس إلى أذني مؤنبا ومبتسما في الوقت نفسه: ما كان لك أن تخاطر بحياتك، فنحن بحاجة إليك!. لمّا اتضحت معالم قريتنا شاهدنا النساء وباقي أفراد القبيلة ينتظروننا بفارغ الصبر، كنت سعيدا جدا، ليس لكوني قد قتلت هاديس وإنما لأن جنودي كلهم عادوا من المعركة سالمين، لذلك لم أعر أيّ اهتمام لإصابتي، حيث أنني لمّا اقتربت من القرية همست لبروميثيوس قائلا: الآن أستطيع أن أمشي لوحدي. استجمعت كلّ قواي وتوسطت جنودي داخلين إلى القرية كالأبطال ونحن نضحك، كانت معالم وجوهنا لوحدها تحمل النبأ السار حيث انطلقت الصرخات المعبّرة عن الفرح، وكان الجميع يضحك والكل يربّت على أكتافنا تعبيرا عن السعادة التي تملّكتهم بعودتنا سالمين، ثمّ لاحظت بعضا من جنودي وهم يقصّون أحداث المعركة التي جرت بيني وبين هاديس، أما أنا فقد دخلت بيتي مع أسكليبيوس الذي قام بوضع الدهون على جرحي وتغطيته بالأقمشة الصوفية. جاءني هايمون قائلا: إنّ العديد من نساء القرية -

وعلى غير العادة – يردن أن تكون رفيقهن، إنهن ينتظرن أمام الباب، أكثر من عشرين شابة جميلة يمنحن أنفسهن لك ويردن أن تختار من التي أو اللواتي سيقيضن الليلة معك، فقلت له والارتباك باد على صوتي: اذهب وقل لهن .. ثمّ استطردت وقلت له سأتحدث معهن بنفسي، وخرجت من بيتي لأجد حشدا كبيرا من النساء ينظرن إليّ ويضحكن، أصبح وجهي محمرا وبدأت جميع أطرافي بالارتباك، لكنني تمالكت أعصابي وقلت لهن بصوت إنسان واثق من نفسه: أشكركن جميعا على ثقتكن فيّ، لكن كما تعلمون، فإنني الآن متعب من المعركة التي قمت بها مع جنودي لذلك فإنني أستسمحكن لأعود وأرتاح في البيت، فتقدمت فتاة كانت جميلة جدا إنها على ما أظنّ هستيا ...نعم هي هستيا فيا لها من فتاة رائعة وجريئة، حيث قالت ضاحكة: إنك لن تنعم بالراحة إلا بين أحضاننا، فتشجع واختر منّا من تشاء، فنحن نطلبك جميعا، ووافقتها الفتيات الأخريات حيث كن يبتسمن ويضحكن، لكنني تمسّكت برأيي، فتقدمت مني هستيا ووضعت قبلة على ثغري كدت أفقد إثرها توازني، حيث لم أتذكر كيف تمكّنت من العودة إلى الفراش الذي كنت مستلقيا عليه.

بعد مدة قصيرة من تلك الحادثة دخل عليّ بروميثيوس، فقلت له: لقد لقّناهم درسا لن ينسوه، لكن يجب أن نأخذ حيطتنا إذ يجب تشديد الحراسة من بداية النهار لآخره، فمن الممكن أن يحاولوا مباغتتنا فما يزال بينهم تاناتوس! فأجابني مبتسما: لقد جئت لأعرض عليك الرأي نفسه، سأضاعف الحراس ابتداء من هذا اليوم.

مضى على تلك الحادثة أكثر من شهرين ولم نلاحظ أيّ تحرك من طرفهم، ووصلتنا أنباء عن تولي أفروديت قيادة الجنود، فقلت لبروميثيوس متصنعا اللامبالاة: هل كانت أفروديت هناك يوم المعركة؟ فقال مبتسما: نعم، ألم تتعرف عليها؟ فقلت بحرج: كلا فقد كنت منشغلا بهاديس كما تعلم! ابتسم وخرج من البيت، فكرت في نفسي وقلت: إنه ذكي، حتمًا يعلم مدى اهتمامي بها لكنه لم يرد أن يظهر ذلك خشية إحراجي، ثمّ قلت متنهدا: إذن أفروديت

تمكّنت من قيادة قبيلتها، يا للصدف الغريبة! حتمًا وصولها إلى هذه المرتبة لم تكن لأسباب عائلية، بل لكونها تحمل ميزات الحكيم، فهي لا تفقد أعصابها أثناء الشدة، وفوق ذلك تمتاز بالشجاعة والقوة، إذ هي المرأة الوحيدة في القبيلتين التي تخرج مع الرجال للبحث عن المؤونة، ومثلما أعرفها في صباي، فقد تدرّبنا مع بعض على فنون القتال، وكان بروميثيوس مدربنا، ثمّ واصلت معه بعد افتراقنا، وربما واصل هاديس أو تاناتوس معها، لذلك فهي حتمًا قوية، كم رغبت في رؤية وجهها! ترى هل تغيّر؟ أنا متأكد من أنها جميلة جدا، أنا مغرم بها على الرغم من أنها إذا لاقتني وحيدا فلن تتوانى عن قتلي، المهم أنها لن تعتدي علينا وهذا ما كنت أتمناه، فأنا لم أرد أبدًا مواجهتها. ترى هل تفكر فيّ مثل ما أفكر فيها أنا؟ من الممكن أنها تعدّ الخطة لمهاجمتنا وأنا مازلت في تفكيري الصبياني، يجب أن أنسى كلّ هذه الصور التي تلاحقني، يجب أن أنسى أفروديت، أنسى جمالها، أنسى صوتها، أنسى الضحكات التي كنّا نتبادلها، أنسى القبلة التي وضعتها على خدي عندما كنّا أطفالا، إنها الآن تشكل خطرا على قبيلتي، وبحكم كوني الحكيم، فيجب أن أتموضع في الموقع الذي يقتضيه منصبي، إنّ مصير أكثر من ستين شخصا بين يديّ، ومصير أكثر من ثلاثين شخصا بين يديها، سيكون الصراع بيننا حول من سيحافظ على حياة وسعادة أفراد قبيلته، يجب أن أحقّق لهم الأمان وعدم الخوف من المستقبل، يجب أن يعيشوا مختلف لحظات أيامهم في سعادة، وواصلت تفكيري قائلا: إنني أخاطبك يا أفروديت، فأنا أعلم أنّ الحظ يميل إلى جهتي بحكم وجود المؤونة في حدود القرية، بينما عليك أن تبتعدي عن مغارتك للوصول إليها، أنا أعلم أنّ هدفك يماثل هدفي لكن يجب ألا يكون أحدنا عائقا على الآخر، فأنا أرفض أن تقتربي من حدود قريتنا لتبحثي عن المؤونة مثلما أرفضه لأفراد قبيلتي وذلك عملاً بوصية أبي، أنت تعلمين أنه من بين عناصر الصراع بين والدي ووالدك هي هذه المؤونة السهلة والقريبة، فلا يجب أن تكون بدورها محور الصراع بيننا، يجب أن نفكر في المستقبل، كما يجب أن نستمتع بوجودنا على الأرض،

أنا أعرف أنّ شخصا مثلي أو مثلك لن يستمتع أبدًا بحياته، فنحن مجبرون على العمل للغير، إننا لا نهنأ إلا عندما يسعد الآخرون .

لقد أعادتني هذه المذكرات إليك يا حبيبتي، ترى كيف أنت الآن؟ لقد مضى وقت طويل لم أفكر فيك فمعذرة، أنا لا أعرف إن كنتِ بدوركِ تفكرين فيّ أم لا؟ نحن آخر جيل على هذه الأرض لذلك يجب ألا نضيّع أدنى فرصة للعيش فيها في أمان، أنا أعلم أنّ المستقبل لن يكون سهلا بالنسبة لنا جميعا، لذلك من الأحسن أن نستغل الفرص الآن ونقيم الصلح، أفروديت هل تسمعينني؟ هل مازلت تحبينني؟ هل تكرهينني؟ إنه لمن الصعب عليّ أن أبقى من دون إجابة، آه لو أتمكّن من معرفة رأيها فيّ، كم أودّ أن أناقش معها مختلف الأمور التي تتعلق بحياتنا، إنك ذكية، وأنا أعرفك جيدا، تبًّا لهذه الظروف التي فرّقت بيننا، تبًّا لهذه الطبيعة التي لم تجد الوقت لتسلط غضبها على ما اقترفته البشرية في حقها إلا في جيلنا هذا، إنني أخاطبك أيتها الطبيعة: هل آذيناك يوما؟ هل قمنا بشيء لتحطيمك؟ لماذا تريدين القضاء علينا؟ ما أسباب عدم ثأرك من الأفراد الذين عاثوا فيك فسادا؟ لماذا أنت غاضبة علينا؟ ما ذنبنا نحن؟ هل علينا أن نتحمل أخطاء أجدادنا؟ وإلى متى؟ إننا إذا متنا فستكون النهاية! لقد تعذّبنا كثيرًا، فهل ترأفي بنا الآن أم لا؟

***

بعد تلك الحادثة لم تواجه أيّ القبيلتين خصمها، كنّا نلتقي أحيانا بأفراد من القبيلة الأخرى في بعض الأماكن التي نبحث فيها عن المؤونة أو الحطب، إلا أننا نغيّر المكان بسرعة لتفادى الاصطدام بهم، أو العكس، هم الذين يقومون بتغيير المكان، أظنّ أنّ الأمور هي أفضل على هذا النحو. لقد أصبحت درجات الحرارة أقل بكثير ممّا كانت عليه في السنوات السابقة لدرجة أنّ العديد من الرجال والنساء لم يستطيعوا الصمود وفارقوا الحياة، حيث لم تنفع كلّ محاولاتنا لإبقائهم على قيد الحياة، لقد نقص عددنا من ستين شخصا ليصل إلى خمسة وعشرين شخصا فقط!، لذلك رأيت أنه من الأفضل أن نترك بيوتنا وأن نسكن معا في هذه المغارة، فهي تتسع لنا الآن. لقد كانت أيامنا تمرّ وكأنها كوابيس لا تنتهي، كان الحزن قد خيّم على الجميع بحكم أن كل واحد منا قد فقد شخصا أو أشخاصا عزيزين عليه، إلى أن جاء اليوم الذي جمعتهم في القاعة الكبيرة وخاطبتهم قائلا: استمعوا إليّ جيدا، أنتم تعرفون أنه عندما يموت أحد منّا فإن حياته ستنتهي، وتعرفون أيضاً أننا سنلقى المصير نفسه عاجلا أم آجلا، لذلك، وبما أنّ هذه الطبيعة لن تتوقف إلا بقضائها علينا جميعا، فإنني أرى أنّ أحسن وسيلة لإثبات وجودنا لها هي الاستمتاع بكل الفترات التي نحياها، لذلك أدعوكم جميعا لأخذ هذا المسار، يجب أن نكون سعداء في حياتنا، وإذا متنا فعلى الأقل نكون قد تمتعنا بلحظات وجودنا، وفي هذه الظروف القاسية أصبح المستقبل واضح المعالم، لذلك يجب أن نعتبر كلّ يوم جديد يمرّ علينا دون أن يمسنا فيه أدنى أذى بمثابة يوم فرح، يجب أن نسعد به لأننا تمكّننا من الصمود أمام قساوة الطبيعة، ثمّ واصلت حديثي وعلامات الجدّ ماثلة في نبراتي قائلا: أرى أنّ البعض منّا لا يملك رفيقا أو رفيقة وأنا أولهم، لذلك فإنني أطلب من الفتيات، بل أترجاهن اختيار رفقاء لهن إن كن يرغبن في ذلك. سكتت برهة، كان الجميع يصغي إليّ باهتمام بالغ، ثمّ عاودت الحديث مخاطبا إياهن حيث قلت بابتسام: إننا ننتظر رأيكن؟ فابتدرت هستيا ضاحكة: أنا أودّ أن تكون أنت رفيقي فما رأيك؟ فقلت لها من دون أدنى

تفكير: إنه لمن دواعي السعادة أن أعيش مع فتاة جميلة مثلك يا هستيا لذلك فإنني موافق على طلبك. إنها فتاة بمثل طولي، نحيلة نوعا ما إلا أنّ ذلك لم يؤثر على جمالها بل زادها رشاقة، ذات عينين كبيرتين واسعتين وبشرة بيضاء ناعمة ويوجد على خدها الأيمن شامة صغيرة سوداء سحرتني بها، وفم صغير لا تفارقه الابتسامة، إذ لم يسبق لي أبدًا أن رأيتها غاضبة، كنت أترك لها الحرية الكاملة في تدبير الأمور الداخلية للمغارة، فهي لا تمل أبدًا من العمل، وإذا لم يكن دورها قد حان للقيام بعمل ما، فهي لا تتوانى في تقديم المساعدة للنساء الأخريات لأدائه على أحسن وجه، تتقن إلى حد بعيد كلّ الأشغال التي تقوم بها النساء، وكانت بطبعها تميل إلى الحديث بهدوء، وتعرف كيف تتعامل مع الأخريات، كثيرًا ما تحدث بعض النزاعات بينهن فتكون هستيا هي الحكم، حيث يستمعن إلى نصائحها، سواء ما يتعلق بشؤون المغارة، أو تلك التي ترتبط بالأمور الشخصية، وفوق ذلك فهي مرحة وبشوشة لذلك كانت النساء الأخريات يستشرنها في كلّ شيء. لقد طلبتني أكثر من مرة في السابق لكي أكون رفيقا لها لكنني كنت أعتذر برفق، مرجعا دوافع رفضي إلى الأشغال الكثيرة التي ترتبط بمنصبي لكنها كانت تقول لي دائمًا: سوف أنتظرك ولن أيأس أبدًا وستكون لي يوما! وفعلا فقد وصلت إلى مبتغاها، لذلك تقدمتُ إليها حيث عانقتها ووضعت قبلة حارة على شفتيها، ثمّ ما لبثت داناي وأن نهضت قائلة: وأنا أيضاً أودّ أن تكون رفيقا لي هل أنا أيضاً جميلة في نظرك؟ فقلت باستغراب: تقصدينني أنا!؟ فقالت وهي تضحك: طبعا! فما رأيك؟ فقلت لها: أنا أجدك جميلة جدا مثلها لكن الرأي هو رأيها وهي عادة قبيلتنا، ونظرت في الوقت نفسه إلى هستيا التي كانت تضحك حيث قالت وهي تهز رأسها: أنا لا أمانع، فقلت مخاطبا داناي من جديد: على الرحب والسعد ثمّ نهضت سيليني وقالت بصوت حازم: أنا أيضاً أودّ أن أكون رفيقتك إذا وافقتم طبعا؟ فقلت لها وأنا مندهش: أنا موافق فما رأيكما؟ فقالت هستيا: إننا سنكون سعداء بوجودها بيننا، ثمّ قامت بعدها هيلينا وقالت: أما أنا فأريد أن يكون مينيلاوس رفيقي، فنظرت إلى مينيلاوس الذي قال لها مبتسما: وهل أجد أجمل من

هيلينا؟ وقامت أمفتريت قائلة: أنا معجبة ببوسيدون، فهل سترضى أن أكون رفيقتك؟ قام بوسيدون وعانقها قائلا: لقد أعجبت بك منذ مدة طويلة، لكن لم تسنح لي الفرصة للبوح بحبي لك بسبب الظروف التي نعيشها، فشكرا لاختيارك لي، فقالت أمفتريت: بل أنا التي أشكرك لقبولك لي، ثمّ قبّلته تحت أهازيج الآخرين. قلت لهم: هل من مزيد؟ بإمكانكم المكوث هكذا إن كان هذا خياركم، فأنتم تعرفون هدفي: كلّ من يجد السعادة في شيء من دون أن يؤذي الآخرين فله أن يحققه دون استشارة أيّ شخص، ثمّ وقفت سيليني وقالت: إنني أريد أن أقول لك شيئاً، فقلت لها مندهشا: هل غيرت رأيك؟ فقالت مبتسمة: كلا ولكن كلا من ستيروب وإيوس تودان أن تكونا هما أيضا رفيقتين لك، فما رأيك؟ فقلت متعجبا: أمعقول هذا؟ فبعدما كنت وحيدا أجد نفسي مع خمس حسناوات جميلات؟ فقاطعتني أرتيميس بصوتها الجميل قائلة: بل ستة إن كنت قابلا لأن أصبح رفيقتك، فأنا أيضاً معجبة بك، فما رأيك؟ فقلت وقد أصبح وجهي مصفرا بعد أن كان محمرا من الخجل: بل ما رأيهن؟ فقلن وهن يضحكن ويتبادلن الغمزات: إنّ رأينا مع رأيك، فهتفت قائلا: ليكن ذلك، فأنا معجب بكن جميعا ثمّ اتجهت إليهن وأخذت أقبلهن الواحدة تلو الأخرى حيث أمسكت ستيروب من يديها، ثمّ رفعت رأسها قليلاً إذ كان خجولة جدا، فنظرت أخيرًا إليّ، والتقت عيني بعينيها السوداوين الواسعتين، فجلست بجانبها على الأرض حيث لامست رجلها، ثمّ لامست بيدي شعرها الأسود والأملس الذي انسل بين يدي في نعومة، وباليد الأخرى لامست خدها الذي ازداد حمرة، ومرّرت يدي إلى غاية رقبتها، ثمّ وضعت قبلة على فمها حيث همست في أذنها قائلا: أنت رائعة! وقمت بالشيء نفسه مع إيوس وأرتيميس .

لم يبق إذن سوى أورفيوس وفينوس ورودوب، فبدأنا ننظر إليهم وكأننا نحثهم على الارتباط مع بعض، كنت أتوقع من فينوس أن ترتبط بأورفيوس لكنها لم تتحدث بل رودوب هي التي تكلمت وخالفت كلّ توقعاتنا فهذه الفتاة الخجولة تمكّنت من التغلب على نفسها حيث قالت بصوت خفيض وبنبرة توحي بمدى ارتباكها وخجلها: أورفيوس، هل ترضى أن تكون رفيقا لي؟ فأجابها

أورفيوس مندهشا وكأنه يصطنع مظهر الجدية في كلامه حتى لا يزيد الأمر صعوبة على رودوب: بل أنا الذي سأكون سعيدا بوجودي معك. التزمنا صمتا مهيبا وكأننا لم نتوقع ما سمعناه، لكننا أدركنا الموقف الحرج الذي شعرت به رودوب، فانفجرنا ضحكا حيث أخذنا نصفق ونصرخ. أخيرًا تمكّننا بعد سنوات من الحزن أن نقضي على السواد الذي كنّا نعيش فيه، لقد أصبح الجميع يملك رفيقة أو أكثر، ولم تبق سوى فينوس، حيث سألتها باسما: وأنت ألم يعجبك أيّ شخص هنا؟ فقالت: بلى أنا معجبة بشخص لكن لم يحن الأوان بعد لمصارحته، لقد كان على ما أظنّ بروميثيوس، حيث أنه وبعد موت رفيقته بشهر تقريبا تقدمت إليه وطلبت منه أن يكون رفيقا لها. كان في الأول محرجا، كيف يمكن لأكبرنا سنا أن يرتبط بأصغر فتاة في القبيلة! فتحدثت معه قائلة حسب رواية سيليني بأنها معجبة به منذ مدة طويلة ولم تطلبه لأنها كانت تخاف من أن يرفض طلبها أما الآن فيجب عليه ألا يخيبها، وجاءني مستشيرا، فحثثته على الموافقة، فما كان لهما إلا أن أصبحا مع بعض.

والآن مرّ على تلك السهرة أكثر من ثماني سنوات، حيث مات البعض ولم يبق منّا سوى تسعة عشر شخصا: رفيقاتي الستة، ثمّ بروميثيوس وفينوس، أورفيوس ورودوب، هايمون وأنتيجوني، ديموفون وفيليس، بوسيدون وأمفتريت، ومينيلاوس وهيلينا، هذه هي قبيلتي، إننا سعداء بوجودنا مع بعض، وكلما استرجعنا ذكرياتنا في القرية، تغمرنا السعادة، لم ننس أصدقاءنا الذين فارقونا، وقبل أربع سنوات تم عثورنا على الصندوق. أنا فخور بكل ما قمنا به منذ تلك الفترة إلى غاية اليوم، لأننا لم نفقد فيها أيّ شخص، لقد حقّقنا كلّ ذلك بفضل وحدتنا وتعاوننا، إنه مكسب رائع بالنسبة لي، أتمنى فقط أن تدوم سعادتنا، على الرغم من التدهور المستمر للطقس، لقد بدأنا البحث عن المؤونة والحطب في حدود القرية لأننا لا نستطيع الابتعاد كثيرًا عن المغارة، لكوننا من جهة لا نريد الوصول إلى المواقع التي تبحث فيها أفروديت وقبيلتها عن المؤونة، ومن جهة أخرى لا نملك متسعا من الوقت للذهاب بعيدا، فدرجات الحرارة تهبط بسرعة والأيام أصبحت قصيرة جدا .

***

أعتبر تعلّمي للغة من أهم الأشياء التي قمت بها في حياتي، حيث مكّنتني من الاطلاع على حياة الشعوب في العصور الغابرة وبالتالي مقارنتها مع الأوضاع ونمط الحياة الذي نعيشه حاليا، كنت أجد لذة كبيرة عندما أطالع كتب التاريخ التي وجدتها في الصندوق، إنه لأمر رائع أن يتمكّن الفرد من معرفة الأشياء التي اهتم بها أجدادنا واكتشاف نمط تفكيرهم، وجوهر الصراعات التي كانت سائدة آنذاك. كان من الممكن أن نأخذ العبر منها لولا أننا آخر جيل على هذه الأرض ولا يتجاوز عددنا الخمسين فردا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار القبيلة الأخرى. كنت في الأول أظنّ أن أجدادنا، وبسبب وفرة الغذاء، كانوا يعيشون في سعادة وهناء إلا أنني اكتشفت العكس، فغريب جدا أمرهم، كم تعجبت من كثرة الصراعات السائدة بينهم! لقد مكّنني صديقي من الاطلاع على حقبات خاصة مرّ بها الإنسان، وبدأت أعي نوعاً ما الحكايات التي كان يرويها لي أبي وخالتي وبروميثيوس عن أجدادنا والتي سمعوها بدورهم عن أجدادهم، كنّا نعتبرها أساطير من وحي الخيال ولا علاقة لها بالواقع، لكنها للأسف حقيقية ومرّة، بل هي أكثر مرارة ممّا كنّا نعتقده، فالإنسان كان يعيش في وفرة، إلا أنّ الحروب كانت لا تنطفئ في جهة إلا وتشتعل في جهة أخرى، هل وُجد الإنسان ليقتل أخاه الإنسان؟ هل من غرائزنا القضاء على الغير؟ إنّ قتلي لكل من عمي وهاديس لم يكن طمعا في شيء ما، بل حدث بسبب تعديهما على الغير. لا يعني كلامي هذا أنني أحاول إيجاد الأعذار لما قمت به، فالإنسان عندما يولد على هذه الأرض يجب أن يُسمح له بالعيش وفق هواه إلى أن يموت موتا طبيعيا، لكن هذه الحياة يجب أن تكون في الأطر التي لا تكون على حساب الآخرين، أنا أرفض كلّ القوانين التي تحدّد مسار الإنسان، فنحن لسنا بهائم، بل نملك عقولا نفكر بها، أنا أتفهم نوعاً ما الوضع على الرغم من أنه مختلف مع ما نعيشه حاليا، فصراعي مع عمي ومع هاديس كان من أجل البقاء، فكلاهما يريدان أن يقضيا علينا ليبقيا على هذه الأرض، فنحن بفعل استهلاكنا للمؤونة سيأتي اليوم الذي سنتقاتل فيه مع بعض لأكل اللقمة الأخيرة، لكن

أن يتعارك الإنسان مع غيره لأسباب أراها تافهة فهذا ما لم أستطع استيعابه. تحدثت في هذا الأمر مع فينوس الذكية، فقالت لي: كلّ فرد يريد أن يكون أحسن من غيره، ولكي يصل إلى مبتغاه ويبرهن أنه الأحسن يجب أن يجعل الجميع تحت قدميه، ولذلك فإنّ الإنسان يبحث عن جميع الأمور التي تجعله متميزا، حتى وإن كان وصوله إليها على حساب الآخرين، فالمهم أنه يحس بالعظمة، إنه لمن التفاهة أن يبرّر المرء أفعاله مدعيا بأنه يقوم بكل ذلك من أجل أبنائه أو عشيرته، فما يهمّه في الحقيقة هو نفسه لا أكثر ولا أقل. فقلت لها: ولكن حياته قصيرة على هذه الأرض، فلماذا لا يحاول أن يحياها في فرح وسعادة بدل القلق والرعب؟ فكّرَت قليلاً ثمّ قالت: من يضمن له أن يكون الغد سعيدا؟ تلك هي المشكلة! فالإنسان لا يستطيع أن يعرف إن كان المستقبل له أو عليه، لذلك يحاول بقدر الإمكان شراء تلك السعادة، أي استمالة كلّ الحظوظ إلى جانبه، فالعدوّ الحقيقي للإنسان ليس الطبيعة، بل الإنسان نفسه، إنه يفضل العيش في دوامة الخوف من الآخر. فقلت مندهشا من وجهة نظرها: معك الحق، لو كان الإنسان يدرك معنى قصر المدة التي يقضيها على هذه الأرض بمقابل الأوقات التي يضيعها في الحروب لكان سيقتنع بأقل شيء ممكن، حيث سيرضى بما يمكن أن يبقيه حيًّا فقط، فالصحة هي أعز ما في الوجود.

لقد عاد هذا الحوار إلى ذهني الآن، فالإنسان لا يعرف كيف يتمتع بالسعادة على هذه الأرض، كان من الأجدر للأجيال السابقة أن تعلّم أولادها كيف يتحصّلون على السعادة من دون إيذاء الآخرين، إنّ جوهر الإشكال حسب ما اطلعت عليه في الكتب يتمثل في هذه الأشياء: السلطة، العرق، اللغة، الدين، والأرض، إنها أمور غريبة حقا! أنا حكيم قبيلتي، لم أفكر يوما في أن أصبح قائدا لهم ولم أبحث عن هذا المنصب على الإطلاق، بل فرض عليّ فرضا، ولو كنت أستطيع لتخليت عنه، فهو عبء كبير، إذ لم أفكر أبدًا في تحقيق السعادة لنفسي طوال السنين الأولى التي مرت، حيث كان همي الوحيد هو إسعاد الآخرين عن طريق توفير جملة العوامل التي تسمح لهم بالعيش في

هناء، بينما استنتجت أنّ الإنسان في القديم كان يبحث عن هذه السلطة، ليس بهدف إسعاد رعيته بل بهدف إسعاد ذاته لا أكثر، حيث يحيط نفسه بجملة من الأشخاص الانتهازيين حتى يضمن استمرار وجوده في الحكم، لكنه على الرغم من ذلك، فإنه يعيش دائما في حيطة وخوف من أن يقوم هؤلاء الانتهازيون بتنحيته، ملبيا لهم كل مطالبهم عساهم لا ينقلبون عليه، بينما يفرغ كل ذلك الخوف والكبت على رعيته حيث يذيقهم أشد أنواع العذاب والمذلة وكأنهم هم سبب حياته البائسة المملوءة بالقلق والخوف، كان من الممكن أن يتفادى كلّ ذلك لو كان يعرف مفهوم السعادة والطريقة التي سيتحصل عليها. فالسعادة تتحقق عندما ينام الإنسان من دون هموم ويستيقظ من دون حسرة. يجسّد عمي وهاديس تلك العينة التي تبحث عن إثبات ذاتها وإثبات وجودها بالقوة، أنا أرى أنه إذا رغب الإنسان في إثبات ذاته فما عليه إلا أن يقوم بشيء يجعل الناس يذكرونه بالخير، شيء يحقق لنفسه ولغيره السعادة، أنا متأكد من أنّ أغلبية الناس يريدون قديما ترك بصماتهم على الأرض، كلّ وطريقته، لكن أن يتركوا بصماتهم على حساب غيرهم فهذا أمر رهيب، لو كنت من كتاب التاريخ لما ذكرت أبدًا ما فعله نيرون بروما، أو نابليون بأنف أبي الهول، أو ما فعله العديد من رؤساء وملوك الدول في شعوبهم، لكنت قد محيت أسمائهم من الوجود، فيقال: في تلك الحقبة حكم إنسان متجبّر لم يحقق السعادة لا لنفسه ولا لغيره! إننا ساعدناهم في أعمالهم تلك، إنهم يبحثون عن الشهرة والخلود ونحن منحناها لهم! لقد تمكّنوا من تحقيق ذلك! لكنني وبصفتي أنتمي إلى آخر جيل على الأرض وبصفتي مع فينوس الشخصين الوحيدين اللذين اطلعا على أعمال جملة من القادة المتهورين، فإنني أقول لكل من عاث في هذه الأرض فسادا وإلى كلّ من حقّق سعادته على حساب غيره وإلى كلّ من حرم الآخرين من السعادة، أقول لهم جميعا تبًّا لكم، لقد سجّل التاريخ وصمات العار التي ألحقتم بها أنفسكم، لكنني على الرغم من كل ذلك سآخذ قلمي وأمحي به أسماءكم وأعمالكم من كلّ تلك الكتب، سأقطع الصفحات

التي وردت فيها أسماؤكم، وبهذا الشكل أجعل وجودكم على هذه الأرض ومروركم بها مثل عدمه.

جوهر الصراع الآخر يتمثل في العرق، فعجبا لمثل هذا الأمر! إنني لا أفهمه على الإطلاق، فقبيلتي مثلا مختلطة، لم أتساءل يوما عن أصلهم أو فصلهم لأنّ ذلك غير مهم بالنسبة لي أو بالنسبة لنا جميعا، فنحن نرى أنه محتوم علينا أن نعيش على أرض واحدة إذ ليس لنا خيار في ذلك، وبالتالي يجب علينا أن نتعايش مع بعض، لكن أن أرى بأنني أحسن من غيري بالنظر إلى الدم الذي يسيل في عروقنا أو إلى لون بشرتنا، فهذا أمر فظيع مثل فظاعة الآراء السائدة في القديم بعظمة دم الملوك والأمراء! فيا للسخافة! كلنا مكونون من لحم ودم وعظام إلا أنهم يتميزون عنا! لو كان هذا التميز بسبب ذكائهم أو تفوقهم العلمي لاعتبرت ذلك أمرا منطقيا ومعقولا، لكن أن يتميزوا بدم مخالف لما يجري في عروق غيرهم، فهذا ما لم أستطع تصوره أو تقبله! ومن أجل هذا الأمر تقام الحروب ويحدث التقتيل، فيا للطامة الكبرى! كان عليهم أن يعتبروا أنفسهم في درجة الحيوانات نفسها، بل أقل منها بكثير، وهذه حقيقة، فعلى الرغم من أننا الآن لا نعيش مع الحيوانات بسبب انقراضها، إلا أنني أحسّ بأنها مثلنا إذ يجمعنا مصير واحد، أنا أتأسف عليها بسبب كلّ ما عانته من جبروت الإنسان، كما أتأسف على كلّ الذين سقطوا لأنّ دمهم لا يعتبر دما راقيا، فهمجية الإنسان ليس لها حدود.

وتأتي اللغة كمصدر آخر للنزاعات، وهو أمر محيّر أيضاً! لو تمكّن هؤلاء الأغبياء من الوجود الآن للاحظوا بأنّ مصدر حماسهم المتطاول قد اندثر باندثارهم، فأين هي تلك اللغات التي كانوا يتصارعون من أجلها؟ لم يتبق منها أيّ أثر، إلا لغة واحدة هي التي يتحدث بها أفراد قبيلتي، والتي كانت حتمًا في تلك الحقبة غير معروفة على الإطلاق لقد تمكّنت لغة شفوية صغيرة من الصمود أمام قوة وهيمنة اللغات الأخرى، فهذا أمر عجيب حقا! كان الأفراد الذين يأتون إلينا للانضمام إلى قبيلتنا كلّ بلغته لكنهم لم يصرّوا على جعل

لغتهم هي المهيمنة على اللغات الأخرى، بل على العكس كانوا يؤمنون بأنّ تحقيق التواصل هو سر وجود اللغة، ولا وجود لسبب آخر غيره، لكن أن تصل وقاحة الإنسان بأن يقتل أو يحرم إنسانا آخر من التمتع بالحياة لأنه لا يتحدث بلغته، فهو دليل آخر على وصوله إلى مرتبة أدنى من الحيوانات .

وتأتي القضية الأخرى المتمثلة في الدين، لقد سمعنا من قبل عن أسطورته، ثمّ دهشت لتعدد أشكال وجوده على هذه الأرض الصغيرة وتغيره بتغير البلدان والعصور، ثمّ دهشت أكثر لمآ علمت بكثرة الصراعات التي ولّدها والتي كانت سببا لحدوث الكثير من المجازر والحروب. لكنني لمآ اطلعت على الكتب الأربعة التي تركها لي صديقي وجدتها متشابهة، وحاملة للهدف نفسه ألا وهو كيفية تحقيق السعادة للآخرين، وهذا شيء عظيم، فعلى الرغم من عدم اعتناقنا الآن لأيّ من تلك الأديان بسبب اندثارها منذ مدة طويلة جدا، إلا أنني أرى أنه كان من الضروري للبشرية في ذلك الوقت أن تؤمن بوجود قوة عليا وأن تؤمن بكل الأمور التي تدعو إليها، فعلى الأقل توجد سلطة خفية تكبح جماح الفرد وتوقف جنونه الغريزي وذلك عن طريق الترغيب والترهيب، لقد وضعت كلّ هذه الأديان التي تتشابه في أهدافها المعالم التي تجعل الإنسان يعيش في سعادة، من دون أن يضرّ الآخرين، وهذا ما أدعو إليه دائمًا، لكنهم للأسف لم يدركوا هذه الأهداف! لقد تركوا الأهداف الحقيقية ليدخلوا في متاهات لا حصر لها، فنشأت بذلك مختلف الصراعات الدينية والطائفية، وعوض أن يكون الدين مصدر سلم وسلام وطريقة لتحقيق التلاؤم بين الإنسان وأخيه وبين الإنسان والطبيعة التي يعيش فيها أصبح مصدرا للحروب والمآسي. الكثير من الحروب الدامية وقعت لا لسبب إلا لأنّ البعض لا يؤمن بما يؤمن به غيرهم! لقد توصلوا بتقدمهم الفكري إلى جمع الآلهة في إله واحد إلا أن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة لهم بل كانوا يريدون أن يؤمن الجميع بما يؤمنون به وبالطريقة التي يريدونها، ولو وُجدنا نحن في عصرهم سيكون جزائنا حتمًا الموت لأنهم يرفضون مبدأ الحياد، بل يجعلونه أخطر بكثير من تصوراتهم! فيا لهم من مساكين! لقد كان على الإنسان أن يخلق مصدرا جديدا

ليفرض السلم على الأرض مادامت البشرية قد بدأت في الابتعاد عن الأهداف التي تقف وراء وجودها، لكنهم لم يفعلوا أو لم يصلوا إلى شيء يحقق لهم رغبتهم فعادوا بحيوانيتهم المعهودة حتى تمكّنوا من تحطيم أنفسهم وتحطيم كلّ ما يحيط بهم .

أما البعد الأخير فإنني أشاطرهم الرأي في جزء منه، إذ أنّ الأرض في الحقيقة هي ملك للجميع ونحن سكان أرض واحدة لذلك كان من الضروري عدم وضع الحواجز المختلفة التي تميّز الأشخاص عن بعضهم البعض خصوصا إذا كانت مصادر الغذاء متوفرة، أما إذا كانت الموارد ناقصة، فعندئذ يحق لهم رفض الآخرين، ويحق لكل من يكسب قطعة أرض أن يدافع عنها ليحافظ على مصدر عيشه، فكل شيء يهون إلا مصدر الرزق.

إنّ الإنسان لديه الحق في القتل لسبب واحد وواحد فقط: إذا رأى حياته مهددة، أما باقي الأمور فإنني أعتبرها صراعات زائفة لمواقف خيالية إنهم يبحثون فقط عن السبل والطرق التي يستطيعون عن طريقها تفريغ شحناتهم السلبية، فكانت لهم تلك الأشياء التافهة التي أصبحوا يتشبثون بها وكأنها هي التي تضمن لهم سعادتهم! إنّ صراعهم من أجل تلك الأشياء يُبين بأنهم لم يصلوا حتى إلى فهم واستيعاب جوهر الحكمة من صراع الحيوانات مع بعضها البعض والتي كانت متوقفة فقط على ما سموه بالصراع من أجل البقاء!.

يملك الإنسان طبع الأنانية ولا يفكر إلا في نفسه، فعمي كان لا يفكر إلا في مصلحته، وهاديس هو الآخر كان لا يفكر إلا في نفسه، لذلك فإنني لن ألوم الأجيال السابقة على ما اقترفته في حقنا، فاستغلالها للثروات الباطنية والسطحية من دون تفكير فينا قد جعل الطبيعة ميتة، الشيء المؤسف هو أنها لم تتمكّن حتى من تحقيق السعادة لنفسها ولا لغيرها، بمعنى أنها حطمت كلّ شيء من أجل التحطيم لا أكثر، والغريب أنّ الكتب التي بين يدي قد قدمت لي نظرة على أنّ الإنسان كان آنذاك واعيا بما يقترفه، فهو يعلم بأنه بصدد القضاء على الأنواع النباتية والحيوانية والمعدنية المتواجدة على سطح وباطن

الأرض، وكان واعيا بانقراضها وفنائها، إلا أنه وعلى الرغم من كلّ ذلك واصل مهمته القذرة. لقد أشرت في السابق إلى أنّ الإنسان يتلذذ بعذاب الآخرين، ليس فقط من أبناء جيله بل أيضاً من أبناء الأجيال القادمة، وكأنه يقول في نفسه مبتهجا: لن أترك لهم شيئاً، يجب أن أقضي على كلّ شيء قبل موتي، أنا أعرف أنني لن أعود إلى هذه الأرض لذلك أريد أن يتعذب الآخرون، وليكن بعد موتي الطوفان !.

عندما أنظر إلى كتب الحيوانات والنباتات التي كانت تعيش على الأرض أشعر بالأسى والحسرة، كيف لمخلوق مثل الإنسان الذي يملك عقلا يفكر به أن يتسم بتلك الوحشية؟ وكأنه حيوان غير عاقل! بل الحيوانات هي أحسن منه في محافظتها على الطبيعة، لم أجد أيّ حيوان يقضي على الطبيعة رغبة منه في القضاء عليها إلا الإنسان! لذلك فإنه كان من المفروض أن يولد دون عقل حتى تتمكّن كلّ الحيوانات من قهره، فهو لا يملك لا أسنان الأسود ولا مخالب النسور ولا أرجل النمور ولا جلود التماسيح ولا أجنحة الطيور ولا زعانف الأسماك! إنه مخلوق ضعيف، وعلى الرغم من كلّ ذلك فقد استطاع أن يقضي على الطبيعة وأن يقضي على مختلف الحيوانات والنباتات، وأن يقضي حتى على نفسه، أنا أتعجب من الحكايات التي كانت تسرد علينا والتي لا يوجد لها ذكر في هذه الكتب، أظنّ أنها قد وقعت بعد جيل صديقي، عندما أسمعها أتعجب من كيفية تمكّننا من البقاء على هذه الأرض إلى غاية هذه اللحظات، فمصير البشرية بأعمال الإنسان كان من المفروض أن ينتهي قبل جيلنا بزمن طويل! .

من بين العلل التي دفعت الإنسان إلى تحطيم الطبيعة: توفير الظروف الملائمة له لكي يعيش على هذه الأرض، فهل تحطيم الطبيعة هي التي توفر له تلك الظروف؟ وحتى وإن سلمنا بذلك، فهل توفير الظروف الملائمة ستسمح للإنسان بأن يشعر بالسعادة؟ كلا، إنّ السعادة لا يمكن لها أن تتحقق بتلك الطريقة، فأنا أتصور السعادة الحقيقية عندما يجلس الإنسان وسط الطبيعة

وكله أمان يشم النسمات العذبة ويسمع زقزقة العصافير وخرير المياه، أو أن يجلس على شاطئ البحر مع رفيقته العزيزة يتأملان أمواج البحر وهي تتلاطم وتتراقص أمامهما، لقد سماها البعض في القديم بالرومانسية، بينما أسميها أنا بانسجام الإنسان مع الطبيعة، إذ في تلك اللحظات يجد الإنسان نفسه في المكان الملائم الذي يجب أن يكون فيه، إنني حرمت من كلّ هذه الأمور، فلا أستطيع رؤية الغابات ولا رؤية مياه البحر، إنني لا أستطيع سوى رؤية الجبال والجليد والثلوج التي تغطي كلّ شيء تحت برد قارس، لكنني وعلى الرغم من هذه الظروف القاسية المحيطة بي، فأنا تمكّنت من تحقيق السعادة، لاستثماري كلّ اللحظات التي أعيشها في محاولة دائمة للتلاؤم مع الوسط الذي أحيا فيه لذلك أحاول دائمًا أن أجد المكان الذي أرتاح فيه، لا أقصد به الناحية الجغرافية بل الفضاء الفكري الذي يسمح لعقلي أن يقدم لمختلف حواسي البعد اللامتناهي المرجو والمحقق للهناء.

لقد تمكّن الإنسان بفضل تسخيره للمواد التي قدمتها له الطبيعية بأن يستثمرها في تقدمه الصناعي، لكنه أوصلنا إلى عكس ما كان يطمح إليه، فأنا أطالع في الكتب تلك التكنولوجيا التي وظفها لتحسين ظروفه المعيشية إلا أنني الآن وفي عصرنا هذا لا أرى لها أثرا لأنه أعادنا فعلا إلى عصر الإنسان البدائي، فالإنسان كأنه يدور في حلقة مفرغة إذ ولد في المغارة وستنتهي حياته بها، لقد حطم نفسه بنفسه، فعوض أن يبحث عن التلاؤم بينه وبين الطبيعة أنشأ عداوة معها، وها هي الآن تنشب أظافرها فينا، هل هو أمر محتوم أن نصل إلى هذا الوضع؟ كلا إنّ الإنسان هو الذي يحرك عجلة الزمن، وهو الذي يمسك بمقود الاتجاهات، فهو الذي أراد لنا هذا المصير، إنني أرى أن الإنسان البدائي هو أحسن حظا منّا، إذ يسرت له العوامل ظروف الحياة، فالطبيعة كانت تزخر بكل الملذات، كان يكفيه تحديد موقعه بين الحيوانات ليتمكّن من العيش سعيدا هنيئا، وكانت الحيوانات تتجنبه لأنها ليست بحاجة إليه ولم يكن يمثل لها الوجبة المثالية، لكنه لم يكتف بذلك بل حاول ترويضها لتكون في خدمته، منها من وافقت مرغمة ومنها من أبت، إلا أنّ مصيرها كان مماثلا، لقد انقرضت

جميعا! فهذا هو رد الجميل لكل ما قامت به الطبيعة للإنسان. نحن الآن نتصرف كالحيوانات في طريقة عيشنا لكننا مجبرون على القيام بذلك، فنحن في حرب حقيقية مع الطبيعة، لقد كشرت لنا عن أنيابها! فما باليد حيلة، إنّ المسالة الآن لا تتعلق بكيفية تحقيق الإنسان للرفاهية بل هي مسألة البقاء، نحن في صراع من أجل البقاء أحياء على هذه الأرض، فيا له من وضع !.

***

تبادرت إلى ذهني في الليلة الماضية فكرة مفادها أن أعيد الاتصال من جديد بأفروديت فلربما ستقبل الآن أن تعيش القبيلتان معا، لكن يجب أن أستشير أولا أفراد قبيلتي، وأنا متأكد من أنهم سيقبلون بالفكرة ... نعم أنا متأكد ... كلا لست متأكدا، إنني أكذب على نفسي، لقد وصلنا إلى مرحلة لن نقبل فيها بعناصر إضافية، فالمؤونة بدأت تقل والحياة قد أصبحت أصعب من قبل، فلماذا سنغير الوضع الآن؟ إننا مع وئام مع أنفسنا ومع بعضنا البعض ومع المغارة التي نعيش فيها، فما الداعي لجلبهم إلينا وبالتالي تغيير المسار الذي نحن فيه؟ لقد أصبحت أنا المعارض للفكرة! وحتى أفروديت لن تقبل، فكيف لها أن تعيش مع قاتل أبيها؟ إنها الآن حتمًا تفكر في كيفية قتلي، والفرصة الأولى التي ستسنح لها لن تضيعها، وأنا متأكد من ذلك. عندما تعود إلى ذهني صورة ثأري لأبي، أجد نفسي وكأنني بدائي في تصرفاتي، وكأنّ الغرائز هي التي كانت تقودني، فأنا بطبعي أميل إلى استعمال العقل والتفكير ، لا أعرف كيف قمت بذلك التصرف الوحشي، أنا لست نادما على ما اقترفته بسبب حبي لأفروديت، بل لأنه تصرف حيواني لا أكثر، كان من الممكن أن أتصرف بطريقة أخرى غيرها، لكن ما هي؟ لا أدري!.

كيف هي أفروديت الآن؟ أنا على علم بأنها تقود بذكاء وفطنة أفراد قبيلتها، وهي حتمًا قد فقدت مثلنا العديد من الأشخاص بسبب البرد، وتعمل المستحيل لأن تصل إلى المؤونة والحطب، آه لو كانت معي الآن لكنّا ننعم بكل شيء، أظنّ أنّ سعادتي لن تكتمل إلا بوجودها معي، وربما حتى سعادتها لن تكتمل إلا بوجودي معها، هل تملك رفيقا؟ لا أعلم! إن كانت لا تملك، فسيكون ذلك علامة على حبها لي، على تمسكها بالعقد الذي أبرمناه ونحن صغار، لكن من الممكن أن يكون لشيء آخر، فلربما لم تعر لمثل هذه الأمور أهميّة لكونها ترهن سعادتها بموتي، فعندما تقتلني عندئذ يمكن لها أن تنعم بالسعادة وتتخذ رفيقا أو رفاقا، نعم هذا هو الأقرب إلى الحقيقة .

لقد ساهمت الكتب التي قرأتها لحد الآن في توضيح بعض الجوانب التي كنت حائرا فيها من قبل، حيث قدمت لي نظرة جديدة عن الحياة، نظرة كلها تسامح وتفاؤل، إنها أوضحت لي بأنّ الإنسان لم يعش سعيدا على هذه الأرض، ولم يعرف كيف يحقق سعادته، فمنهم من يشتريها بالمال ومنهم من يأخذها بالقوة، والبعض الآخر بالخداع والمكر إلا أنهم جميعا لم يصلوا إليها، لذلك فإنني أرى نفسي أوفر حظا منهم جميعا في تحقيق السعادة.

أنا الآن أنتقد وألوم الأجيال الماضية على ما اقترفته، لكن ماذا بوسعها أن تفعل؟ لأتصور نفسي الآن موجودا في العصر الذي وجد فيه صديقي، فماذا سأفعل يا ترى؟ هل سأقوم كالداعية وأقول لهم: كفوا عن الشعوذة التي تقومون بها، كفوا عن العنف الذي تخلقونه، كفوا عن هذه العداوة التي لا تريدون الانفصال عنها، انعموا بالعيش، ساعدوا بعضكم البعض، إنكم تعيشون لفترة قصيرة على الأرض، فلا تهدروها في الحروب والمعارك، كفوا عن صراعاتكم باسم الدين أو باسم أشياء أخرى، إنكم تعيشون على أرض واحدة، فحافظوا عليها، تمتعوا بخيراتها، قسّموا ثرواتها بالتساوي بينكم، ولا تنسوا! فكروا في الأجيال القادمة وما ستتركونه لها، أوقفوا باسم هذه الطبيعة كلّ هذا الجنون الذي يعتليكم، كونوا بسطاء لتنعموا بالسعادة. لكن هذه المقولات قد ردّدها الأنبياء من قبل خاصة مع اقترانها بالخالق الذي كانوا يخافون منه، إلا أنهم وعلى الرغم من ذلك استمروا في تحطيمهم لأنفسهم، سيقولون عنّي مستهزئين: إنه مجنون، لا تستمعوا إليه، إذ هل تعقل هذه الأمور التي ينادي بها؟ إنه يعيش في جمهوريته الفاضلة، إنه لا يدرك ولا يعي ما يقوله. سأكون منبوذا من طرفهم وبالتالي لن أتمكّن لا من تحقيق سعادتهم ولا من تحقيق سعادتي، أظنّ أنه من الأفضل لي أن أعيش في عصري هذا، فعلى الأقل أفراد قبيلتي يفهمون ما أقوله لهم، وخصوصا فينوس، فهي توافقني في كلّ شيء ليس لكونها تحترمني ولا تريد أن تجرح عواطفي، بل لأنها مؤمنة بآرائي، وإيمانها ناجم عن قناعة حقيقية مطلقة، إنّ تفكيرها وتفكيري متطابقان، لذلك أحتار أحيانا لِمَ لم تخترني رفيقا لها، صحيح أنني لم أفاتحها أبدًا في الأمر، ولم ألمح

لها على الإطلاق بما يدور في ذهني اتجاهها لسبب بسيط جدا، فأنا لديّ ست رفيقات! ماذا ستكون صورتي أمام قبيلتي؟ سيقولون إنه أناني إلى أقصى الدرجات ولا يفكر إلا في سعادته، فكل واحد منّا يملك رفيقة واحدة وهو يملك ستة ولم يقتنع بذلك حيث أضاف السابعة! لكنني لا أهتم في حقيقة الأمر بما يفكر فيه الآخرون، أنا أقوم بما أراه يحقق لي السعادة من دون أن ألحق بهم الضرر، وإضافتي للرفيقة السابعة لا أراه يشكل ضررا بالنسبة للآخرين. من الممكن أنها لم تطلبني كرفيق لها لأنها تعتقد بأن الوقت لم يحن بعد لأن ترتبط بواحد منّا، ثمّ جاء موت رفيقة بروميثيوس التي خلطت الأمور، لقد طلبَته لأنها كانت تشفق عليه، وعندما قالت أنها معجبة بشخص تفكر فيه ولم يحن فقط الأوان للبوح بمكنون حبها له، فهي ربما تقصدني أنا وليس بروميثيوس! كيف لم تتبادر إلى ذهني هذه الفكرة؟ لقد تركتها تنفلت مني بهذه السهولة، بل لقد ساهمت في دفعها بين أحضان بروميثيوس! لكن هل أنا واثق من ذلك؟ لا أظنّ! أنا لست متأكدا على الإطلاق، إذ من الممكن أن تكون معجبة فعلا ببروميثيوس، فهو رجل ذكي ولديه شخصية قوية وفوق كلّ هذا فهو جميل المظهر لا تظهر على ملامحه علامات كبر سنه. لقد أصبحت نرجسيا فوق اللزوم، إنها الآن رفيقة لبروميثيوس، لذلك لا يجب أن أفكر فيها بهذه الطريقة، بينما أتمنى أن لا يكون لأفروديت رفيق، لقد وعدتني في السابق بأن أكون رفيقا لها فهل ستقبل الآن؟.

أعتقد أنني أصبحت الآن أهذي، إذ بدأت ألاحظ العديد من السلبيات في أفكاري، فكيف يعقل أن أصبح أنانيا إلى هذه الدرجة؟ لديّ ست رفيقات وأتمنى فوق ذلك كله ألا يكون لأفروديت رفيقا، الظاهر أنّ هذا البرد الذي أحسّ به ونوم رفيقاتي، والنعاس الذي لا يريد أن يطبق جفوني هو الذي يجعلني أكتب مثل هذا الهذيان، إذ يستحسن لي ألا أضيّع المزيد من الأوراق في مثل هذه المسائل ... ماذا أقول ؟! إنه ليس هذيانا، لأنه من واجبي أن أفصح عن آرائي وأسمعها للجميع، لكن لمن؟ سأقوم غدا وأجمعهم لأقرأ عليهم ما كتبته الليلة وسأحذف المقاطع التي تحدثت فيها عن فينوس وأفروديت حتى لا

أثير مشاعر البعض، فأنا لا أريد أن أحقق سعادتي على حساب الآخرين بل أريد أن أحققها دون المساس بكرامة أو إحساس أيّ واحد منهم .

أنا أعلم بأنني لا أكتب سوى لنفسي، فحتى فينوس لا أسمح لها بقراءة ما أكتبه، بل أقرأ عليها في بعض الأحيان بعض المقاطع فقط، لكنني أجد نفسي مرتاحا عندما أفصح عن تلك الأفكار التي تدور في خلدي وكأن العالم بأسره قد اطلع عليها، كان هذا هو هدف صديقي، لكنني وللأسف الشديد لا أستطيع تلبية طلبه بحكم انتمائي إلى أخر جيل على هذه الأرض لذلك سأحاول في كلّ مرة أن أقرأ عليهم جزءا من مذكراتي حتى أكون قد لبّيت على الأقل طلب صديقي الذي أظل ممتنا له إلى آخر لحظة من حياتي.

***

مرّ علينا أكثر من شهرين ونحن لم نخرج من المغارة ولو لفترة وجيزة، كان ذلك أمرا رهيبا، كدنا نفقد الأمل في توقف العواصف الثلجية الهوجاء. لقد كان البرد قارسا جدا لم نعهده من قبل في مثل هذا الفصل إذ وصلت درجة الحرارة داخل المغارة إلى -25°، لذلك اجتمعنا داخل القاعة الكبيرة لننام فيها جميعا حتى نقتصد من الحطب الذي نشعله، كانت درجة الحرارة معقولة أمام الموقد لكن وبمجرد الابتعاد عنه ببضع خطوات إلا وتنخفض بسرعة مذهلة، هل هذه هي آخر اللحظات التي نعيشها على هذه الأرض؟ هل وصلنا أخيرًا إلى نقطة النهاية؟ هل سنموت جميعا في اللحظة نفسها أم أننا سنشاهد الواحد تلو الآخر وهو يغادرنا إلى الأبد؟ كانت تلك الأسئلة تتبادر إلى أذهاننا من دون أن يفصح عنها أحد، فالكل كان يتحدث عن قرب توقف تلك العواصف وعودة الصفاء من جديد إلى السماء لكننا جميعا نعلم أنه من المستحيل التنبؤ بحالة الطقس.

كنت منشغلا كثيرًا بالمؤونة التي بدأت تتناقص حيث وصلت إلى حد يمكن أن أقول فيه بضرورة دق ناقوس الخطر، إذ لو استمرت العواصف شهرا أو شهرين، فإننا سنموت حتمًا من الجوع، حاولنا مع حلول الأسبوع الثالث من بداية العواصف تقليص حصصنا من المؤونة لكننا وصلنا إلى مرحلة خطيرة أرى فيها اقترابنا الشديد من عتبة النهاية، إننا أوشكنا الوصول إليها!. من بين الأمور التي فكّرت فيها طيلة المدة التي مكثناها محتجزين داخل المغارة المناطق التي سنبحث فيها عن المؤونة، فالجميع يعلم أنّ الأماكن التي تركناها كمواقع لمؤونة الأمان، والموجودة بمحاذاة المغارة - والتي كانت من بين أسباب عداوة عمي لأبي- قد وجدناها شبه خالية، وليست بالحجم الذي كنّا نتصوره، لقد أخطأ أبي في تقدير أهميتها عندما ظنّ أنها تحتوي على قدر كبير من الحيوانات، وباءت محاولاتنا الأولى لاستخراجها بالفشل .كان ذلك في الفترة التي دامت فيها العواصف شهرا كاملا توقفت خلالها لمدة يومين حاولنا فيها

توفير مخزون إضافي. كان أبي يفكر في مستقبلنا لكن الطبيعة أرادت شيئاً آخر!. تملّكني الخوف لأول مرة، كنت آمل أن تتوقف تلك العواصف، وانصب تفكيري على المواضع التي سنبحث فيها عن المؤونة والحطب، كنّا في السابق نحفر ثلاث أو أربع خطوات تحت الأرض لنصل إلى الحيوانات المتجمدة، لكننا فيما بعد أصبحنا نحفر أكثر من ثماني خطوات تحت الأرض وخطوات أخرى يمينا أو شمالا حتى نتمكّن من العثور على هذه المؤونة -إن وجدت- إذ أصبحت بفعل الأيام نادرة. الشيء الذي يخيفني ويرعبني هو أنه وبمرور هذين الشهرين، تساقطت كميات كبيرة من الثلوج وارتفع حجم الجليد لدرجة أنّ باب مغارتنا قد صدّ منذ مدة طويلة دلالة على أننا الآن قد أصبحنا تحت مستوى الثلوج. كنّا في كلّ مرة نقوم بفتح ثقوب داخل الجليد حتى نتمكّن من تهوية المغارة، فالمشكلة إذن تتمثل في الجهد الذي سنبذله للوصول إلى المؤونة، إذ علينا بحفر عشرات الخطوات عسانا نصل إليها، إنني أضع ثقة عمياء في حدس وذكاء بروميثيوس في تحديد المواقع التي سنبحث فيها، فهو نادرا ما يخطأ في الاهتداء إلى المؤونة .

***

لقد هدأت العاصفة، هكذا صاح أورفيوس بابتهاج: استيقظوا جميعا، لقد هدأت العاصفة، أخيرًا هدأت! ثمّ بدأ يرقص ويصرخ، فقالت له فيليس متسائلة: هل أنت متأكد؟ فقال بصوت يحمل كلّ معاني الجدّة: طبعا أنا متأكد، ألا تصغين؟ فخيم الصمت بسرعة على المغارة لنتحسس أصوات الرياح، فعلا كنّا لا نسمعها، لقد توقفت فعلا العواصف! أدخل الخبر الذي حمله أورفيوس السعادة إلى نفوسنا، لقد أمضينا وقتا طويلا لم ننعم فيه بخبر مفرح، كان الكل في السابق يتظاهر بالسعادة لكننا في حقيقة الأمر كنّا خائفين من عدم توقف العواصف، أما الآن فنحن سعداء فعلا، هتفت للجميع بصوت حماسي: هيا لنفتح باب المغارة ونخرج منها لنتمتع بالفضاء الفسيح، لبس الجميع معاطفهم واتجهوا إلى باب المغارة. كان الكل مشتاقا للخروج، إذ كانت المرة الأولى التي نحتجز فيها مدة ثلاثة أشهر دون أن نرى فيها ولو للحظة واحدة المعالم الخارجية. تمكّنا بسرعة من حفر نفق داخل الثلج استطعنا على إثره الخروج، كم كان الأمر مذهلا حقا! لقد وجدنا أنفسنا في ساحة كبيرة مستوية، لقد كنّا نسكن في أعلى الجبل، فإذا بسفحه يمتلئ عن آخره ليتلاقى مع الجبل الآخر، لقد تغيرت كلّ المعالم التي كنّا متعودين عليها، إذ اختفت قريتنا السابقة نهائيا، واختفت العديد من الجبال حيث أصبحت مستوية، لم نصدق ما رأته أعيننا، عندئذ دبّ فيّ الخوف من جديد، لقد حدث ما كنت أخشاه، فكيف لنا الآن الوصول إلى المؤونة؟ كان أمرا محيرا، رأيت لأول مرة مظاهر الخوف بادية على وجه بروميثيوس. توقفت مباشرة مظاهر السعادة التي كانت بادية على محيا الجميع لتتحول بسرعة إلى مظاهر الحيرة والقلق، فقلت لهم بصوت حزين: هيا لنعد إلى المغارة ونناقش الوضع .

اجتمعنا داخل القاعة الكبيرة، حيث خيّم صمت رهيب وكأننا قد فقدنا شخصا عزيزا، فابتدأت بالحديث قائلا لأمفتريت: بصفتك المسؤولة عن المؤونة كم بقي منها؟ فقالت: شهرين على أكثر تحديد، فقال بوسيدون بحماسه المعتاد:

إذن علينا أن نبدأ العمل من الآن، فقاطعه ديموفون حائرا: ولكن أين؟ فعاد الصمت من جديد ليخيم على القاعة. قال مينيلاوس مظهرا عدم رضاه: هل سنستسلم بهذه السهولة؟ لا يجب أن نبقى هكذا مكتوفي الأيدي، يجب أن نفعل شيئاً! فتحدث من جديد ديموفون قائلا بصوت حزين: نعم أنا أوافقك الرأي، لكن ماذا يمكن لنا فعله؟ فقام بروميثيوس وعلامات الرصانة والجدّة باديتان على وجهه قائلا: اسمعوا جيدا، ليس بأيدينا سوى حل وحيد وخطير في الوقت نفسه، فقاطعته هيلينا قائلة بحسرة: ليس أخطر من الوضع الذي نحن عليه، فقال: نعم إنّ بقائنا هنا يعني نهايتنا، لذلك أقترح أن نأخذ معنا بعضا من المؤونة التي تكفي مدة أسبوعين، نذهب من خلالها في هذه الوجهة، وأشار إلى ناحية لم نسلكها من قبل لأنها كانت كثيرة المنحدرات والمرتفعات وتقع شرق الجبل العالي، ثمّ أضاف قائلا: لقد سمعت في السابق بوجود العديد من المغارات السطحية في تلك الناحية، فلربما كانت الحيوانات تلجأ إليها في السابق لذلك من الممكن أن نعثر على المؤونة فيها، فما رأيكم؟ إنّ الرحلة خطيرة ستستغرق أسبوعا أو أكثر، ومن الممكن ألا نعود منها سالمين، فكّروا في الأمر بروية، ثمّ سكت وعاد إلى مكانه جالسا. نظر بعضنا إلى بعض، ثمّ قمت قائلا: أرى أنّ بروميثيوس معه الحق، إنه الحل الوحيد بالنسبة لنا، فاستمرارنا متوقف على تلك الرحلة، ولا نملك خيارا آخر، وأتمنى أن يمنحنا الطقس صفاءه إلى غاية عودتنا وأنا واع بأنكم تدركون خطورة الوضع جيدا، فإذا أراد أحدكم البقاء هنا فهو حر، إننا لا نلزم أحدا بشيء، ثمّ قلت لبروميثيوس: ومتى سنشرع في الرحلة؟ فقال: يستحسن أن ننطلق الآن مادمنا في أول الصباح والصفاء موجود، فسألتهم: من منكم يريد البقاء؟ سكت الجميع، فقامت ستيروب قائلة: أنا أريد أن أذهب معكم فستكونون بحاجة إليّ، فقلت لها برقة: شكرا ولكن يستحسن أن تبقي مع الأخريات، فالرحلة ستكون شاقة، وسنحاول أن نعود في أسرع وقت ممكن، ثمّ خاطبت أمفتريت قائلا: حضري لنا مقدار أسبوعين من المؤونة، ثمّ قلت لأنتيجوني: أما أنت فضعي لنا بعض الحطب على الزلاجة، فحتمًا سنكون بحاجة إليه، ثمّ ذهبت إلى الصندوق وأخذت منه

ولاعتين بالإضافة إلى المنظار والخنجر، لم يستغرق الأمر طويلا حتى وجدنا أنفسنا في الطريق نحو المجهول، فالكل لا يعرف حقيقة النتائج التي ستترتب عنها تلك الرحلة، لقد تركنا رفيقاتنا يبكين، إنهن يعرفن جيدا خطورة هذه الرحلة. رأيت كلا من أورفيوس وديموفون يبكيان بينما تظهر على ملامح الآخرين علامات الصبر والرزانة. كان الطريق طويلا لم نتوقف فيه عن السير إلا عند اقتراب حلول الليل. قمنا بحفر نفق داخل الثلج ثمّ دخلنا تحت الأغطية الجلدية التي حملناها معنا، تناولنا قليلاً من اللحم، لم نشعل في تلك الليلة النار لأنّ النفق الذي حفرناه كان دافئا نوعاً ما، فبرودته كانت معقولة إذ كنّا قد أحكمنا غلق فتحته بالثلج وبالتالي لم نسمح للنسمات الباردة بالدخول إلينا. وفي الصباح خرجنا منه حيث أشعلنا بعض الحطب وشربنا الماء الساخن الذي أدخل الدفء إلى أجسادنا، ثمّ تناولنا قطعا من اللحم وانطلقنا من جديد في رحلتنا.

كان هدفنا هو الوصول إلى السلسلة الجبلية التي كانت تظهر ملامحها من بعيد، وكلما اقتربنا منها كانت تتضح أشكالها أكثر، فهي مكونة من تسع قمم عالية، مغطاة بالثلوج وفي بعض الأماكن تبرز الصخور لشدة المنحدرات التي عليها، حاولنا أن نتبيّن من بعيد إمكانية التعرف على الفتحات التي توجد بها لكننا لم نستطع تحديدها، وحتى المنظار الذي كان بحوزتي لم يستطع بدوره من الاهتداء إليها، فالمسافة التي تفصلنا عن تلك الجبال مازالت بعيدة. كان الطريق إليها صعبا للغاية لأننا عرّجنا يسارا، خارجين بذلك عن الطريق المسطح الذي كنّا فيه والمؤدي إلى وجهة مغايرة. إنّ المسار الجديد الذي اتخذناه مليء بالنتوءات والمنحدرات والمرتفعات، ففي أغلب الأوقات كنّا نستعمل الحبال التي معنا لنتمكّن من نزول أو صعود المرتفعات، وكلما تقدمنا أكثر من السلسلة الجبلية كلّما كان الطريق أكثر صعوبة إلى أن وصلنا الجبل الأول. لقد مضى على انطلاقنا من المغارة خمسة أيام لم نتوقف فيها إلا في الليل بسبب البرد القارس، وكان الحظ نوعاً ما حليفنا لأنه لم تعطلنا أية عاصفة، لكننا لم نكن نتصور بأنّ الطريق بعيد بهذا الشكل. كان الجبل الذي

وصلنا إليه كبير جدا لم نعهد رؤيته من قبل، وكانت تظهر لنا الجبال المحيطة بمغارتنا أشبه بالتلال، أخذت المنظار وبدأت أتفحص مرتفعاته عساني أصل إلى فتحة نتمكّن على إثرها من الدخول إليه إلا أنني لم أهتد إلى أيّة منها، لذلك قدّمت المنظار لمينيلاوس قائلا: إنك تملك نظرا ثاقبا، فحاول من فضلك أن تبحث لنا عن فتحة في هذا الجبل، فبدأ ينظر يمنة ويسرى، ثمّ إلى الأعلى والأسفل لمدة من الزمن ثمّ قال بحسرة: أنا لا أرى أية فتحة، فنظرت إلى بروميثيوس وقلت: هيا لنغير المكان، لنتقدم قليلاً إلى الأمام حتى نتمكّن من رؤية الوجه الآخر للجبل، فأخذنا من جديد نصعد ونهبط إلى أن قال لنا بروميثيوس محذرا: يستحسن أن نسرع في حفر النفق التي سنأوي إليه اليوم، لأن الليل سيحل قريبا، فأنا أحسّ بأنّ البرد بدأ يتزايد، فقال هايمون وهو يرتجف: معك الحق، فأنا أيضاً أحسّ به. قمنا بحفر نفق في الثلج كان أعمق من سابقيه، وأمضينا فيه ليلتنا، لم ينم أحد منّا بسبب البرودة، ولم نتمكّن حتى من إشعال النار لعدم متانة السقف الذي كان سيذوب علينا. قلت لهم ونحن في النفق: إن أمضينا ليلة أخرى مثل هذه الليلة فإننا لن نبقى أحياء، يجب أن نجد مغارة داخل هذه الجبال وبسرعة. خرجنا منه في الصباح ونحن نرتعد من البرد حيث قمنا بإشعال النار، تدفأنا قليلاً وسخنا ملابسنا وأحذيتنا، وشربنا الماء الساخن الذي سخن بدوره أجسامنا، ثمّ واصلنا طريقنا إلى غاية المكان الذي وجدنا فيه أنفسنا بين جبلين، كنّا أمام الجبل الثاني ووراءنا الوجه الآخر للجبل الأول، قام مينيلاوس بالبحث من جديد عن فتحات يمكن أن تظهر على سطح الجبل لكنه لم يجد أية واحدة منها، لذلك استدار وبدأ البحث في الجبل الثاني، لكننا لم نتوصل أيضاً إلى رؤية أية فتحة، قال هايمون بصوت حزين: أظنّ أنّ الفتحات كلها توجد تحت الثلوج، وبالتالي فإننا لن نصل إلى أيّة منها، كنّا نفكر في الشيء نفسه تقريبا إذ من الممكن أن تكون جميعها موجودة في مستويات منخفضة ممّا يجعل الوصول إليها أمرا مستحيلا، كنّا نطمح إلى الاهتداء إلى فتحات علوية قد تقودنا بدورها إلى الأسفل، لكننا لم نصل بعد إلى هدفنا، فبدأ اليأس يدبّ في أصدقائي لذلك

قلت محاولا بثّ الشجاعة والأمل في نفوسهم: اسمعوا جيدا، لغاية الآن بحثنا فقط في الواجهات الثلاث للجبلين، بينما لا تزال ثلاث واجهات أخرى لم نبحث فيها بالإضافة إلى وجود أربع جبال أخرى، فلا تيأسوا إننا لم نصل إلى هنا لنستسلم، ثقوا في أنفسكم، ثمّ قلت لمينيلاوس: هيا نتابع طريقنا على اليسار لنشاهد الواجهة الأخيرة للجبل الأول، أما أنتم، فانتظرونا هنا فإننا لن نتأخر كثيرًا. أسرعنا الخطى إلى أن وصلنا إلى مكان كان بالإمكان أن نشاهد منه السطح الأخير للجبل، بحثت بالمنظار لكنني لم أعثر على شيء يشير إلى أنه فتحة، ثمّ فجأة لاحظت مكانا خيّل لي أنه مغارة، فتسارعت دقات قلبي وقلت لمينيلاوس في غمرة السرور: أنظر إلى هذه الجهة أعتقد أنني وجدت واحدة، فقال: أين؟ فقلت له: من هذه الجهة، فأشرت بإصبعي إلى ذلك المكان، فقال: نعم أنا أرى شيئاً هناك، ناولني من فضلك المنظار، ثمّ بدأ يتفحص ذلك الموقع، لكنه ما لبث وأن قال بصوت حزين: للأسف ما هي إلا صخور لا توجد بها أية فتحة، فقلت وكأنني لم أرد تصديقه: هل أنت متأكد؟ أنظر مرة أخرى، فقال وهو يرسل تنهيدة: بل أنا متأكد ممّا أقوله، ويستحسن لنا أن نعود إلى الجماعة. فقلت بحسرة: بما أنك واثق من نفسك فهيا نعود، سنصل حتمًا إلى رغبتنا فلا تيأس، فقال متعجبا: إنّ التلال التي نسكن بها مليئة بالمغارات فكيف لا توجد في هذه الجبال؟ وواصل كلامه متمتما :حتمًا توجد، فيكفي البحث عنها جيدا. وصلنا إلى بقية الأفراد حيث وجدناهم قد حفروا نفقا داخل الثلج أين قضينا فيه ليلة أخرى بيضاء بسبب البرودة التي تزامنت مع هبوب عاصفة ثلجية أثناء الليل خفنا على إثرها ألا تتوقف لكنها لم تستمر طويلا. كان علينا أن نجد المؤونة بسرعة، فنحن قد دخلنا اليوم السابع، ولا يجب أن نتأخر في الوصول إلى مبتغانا وإلا فإننا سنموت في هذه البقعة بعيدا عن رفيقاتنا اللواتي سينلن المصير نفسه إن لم ننجح .

خرجنا من النفق في الصباح وقمنا بالأشياء التي اعتدنا عليها لرفع درجة حرارة أجسامنا ثمّ أخذنا وجهة الجبل الثالث كان الوصول إليه أصعب من الوصول إلى الجبلين السابقين، فالمرتفعات والمنحدرات أصبحت كبيرة وكثيرة،

بالإضافة إلى خطورتها، فإن انزلق الواحد منّا فإنه لن يصل سالما إلى أسفل تلك المنحدرات. أمضينا يومين حتى تمكّننا من الدوران حول الجبل الثاني وقابلنا بذلك الجبل الثالث. قمنا بالبحث في الجبل الثاني، فلم نشاهد أيّ شيء، ثمّ بحثنا على سطح الجبل الثالث علّنا نصل إلى ضالتنا فظهرت لنا صخور كثيرة في الجهة اليسرى منه لكنها كانت مرتفعة إذ علينا أن نصل إليها لنتبيّن إمكانية وجود فتحات أم لا، فقلت لهم مقترحا خطتي ومتسائلا في الوقت نفسه: أرى أنه يستحسن أن نستطلع هذه الصخور لذلك، فإننا لن نبحث في الوجه الثالث للجبل الثاني، فهل سنصعد إليها كلنا أم نكلف البعض بالذهاب وتقصي الأمر؟ فنهض بروميثيوس وقال بصوت كله عزيمة وقد ظهر في عينيه بريق خاص: سأذهب أنا، فمن يرافقني؟ فنهض كلّ من مينيلاوس وهايمون قائلين بلهجة حماسية: نحن سنرافقك، لكنه ردّ عليهما قائلا: بإمكانك أن ترافقني يا هايمون، أما أنت يا مينيلاوس فعليك أن ترتاح قليلاً، فقد قمت بجهد كبير يوم أمس. فقلت لهما مترجيا: لا تخاطرا بأنفسكما وخذا الحذر، فالجليد خطير في هذه الناحية، وعودا إلينا سالمين، ثمّ قال أورفيوس مازحا: وخصوصا عودا إلينا بأنباء سعيدة، وإذا وجدتما فتيات حسناوات في المغارات، فاتركوا لنا نصيبنا، لا تنسونا نحن بالانتظار. لم أكن أعتقد أننا في تلك اللحظة قد فارقنا وللأبد هايمون، حيث ومع حلول الليل اعتقدنا أنهما قد وجدا مكانا يمضون فيه الليلة، لكننا لاحظنّا في الصباح عودة بروميثيوس لوحده، كانت ملامح وجهه تنبئ عن خبر غير سار فقد كان حزينا ومنهك القوى. أسرعنا إليه حيث ساعدناه على الجلوس قرب النار ثمّ قدمنا له كوبا من الماء الساخن، لم يتجرأ أحد منّا على الاستفسار عن هايمون، فالكل يعلم مصيره، أخذ الجميع يمسح قطرات الدموع التي كانت تتساقط على خدودهم وتبلل بشكل واضح لحاهم، حاولت استرجاع أنفاسي ثمّ قلت لبروميثيوس: هل وصلتما إلى الصخور؟ فقال: نعم لكن لا توجد بها أيّة مغارة، اضطررنا إلى حفر نفق أمضينا به ليلتنا، لكن انهيارا ثلجيا حدث في تلك المنطقة وأخذنا إلى الأسفل، أمضيت ما تبقى من الليل في البحث عنه، ولم أتمكّن من الوصول إليه إلا في

الصباح حيث وجدته قد فارق الحياة. لقد فقدنا هايمون ولم نصل إلى نتيجة !. كانت روايته مؤثرة جدا لكنني تماسكت نفسي واقترحت عليهم الاستراحة في ذلك اليوم حتى يستعيد بروميثيوس قوته إلا أن مينيلاوس وأورفيوس رفضا وقالا لي بصوت كله ثقة وأمل: سنذهب معا إلى الجهة الأخرى للجبل، فلربما سنعثر على ما نبحث عنه. لم أر مانعا في ذلك حيث قدمت لهما المنظار وترجيتهما على أخذ الحيطة، ثمّ اتجها بسرعة آخذين الجهة اليسرى للجبل .

كاد الليل أن يحل عندما عادا مسرعين، حيث دخلا النفق الذي نوجد فيه وقالا بلهجة فرح: أخيرًا وصلنا إليها، إنها ليست مغارة واحدة بل مغارات كثيرة عشرة، إحدى عشر، كم عددها يا أورفيوس؟ فقال هذا الأخير متعجبا: كنت أعتقد أنك أنت الذي قمت بعدها، إنها كثيرة وهذا هو المهم، فقلت لمينيلاوس متسائلا: وهل هي بعيدة؟ فقال مبتسما: مسيرة أقل من نصف يوم، ثمّ سألته من جديد: والطريق هل هو صعب؟ فأجابني والابتسامة لم تفارقه: كلا، هو مجهد لأنه طريق متصاعد لكنه ليس بالخطير، بل هو أحسن من الطريق الرابط بين الجبل الثاني والثالث. فقال ديموفون بفضول: وهل دخلتما إحدى المغارات؟ ردّ عليه أورفيوس قائلا: كلا، لم يكن لدينا الوقت لذلك، إذ عدنا بسرعة لنخبركم بالأمر حتى نقوم باستكشافها معا، فقلت وعلامات الفرح بادية على وجهي: نعم يستحسن أن نكون معا، فغدا صباحا سنصعد إليها .

لم نحس بالبرد في الليل مثلما كنّا نحسّ به في الأيام الأخيرة على الرغم من وجوده، فالأخبار السارة التي وصلتنا جعلتنا سعداء للغاية. كنت متعجبا من سرعة تحوّل أحاسيسنا، ففي الصباح فقط كنّا من أتعس الناس على الأرض بسبب فقداننا لصديق عزيز، والآن نحن أسعد الناس على الأرض لأننا رأينا ما يمكن أن يكون حبل نجاة بالنسبة لنا. لم تفارق صورة هايمون فكري طوال الليل، وأنا أعلم أن أصدقائي أيضاً حدث لهم الشيء نفسه، فالنوم لم يطبق جفونهم! لقد أحسست بذلك على الرغم من الظلام الدامس الذي كان يكتنف النفق.

بعد تناولنا لبعض قطع اللحم في الصباح اتبعنا المسار الذي اتخذه مينيلاوس وأورفيوس، إلى أن وصلنا إلى المغارة الأولى قبل منتصف النهار كما حدّده لنا مينيلاوس بالضبط. كانت فتحتها واسعة، لففنا قطع القماش التي أحضرناها خصيصا لهذا الغرض والمطلية بالدهن حيث أشعلنا واحدة منها ودخلنا لاستكشافها، كانت مغارة واسعة وعالية وتوجد بها عدة فتحات تؤدي إلى مغارات جانبية، كنّا نهتم بالتي تؤدي إلى الأسفل، فعساها تنزلنا إلى أعماق الجبل والذي من الممكن أن يوصلنا بدوره إلى فتحات أخرى يمكن على إثرها أن نجد الحيوانات المسكينة التي تكون قد اتخذتها كملاجئ عندما حاصرتها الثلوج، اتضح لنا أنّ أغلب تلك الفتحات تتلاقى مع بعض في الجزء السفلي لنجد نفقا جديدا مظلما وباردا، قررت الاستعانة بمشعل ثان لأنّ المكان أصبح خطيرا بسبب زلاجته. كنّا نستعين أحيانا بالحبال، وأحيانا أخرى نجد الفتحات والأنفاق ضيقة لا تتسع سوى لشخص واحد حيث كنّا نمرّ بالتناوب. كنت آمل ألا تذهب جهودنا سدى، فهذه المعاناة التي تحمّلناها طويلا يجب أن تقودنا بالضرورة إلى نتيجة إيجابية وإلا فإنّ معنوياتنا ستنهار حتمًا. أشار بروميثيوس إلى ضرورة النزول أكثر لأننا لم نصل بعد إلى المستوى الذي انطلقنا منه، كان الطريق صعبا للغاية، فالأنفاق والقاعات التي نجتازها متباينة الأحجام، فأحيانا تكون واسعة وأحيانا أخرى تكون ضيقة جدا. تملّكنا الخوف من أن نجد الطريق الذي اتبعناه موصدا لكن بروميثيوس طمأننا عندما قال بأنّ المياه التي تنساب بالداخل دلالة على وجود مسار ما، فعاودنا الأمل من جديد. تابعنا نزولنا إلى غاية وصولنا إلى قاعة كبيرة، عندئذ قلت لهم: يستحسن أن نتوقف هنا اليوم، فالظلام حتمًا قد حلّ في الخارج لذلك أرى أنه من الأفضل أن نمضي ليلتنا هنا. وافق الجميع على عرضي، فقد كانوا منهكي القوة نظرا لصعوبة المسارات، أشعلنا في وسط القاعة النار ولأول مرة أمضينا ليلة لم نحس فيها كثيرًا بالبرد.

بعد استيقاظنا واصلنا نزولنا إلى قاع الجبل حيث بدأنا نحسّ بالبرد الشديد وبصعوبة في التنفس، فقال بروميثيوس: الآن اقتربنا حتمًا من مستوى

الأرض، لذلك يستحسن أن ننظر إذا ما وجدت هناك فتحات جانبية فهي أملنا الوحيد. تابعنا النزول إلى غاية وصولنا إلى قاعة بفتحتين، إحداهما تؤدي إلى اليمين والأخرى إلى الشمال، فعرضت عليهم أن ننقسم إلى فريقين، فإذا التحم النفقان، فإننا سنواصل بحثنا معا أما إذا افترقا فإنّ كلّ واحد منّا سيبحث في جهته، وستكون نقطة الالتقاء في هذا المكان .

توجهت مع مينيلاوس إلى النفق الأيمن بينما تقدم كلّ من بروميثيوس وأورفيوس وبوسيدون إلى النفق الأيسر، وطلبنا من ديموفون أن يبقى هناك حتى يحتفظ بقوته، ففي حالة ما إذا عاد أحد منّا، فسيتولى هو مهمة الذهاب إلى النفق الآخر لاستدعاء الآخرين. كانت يداي ترتجفان من البرد فالقفازات الجلدية التي كنت ألبسها قد تبلّلت من فعل اتكائي في كلّ مرة على الصخور المبللة أثناء نزولي أو مشيي في المسارات الضيقة. كنّا لا نسمع سوى خرير المياه الباردة وهي تسيل أو تتساقط كالشلالات الصغيرة مرتطمة على أسطح الصخور. كانت نسبتها أقل نظرا لانقسامها بين النفقين، لا أثر للجليد أو الثلج هنا. أثناء نزولنا وصلنا إلى قاعة صغيرة لا توجد بها سوى فتحة في الوسط وعندما أدخلنا المشعل لنرى إن كان ممكنا النزول منها لاحظنّا أن أرضيتها كانت بعيدة نوعاً ما، فقلت لمينيلاوس بصوت كله ثقة وعزيمة: الآن وقد وصلنا إلى هنا لا يجب أن نتوقف، ابحث لي عن مكان أربط فيه هذا الحبل، فسأنزل إلى الأسفل. وجد مينيلاوس صخرة في أحد أطراف القاعة حيث لف الحبل حولها ثمّ قام بتدليته إلى الأسفل، وبعدها قال برجاء: دعني أنزل أنا لأتحرى الأمر، فقلت له باسما: لا تخف عليّ، فأنا ما أزال محتفظا بقواي. بدأت أنزل شيئاً فشيئاً إلى أن وصلت إلى القاع، أخذت الولاعة من جيبي ثمّ أشعلت المشعل الذي كان في حقيبتي واندهشت لِما رأيته، لقد ظنّنت في البداية أنني فقدت عقلي وأصبحت أرى أشياء غير حقيقية، لكنني لمّا لمستها بيدي علمت بأنها حقيقية، فناديت مينيلاوس بابتهاج: أسرع يا مينيلاوس وانزل لترى ما أراه! وفي لمح البصر رأيته واقفا بجانبي فاتحا فمه حيث قال بانبهار: إننا لن نموت، إننا لن نموت !. كنّا داخل قاعة كبيرة وفي أحد أطرافها وجدنا العديد من

الحيوانات المتجمدة، حيث كان الجليد والثلج يغطيانها لكن ملامحها كانت واضحة، إنها حيوانات مختلفة ومتنوعة لا أستطيع عدّها لكنها على ما أظنّ صالحة للأكل. بعدما استعدنا أنفاسنا قلت لمينيلاوس بثقة وسرور: يجب علينا أن نتصل بالآخرين ليكفوا عن البحث، فما يوجد هنا يكفينا لقضاء سنة من دون أن نكون بحاجة للبحث مرة أخرى، فقال متلعثما بسبب غبطته: نعم يستحسن أن نسرع حتى لا يبتعدوا كثيرًا، عندئذ تسلقنا الحبل ثمّ اتبعنا الطريق الذي سلكناه إلى غاية مفترق النفقين. لمّا سمع ديموفون بالخبر كاد أن يقع من الفرح، وفضّلنا مرافقته لإعلام الآخرين. عطفنا على اليسار ثمّ بدأنا في النزول ونحن نصرخ حتى يسمعنا بروميثيوس ورفاقه، لقد مشينا طويلا إلى أن وصلنا إلى قاعة بفتحتين، كنّا حائرين في المسلك الذي سنتبعه، فقلت لمينيلاوس متسائلا: أيّ الطريقين يا ترى أخذوا؟ ثمّ تابعت كلامي قائلا: يستحسن أن نفترق حتى نسرع في العثور عليهم سيذهب معك ديموفون، فخذا حذركما ولا تبتعدا كثيرًا فهم حتمًا قريبين، فإذا وجدتماهم فانتظروني هنا، أما إذا وجدتهم أنا فسننتظركما هنا، لا تنسيا خذا حيطتكما، فأنا لا أريد أن يصيبنا شيء ونحن على عتبة النصر، ثمّ افترقنا حيث واصلت النزول وأنا أصرخ حتى سمعت صوت بروميثيوس الذي توقف إلى غاية وصولي إليه. كنت فزعا إذ لم أشاهد معه لا أورفيوس ولا بوسيدون، علم بمصدر قلقي فقال وهو يبتسم: لا تخف لقد افترقنا فقط في الأسفل، وسيصعدان فورا! استعدت أنفاسي وشرحت له الأمر ثمّ انتظرنا برهة من الزمن حتى بدا النور يظهر في النفق حيث خرج منه أورفيوس وبوسيدون. لمّا علما بالخبر أخذا يرقصان ويصرخان لكن بروميثيوس أوقفهما حيث قال بجدية: إنّ ديموفون ومينيلاوس يبحثان عنا في الجهة الأخرى لذا يجب أن نلحق بهما قبل أن يبتعدا أكثر. اتجهنا إلى القاعة التي افترقنا فيها حيث ذهب أورفيوس وأحضرهما ثمّ اتجهنا جميعا إلى القاعة التي وجدت فيها الحيوانات. كان الجميع فرحا بالغنيمة، فقال أورفيوس وعيناه مغرورقتين بالدموع: لم تمت هباء يا هايمون! أحسسنا

جميعا بالقشعريرة تنتاب أجسامنا، وشعرنا بالحسرة لأنه فارقنا من دون أن يعلم بأننا تمكّنا أخيرًا من النجاح في مهمتنا.

قال بروميثيوس وعلامات الحيرة بادية على وجهه: إنّ عدد الحيوانات كبير جدا، يجب أن نبحث عن الفتحة التي دخلوا منها هيا لا نضيع الوقت. كانت الفتحة في الجهة المقابلة لمكان وجود الحيوانات حيث أزحنا الثلوج المتراكمة هناك لتتراءى أمامنا، ثمّ قال بروميثيوس: الآن يجب علينا أن نحفر نفقا متصاعدا داخل هذا الثلج حتى نتمكّن من الخروج من هذا الجبل، فنحن لن نعود من طريقنا. عندئذ أطرق أورفيوس ضحكا وهو يقول: كنت أعتقد أننا سنعود من الطريق الذي سلكناه، لذلك وجدتني أفكر في الوسيلة التي تمكّننا من حمل هذه المؤونة للصعود بها في تلك المسارات الضيقة، فضحك بوسيدون بدوره قائلا: لقد وجدتني أفكر في المسألة نفسها!. بدأنا الحفر في الثلوج المتراصة على الفتحة فإذا بها عبارة عن نفق ملتوي، لكنه غير طويل، كان الجليد يعم المكان لذلك وجدنا صعوبة في إزاحته لكن ذلك كان أفضل بالنسبة لنا حتى نتمكّن من المشي عليه من دون أن نتعثر. بعد خروجنا من النفق الجبلي بدأنا نعرج قليلاً إلى الأعلى بحيث نتمكّن من الصعود دون عناء، استمرت عملية الحفر نصف يوم، وفجأة صرخ أورفيوس قائلا: لقد وجدت نفقا آخر! إنه محفور من طرف الإنسان! احذروا فإننا لسنا لوحدنا !، اتجهنا جميعنا إلى المكان الذي وجده أورفيوس، وقال ديموفون مندهشا: نعم، إنه نفق محفور من قبل الإنسان. فقلت لهم مرتبكا: دعوني أرى جيدا، ولمّا تفحصت النفق نظرت إلى أورفيوس وقلت له ساخرا: أيها الغبي! إنه النفق الذي أمضينا فيه الليالي الثلاث الماضية! فقال متعجبا: ماذا؟، ثمّ تمعن جيدا في المكان وقال بخجل: معك الحق! يا لي من غبي، لقد ساهمت في حفره! ثمّ انفجر الجميع ضحكا، لقد وصلنا إذن إلى السطح. لمّا خرجنا من النفق لاحظنّا أن الليل قد بدأ يحلّ، فقررنا العودة إلى المغارة لنقضي فيها ليلتنا. أشعلنا الحطب وأكلنا حيوانا كاملا، كنّا سعداء جدا، قام بروميثيوس بحفر جانبي خارج المغارة ثمّ نادانا قائلا: ساعدوني في استخراج هذا الجذع، فقال له بوسيدون حائرا: هل

سنحمل معنا الحطب أيضاً؟ فرد عليه بروميثيوس بابتسام: كلا، هيا اسحب معي وكف عن الأسئلة. لمّا أدخلا جذع الشجرة الطويل إلى المغارة بدأ بروميثيوس بعملية تقطيعه إلى خمس قطع، وكل قطعة منها كان يقسمها إلى أربع قطع أخرى، ثمّ قال: قدموا لي الحبال التي معكم، فقدم كلّ واحد منّا الحبل الذي كان يحمله معه، فقال: سنحتفظ بحبلين، أما البقية فإننا سنربط بها هذه القطع مع بعض لصنع الزلاجات، هيا ساعدوني في العمل. أمضينا الليل كله في صنع الزلاجات واستخراج الحيوانات من الجليد الذي تتواجد به ثمّ وضعها على تلك الألواح. حمّلنا كلّ زلاجة خمس حيوانات، وبقي في المغارة أكثر من عشرين حيوانا، اتفقنا على جعلها مخزونا لنا لوقت الشدة، فنحن نعرف الطريق جيدا.

لم نشعر بالعياء أثناء عملنا، كان بروميثيوس يسعل قليلاً فطلبنا منه أن يستريح، لكنه رفض عرضنا واستمر في العمل. كنّا متلهفين للعودة بسرعة إلى مغارتنا، فلقد حقّقنا رغبتنا. لمّا حلّ الصباح بدأنا في سحب الزلاجات، في الأول تعاونا على استخراجها من المغارة والنفق إلى أن وصلت إلى السطح، ثمّ أخذ كلّ واحد منّا يجر زلاجته، لاحظت علامات العياء بادية على وجه بروميثيوس، فالسعال لم يزاوله طوال الليل بل ازدادت حدّته في الصباح، حاولت إقناعه بالإنقاص من حمولته وتوزيعها علينا إلا أنه أبى، كان المسار صعبا جدا بين الجبل الثالث والثاني، حيث أمضينا النهار كله للتمكّن من اجتيازه، ولمّا اقترب الليل حفرنا نفقا داخل الثلج أين تكدسنا فيه. ازدادت حدّة سعال بروميثيوس، فقمنا بفتح باب المغارة، ثمّ أشعلنا الحطب وسخنا الماء وقدمناه له ليشربه، ثمّ دهننا وجهه وحلقه وصدره بالدهون الموجودة معنا. كانت حرارته عالية جدا، أمضى بقية الليل وهو يهذي. سمعناه يتلفظ بأسماء عدة من الذين فارقونا منذ مدة كاسم رفيقته واسم أبي وحتى اسم هايمون، لم نجد ما نقوم به سوى وضع قطع القماش الممتلئة بالجليد على جبينه علها تنقص من الحرارة التي تلهبه. لمّا حلّ الصبح لاحظنّا أنه لا يزال يعاني من الحمى الشديدة، فاتفقنا على عدم الاستمرار في السير حتى يخف عنه المرض

قليلا. كان المسكين يرتعد بشدة، وضعنا عليه كلّ الأغطية التي كانت معنا لكنه لم يكف من الارتجاف، كنّا نسمع صوت اصطكاك أسنانه، لكن ما عسانا أن نفعله؟ كنّا في حيرة من أمرنا، فبعثنا كلا من ديموفون ومينيلاوس للبحث عن الحطب حتى تظل النار مشتعلة طوال الوقت. ثمّ عادا بسرعة ومعهما جذع شجرة، كنّا طوال الوقت نسخن الماء حتى يتمكّن بروميثيوس من شربه. حاولنا تقديم الأكل له، إلا أنه رفضه، فقلت لمينيلاوس ربما يستحسن طهيه، فشوينا له قطعا من اللحم لكنه رفض تناولها. ازدادت حدّة سعاله، لدرجة أنها أصبحت لا تفسح له مجالا للتنفس. أمضى الليلة وهو يتقلب ويتلوى، ولم يحلّ الصبح حتى فارق الحياة.

لم أصدق ما وقع! بل لم نصدق جميعا ما وقع لنا، أن يفارقنا بروميثيوس بهذا الشكل وفي هذا الوقت، لم يستطع أحد منّا أن يمسك نفسه عن البكاء، كانت الدموع تنهمر من أعيننا بغزارة. لم أفقد فيه صديقا فقط بل فقدت أبا وأخا وعائلة، إنه يمثل بالنسبة لي الأمان، كان وجوده في نظري حاملاً معنى الأمل في إمكانية التغلب على هذه الطبيعة، لأنه يملك كلّ الحيل الممكنة التي تخرجنا من المآزق التي نقع فيها، أما الآن وقد فقدناه، فإنّ المستقبل يبدو أسودا بالنسبة لي، حيث أدركت في تلك اللحظات وتيقنت جيدا أنّ نهايتنا ليست ببعيدة، دخلني إحساس غريب بأنّ رحيلنا نحن أيضاً من هذه الأرض بدأ يقترب كثيرًا !.

قمنا بدفن بروميثيوس، ووزعنا حمولة زلاجته علينا، ثمّ واصلنا مسيرتنا باتجاه المغارة، لقد خيم علينا الصمت طوال الطريق، وكان حديثنا متوقفا على الأماكن التي نحفر فيها الأنفاق للنوم، أو طلب مساعدة لاستخراج الزلاجات المتعثرة داخل الثلوج، لقد مضى على موت بروميثيوس أكثر من ثمانية أيام، ومضى على خروجنا من المغارة أكثر من أربعة أسابيع. تملّكنا الخوف عند اقترابنا من المغارة بعدما لاحت لنا الجبال من بعيد، إذ دخلنا إحساس غريب، لقد أمضينا مدة تفوق المدة التي كانت مبرمجة، فماذا لو انتهت المؤونة في

المغارة؟ إننا سنجد النساء قد متن جميعا. وماذا لو نجدهن في تلك الحالة؟ كيف ستكون حياتنا؟ تملّكنا الخوف والهلع، وأسرعنا الخطى، لكن مخاوفنا تلاشت حينما شاهدنا خيال إحداهن من بعيد.

أخيرًا وصلنا إلى المغارة، كان مستوى الثلوج منخفضا عما تركناه، إلا أنه يظل عاليا نوعاً ما عن مستواه المعهود، شاهدتنا هيلينا من بعيد وبدأت تصرخ وتنادي صديقاتها، حيث خرجن بسرعة إلى باب المغارة ملوحات بأيديهن، ولمّا وصلنا إلى أسفل المغارة لاحظنّا علامات الخوف والحيرة بادية على وجوههن، لقد علمن بنقص شخصين، وفجأة صرخت أنتيجوني قائلة: أين هايمون؟ أين تركتم هايمون؟ أين أنت يا هايمون؟ لم نجد ما نقوله لها حيث أحاطتها كلّ من داناي وأرتيميس ليخففن عنها، نظرت إلى فينوس ولاحظت الدموع تنهمر من عينها. يا للمسكينة حتى في تلك اللحظات استطاعت أن تمسك نفسها، حيث اتكأت على الصخرة المحاذية لباب المغارة ماسكة رأسها بين يديها، فأشرت إلى هستيا وسيليني ففهمتا على التو وذهبتا إليها، كان الموقف مأساويا حقا. قامت النساء بمساعدتنا في إدخال المؤونة إلى القاعة المخصصة لها، ثمّ جلسنا جميعا في القاعة الكبيرة قرب النار المشتعلة، حيث غيّرنا ملابسنا، وتناولنا الماء الساخن وبعضا من الطعام، بينما تكفلت كلّ من داناي وهستيا بوضع الجليد على المؤونة الجديدة. كانت الأسئلة تنهمر علينا من كلّ صوب: كيف كانت الطريق؟ أين وجدتم المؤونة؟ كيف مات بروميثيوس وهايمون؟ وغيرها من الأسئلة المتعلقة برحلتنا، فكان رفاقي يردون على استفساراتهن واصفين المخاطر التي اعترضتنا وفجأة قلت باندهاش: أنا لا أرى ستيروب بينكن فأين هي؟ فطأطأت النساء رؤوسهن، فعلمت بموتها! مسكينة ستيروب! كانت لا تخاف من أيّ شيء، وكثيرًا ما شاركتنا في رحلاتنا. كنت في البداية أرفض مرافقتها لنا قائلا لها: إنني أتركك هنا حتى تدافعي عن المغارة وتحمي زميلاتك، لكنها عرفت كيف تقنعني بضرورة المجيء معنا وجدوى مساعدتها لنا في العمل. كانت تجمع كلّ الصفات التي أحبها، فهي من جهة شجاعة وقوية، ومن جهة أخرى جميلة ورقيقة وفوق ذلك كانت شديدة الحياء. لقد استطاعت أن تجمع بين

المتناقضات، فما أروعها! حاولت أن أستعيد آخر صورة لها في مخيلتي حتى قطع أورفيوس تفكيري قائلا: المسكينة لقد أرادت أن تصاحبنا في هذه الرحلة، أتتذكرون؟ كانت تعلم بخطورتها فأرادت مساعدتنا، هل تتذكر يا ديموفون؟ فقال ديموفون بأسف: نعم أتذكر ذلك جيدا كانت عازمة على الذهاب معنا، فقلت بألم: أردنا أن نحميها من مخاطر الطريق فإذا بالموت تأخذها هنا! نزلت بعض القطرات من عيني، لم أرد أن أظهر حزني أمام الجميع حتى لا أوقف مظاهر فرح الآخرين بعودتنا وأردت تغيير الموضوع حيث عادت إلى ذهني صورة الشخص الذي رأيناه ونحن نتقدم إلى المغارة، فقلت سائلا: من التي كانت خارج المغارة قبل وصولنا؟ فنظرت النساء إلى بعضهن البعض، ثمّ قلن في دهشة: كنّا جميعا داخل المغارة، لماذا هذا السؤال؟ لم أرد عليهن، لكنني أحسست بأنّ الخطر قد بدأ يهددنا من جديد.

***

بدأت تخامرني الشكوك منذ رؤيتي لذلك الخيال، خاصة بعد تأكدي من كونه ليس من قبيلتنا، وبما أنه لا توجد إلا قبيلتان على وجه الأرض، فمن المؤكد أنه شخص من القبيلة الأخرى، كان إذن يراقبنا، أو كان يراقب المغارة، المهم أنه يراقب قبيلتنا، الأمر الذي سيؤدي لا محالة إلى الجزم بأنهم يريدون مهاجمتنا، أخيرًا اتخذوا قرار مهاجمتنا، لكن لماذا؟ لقد كدت أنسى وجودهم أصلا، ففي الأشهر التي قضيناها داخل المغارة، وخلال الرحلة التي قمنا بها كلها، لم أفكر فيهم أصلا، صحيح أنني كنت أفكر أحيانا في أفروديت، إلا أنه قد مضى وقت طويل لم تزر فيه خاطري، والآن بدأت أفكر في مصير أفراد تلك القبيلة، كيف أمضوا ذلك الفصل العصيب يا ترى؟ وهل تمكّنوا من العثور على المؤونة؟ إنها حتمًا السبب في مخاطرتهم ورغبتهم في مهاجمتنا، ربما كانوا جياعا فأرادوا أخذ المؤونة، وهم بذلك يراقبوننا لذلك السبب. طلبت من ديموفون صعود القمة والبقاء فيها مختفيا لمراقبة المحيط العام، وفي المساء جاء يخبرني أنّ ذلك الشخص قد عاد من جديد وظل طوال النهار يراقب باب المغارة من بعيد، فكررت بعثه في اليوم التالي واليوم الموالي له، فكانت النتيجة نفسها، إننا مراقبون !. اتخذت قرارا بعدم مغادرة المغارة، أو على الأقل عدم الابتعاد عنها، كنت أبعث فردين من قبيلتي لجلب الحطب من مكان كنّا قد خبأناه فيه، وهو غير بعيد عنا. ترى متى سيهاجموننا؟ الأمر متوقف بمقدار المؤونة التي تتواجد عندهم، إنهم يعلمون أننا نملك عددا كبيرا من الحيوانات، ويعلمون حتمًا عددنا بدقة، بينما نحن قد تجاهلناهم طويلا، لدرجة أننا لا نعلم حتى إن كانت أفروديت لا تزال حكيمة عليهم أم لا!. لقد قمنا بخطأ تكتيكي هام، إذ ما كان علينا أن ننفصل عنهم بهذا الشكل، فعلى الأقل نكون على علم ببعض التفاصيل التي تخصهم. ثمّ فكرت في بعث أحد منّا لمراقبتهم، إلا أن ذلك يمكن أن يعود علينا بالضرر، فماذا لو اكتشف أمره وقتل؟ إنّ عددنا ضئيل جدا، فبإمكانهم القضاء علينا بسرعة، لقد وقعنا في مأزق حقيقي، فماذا كنت ستفعل يا بروميثيوس لو كنت موجودا؟ يستحسن عليّ

أن أضع في ذهني بأنّ أفروديت هي الحكيمة، وأنّ تاناتوس ما يزال حيًّا، فإن كنت في مكانها ورأيت المؤونة قد أوشكت على الانتهاء، بينما القبيلة الأخرى تتوفر على قدر كبير منها، ولا إمكانية أمامي للعثور عليها في الطبيعة - على الأقل في الوقت الحالي- يبقى الحل الوحيد عندي هو استخلاصها من القبيلة الأخرى، هذا ما ستفعله حتمًا. جمعت أفراد القبيلة وأخبرتهم بالأمر، قلت لهم بأنّ الأمر مؤكد، فهم سيهاجموننا، لذلك يجب أن نفكر في الطريقة المثلى التي سندافع بها عن أنفسنا وعن مؤونتنا، وطلبت منهم أن يقدّموا لي آراءهم، فقال بوسيدون بثقة: يستحسن أن نبقى في المغارة، إذ لديها فتحة واحدة نستطيع الدفاع عنها، ويجب فوق ذلك كله أن ننظم أنفسنا لحراستها حتى لا نجدهم فجأة وسط هذه القاعة، لكن مينيلاوس قاطعه قائلا: إنّ أحسن خطة للدفاع هي الهجوم، هكذا علّمنا أجدادنا وهكذا يجب أن نتصرف، يستحسن أن نهاجم مغارتهم ونقضي عليهم جميعا إنهم جياع، وبالتالي هم الآن أشبه بالحيوانات المسعورة التي حكيت لنا عنها، إنّ عددهم حتمًا قليل، وعدم مهاجمتهم لنا إلى غاية اللحظة دليل على أنهم خائفون من قوتنا. ثمّ سكت، نظرت إلى ديموفون فوجدته غارقا في تفكيره، فقلت له: وأنت يا ديموفون ما رأيك؟ أجابني بصوت هادئ ورزين قائلا: أنا أوافق رأي مينيلاوس، يستحسن أن نهاجمهم قبل أن يهاجموننا، أتتذكرون كيف تمكّننا منهم في المعركة الأخيرة؟ لكن أورفيوس قاطعه قائلا: إنّ الظروف مختلفة الآن، أظنّ أنه يستحسن البقاء في المغارة لصدّ أيّ هجوم، ثمّ سكت. فخاطبت النساء قائلا: ما رأيكن؟ كانت أولى المتحدثات فينوس، حيث قالت بصوتها الرقيق: إننا نملك الكثير من المؤونة، وبما أننا نرى الطقس قد تحسّن الآن، فسوف يؤدي ذلك إلى تناقص مستوى الثلوج المتراكمة الأمر الذي سيسمح لنا بالبحث عن المؤونة في الأماكن القريبة، لذلك فإنني أرى بأن نبعث أحدا منّا يعرض على القبيلة جانبا من المؤونة التي تسمح لهم بالبقاء أحياء حتى يتمكّنوا مستقبلا من البحث عنها كما كانوا يفعلون. فقاطعها مينيلاوس حانقا: أتريدين أن نستسلم لهم؟ أنسيت بسرعة بروميثيوس الذي وهب حياته من أجلنا ومن أجل هذه المؤونة؟ أنسيت

هايمون؟ هذا أمر لن أقبله على الإطلاق. فردّت عليه فينوس وقد تغيّر لون بشرتها واختفت من عينيها الزرقاوين تلك النظرة العسلية الوديعة، حيث ارتفع حاجبيها الدقيقين إلى الأعلى وقذفته بنظرة ثاقبة قائلة له بغضب: من الذي تحدث عن الاستسلام؟ هل نحن في حرب؟ وهل أنت متأكد من أنّ بروميثيوس سيرفض رأيي؟ اسمع يا مينيلاوس، أنا أعرف بروميثيوس أكثر منك فقد كان رفيقي، وكنت أحبه وسأظل أحبه إلى غاية مغادرتي هذا العالم، لذلك لا أنتظر منك أن تذكّرني به.

كانت المرة الأولى التي أرى فيها فينوس غاضبة بهذا الشكل، فمن عادتها أن تمسك أعصابها مهما كانت الأوضاع. تدخلت محاولا تهدئة الأمور قائلا: إننا لا نريد أن نثير صراعا بيننا، دعونا نفكر بتأني، لقد عرضت يا فينوس رأيك فشكرا جزيلا لك، من لديه رأي آخر؟ نهضت فيليس من مكانها وقالت: أنا لست مع رأي رفيقي، فالأفضل لنا أن نتحصّن في المغارة لأنّ المؤونة موجودة والحطب متوفر، بالإضافة إلى أنهم لا يستطيعون محاصرتنا طويلا، فلا توجد مغارات هنا، وأنتم تعلمون كيف تصبح برودة الطقس قاتلة في الليل، ثمّ سكتت وجلست مجددا، فنظرت هيلينا إليّ وقالت وعلامات الغضب بادية على وجهها: أما أنا فمع رأي رفيقي، يجب أن نهاجمهم وسنشارككم في المعركة، أنا لا أريد أن أبقى دائمًا خائفة من أن تقتلوا عندما تخرجون، يستحسن القضاء عليهم لنرتاح نهائيا، لكن سيليني قاطعتها صارخة: إنّ هذا الرأي خطير، لقد خرجنا نهائيا عن صلب الموضوع، هل تريدين أن نعود إلى العصور التي تحكي عنها الكتب، أن نقتل الغير لأنهم لا يعجبوننا أو لأنهم يزعجوننا؟ هل أنت موافق يا مينيلاوس على ما تقوله رفيقتك؟ فقاطعتها إيوس لتتحدث بدورها حيث قالت وهي حانقة إلى أقصى الدرجات، إذ لمحت يديها ترتجفان ووجهها قد أصبح شاحبا، فقد اختفت لديها هي الأخرى كلّ ملامح الهدوء المعهودة عندها: معك الحق يا سيليني، فوجود مثل هذه الأفكار في قبيلتنا أمر غريب فعلا، نحن نحاول الدفاع عن أنفسنا ولا نرغب في تدمير الغير، من المفروض أن نكون القدوة، ليس للأجيال المقبلة لأنها لن تكون بل لأنفسنا، إنّ عددنا لن

يتجاوز الثلاثين على أكبر تقدير، فهل سنستمر في المسار نفسه الذي سلكه أجدادنا، ألن تتوقف هذه الدماء؟ ألن نعيش الأيام المتبقية لنا في أمن وهناء؟ ثمّ جلست على الأرض ماسكة رأسها بين يديها وهي تبكي، تقدّمت منها كلّ من فينوس وسيليني لتهدئتها، أما أنا فواصلت بحثي عن الآراء حيث قلت: من يرغب في الحديث؟ فقالت أرتيميس: رأيي هو كالتالي يستحسن لنا القبض على ذلك الجاسوس، وجرّه إلى البوح بكل ما يعرفه من خطط، هكذا نكون على دراية بكل ما تنوي القبيلة الأخرى فعله، وسنتخذ الإجراءات اللازمة تبعا للمعلومات التي سيدلينا بها، ثمّ سكتت. ساد الصمت برهة من الزمن لكنني قطعته قائلا: من لديه رأي آخر؟ أنت يا هستيا ما رأيك؟ فقالت وهي تنظر إليّ: أنا مع ما قالته فينوس، فأنا لا أقبل أن يموت أيّ شخص من الجوع ولو كان عدوا لي، ثمّ اتجهت إلى داناي بسؤالي: وأنت يا داناي ماذا يجب أن نفعله؟ فردت قائلة بصوتها الهادئ: المؤونة موجودة وبكثرة، فيجب أن نعرض جزءا منها عليهم، لكن مينيلاوس قاطعها صارخا: ما بكم، ألا ترون أنكم تهذون؟ كم من مرة عرضنا عليهم أن نوحّد القبيلتين من جديد إلا أنهم رفضوا، لِمَ لم يتقدموا إلينا بطلب السماح؟ لماذا يبعثون الجواسيس عوض بعث رسول يطلب مساعدة؟ ألا تفكرون في هذه الأمور؟ هل نسيتم أفراد قبيلتنا الذين قتلوا غدرا من طرفهم؟ فقاطعته قائلا برقة: من فضلك يا مينيلاوس تمالك أعصابك فنحن نعرف رأيك، بقيت على ما أظنّ أنتيجوني فما رأيك؟ إلا أنها لم تردّ عليّ، فأشارت لي فينوس بعدم الضغط عليها، ففهمت أنها ما تزال تحت وقع صدمة فقدانها لهايمون، ثمّ تذكرت رودوب الجالسة بجانب أورفيوس، فقلت لها مبتسما: وأنت يا رودوب ما قولك في هذه المسألة؟ فردّت وهي لم ترفع عينها عن الأرض: رأيي مماثل لرأي رفيقي، ثمّ سكتت. لاحظت الابتسامة مرتسمة على بعض الشفاه، أردت أن أحسم الأمر فقلت: حسنا لدينا ثلاثة آراء إما مهاجمتهم أو البقاء داخل المغارة للدفاع أو تقديم المساعدة بالنسبة للرأي الأول أرى وجود العديد من المعارضين، لذلك يجب ألا تغضب يا مينيلاوس، فنحن نعلم مقدار حبك لنا، لكن الأغلبية ترفض أسلوب القوة إلا عند الضرورة القصوى،

الآن فيما يخص بتقديم المساعدة، فأظنّ هنا أنّ مينيلاوس على حق، إذ كان بإمكانهم أن يرسلوا إلينا شخصا لطلب المساعدة فهم يعرفوننا جيدا، ويعرفون بأننا لن نرفض مساعدتهم، لذلك أرى أنه لا جدوى من الذهاب إليهم، لأنهم هم الذين يحتاجون إلينا ولسنا نحن، أما بخصوص فكرة التحصّن داخل المغارة، فأنا أيضاً أظنّها أحسن وسيلة، فيها نستطيع أن نضمن سلامتنا، وإذا ما هاجمونا، فإننا سنظهر لهم أننا مازلنا الأقوياء.

فكّرنا في كيفية الدفاع عن المغارة وتوصلنا إلى ضرورة وضع أكوام من الحجارة بالقرب من الفتحة الكبيرة والفتحة الصغيرة، والتناوب على مراقبة الطرق المؤدية إلينا حتى لا يفاجئونا، ثمّ وضعنا جميع الأسلحة في النفق المؤدي إلى باب المغارة، كما عرضت علينا فينوس فكرة إزالة الثلوج والصخور من أمام باب المغارة وصنع سلم نصعد به إلى المغارة ولاقت فكرتها استحسانا عند الجميع. نظمنا في تلك الأيام دروسا في تقنيات الحرب للنساء، لقد أبدت كلا من فينوس، أرتيميس وأمفتريت مهارة كبيرة في استعمال السيف، أما أنتيجوني فقد رفضت المشاركة إذ ظلّت منعزلة بنفسها في أحد أطراف القاعة الكبيرة، لقد تغيرت صورتها كثيرًا، كانت من قبل تسحر الناظر بعينها الخضراوين وبشرتها البيضاء المحمرة المليئة بالنقاط السوداء والتي زادتها جمالا، إلى جانب أنفها الصغير المائل إلى الأعلى والمتناسب مع شفتيها الدقيقتين، وشعرها الأصهب الذي تتدلى خصلاته على وجهها، أما الآن فأنا لا أرى أمامي سوى وجه شاحب وعينين غائرتين، وشعر أشعث، لقد اختفت ابتسامتها ولم يتبق على وجهها سوى علامات الذهول والحيرة.

***

مرّ على عودتنا أكثر من شهرين، وفي الأسابيع الثلاثة الأولى كنّا ننتظر مهاجمتهم لنا، إلا أنّ ذلك لم يحدث، فمرّ الأسبوع الرابع، فالخامس ثمّ السادس. لم نلاحظ لهم أثرا، كان في الأول أمرا متعبا، حيث لم نكن نخرج على الإطلاق من المغارة، ثمّ شيئاً فشيئاً بدأنا نعدو ونمرح على الثلج كالأطفال خصوصا في الأيام التي ترتفع فيها درجة الحرارة، وكنا في الليل نحيي سهراتنا على وقع قصص ألف ليلة وليلة حيث تذكر أورفيوس قصة روتها لنا فينوس من قبل، فطلب منها أن تحكي لنا المزيد، وساند فكرته مينيلاوس حيث جلس أمامها على ركبتيه قائلا لها وقد أطبق يديه أمام وجهه: أرجوك يا مولاتي هل من قصة؟ انفجر الجميع ضحكا بما فهم فينوس التي كانت غاضبة عليه أخذت تضحك بدورها، كانت تحفظ تلك القصص عن ظهر القلب، فلم تكن تعود إلى الكتاب بل كانت ترويها لنا من ذاكرتها وبطريقتها الخاصة، كنّا نشكل دائرة حول الموقد وتتخذ هي مكانا خاصا في الدائرة وتبدأ في سرد حكايات هارون الرشيد والسندباد البحري وغيرها من القصص، يالها من روعة! كنّا نغلق أعيننا ونتخيل أنفسنا نطير على البساط السحري أو على الحصان الطائر، وأحيانا أخرى نرى أنفسنا تحت قبضة الجني، أو تحت سلطان سحر معيّن ، كانت قصصا جميلة حقا، وكان كلّ واحد منّا يتمنى أن يعيش في القصور التي كان يعيش فيها الملوك في بغداد أو البصرة وينعم بالطعام والأسفار. في الأول لم نفهم معاني الجني والسحر وغيرها من المصطلحات الغريبة عن مجتمعنا، لكن، لمّا أدركنا مدلولاتها أخذتنا الحيرة، إذ لم نصل إلى الجزم فيما إذا كان هؤلاء الناس يعلمون بعدم وجود تلك الأشياء ويقومون فقط بالتظاهر بتصديقهم لها أم أنهم فعلا كانوا يؤمنون بها، وهل كان لأجدادهم التأثير في طبيعة هذا الإيمان؟ لأن جيلنا لم ينشأ أبدًا تحت كنف تلك المعتقدات ممّا جعلنا بعيدين عن كلّ ما له صلة بالسحر أو الجن، فالأمور الغريبة لم تحدث أمام أعيننا على الإطلاق، ولم نسمع أبدًا شخصا ما يقول بأنه حدث له شيء غريب، كانت كلّ الأشياء التي تقع في عصرنا خاضعة لتفسير

منطقي، ويظهر أنه في القديم حدثت أشياء غير منطقية، لكنني متأكد من أنها لم تكن أبدًا حقيقة، أتذكر حديثي في هذا الموضوع مع فينوس عندما سألتها عن السحر والجن، فردّت عليّ قائلة: في اعتقادي أنّ الأمور بدأت مع بعض الحيل، لأنه من السهل جدا خداع حواس الإنسان، وأضفت بدوري قائلا في السياق نفسه: من الممكن أيضاً أن تكون بدايتها كذبة يطلقها شخص ثمّ تنتشر وتأخذ بعدا حقيقيا، فيصبح السامع لها مؤمنا بحدوثها، وأيّدت فينوس الرأي قائلة بوجود عدة تفسيرات منطقية، لأننا نرفض إمكانية حدوث المعجزات في حقبة من الزمن واختفائها في حقب أخرى، لكن ما أجمل العيش في ظل الأساطير! فعلى الرغم من غرابتها إلا أنها تسمح للعقل بأن يسبح بعيدا في أجوائها الفسيحة، أظنّ أن تلك القصص قد كتبت خصيصا لنا نحن المسجونون في قفص البرد والثلوج، لأن الأجيال القديمة كان بإمكانها تحقيق جزء من تلك الظروف بينما نحن...

كانت إذن أيامنا تسير بتلك الوتيرة إلى غاية نهاية الأسبوع السابع، كنّا كعادتنا خارج المغارة نروّح عن أنفسنا ولم يبق بها سوى أنتيجوني المسكينة التي لا تزال حزينة على رفيقها، وبوسيدون الذي جاء دوره في الحراسة، وكان كلّ شيء عاديا، فالبعض يتقاذف بكريات الثلج والبعض الآخر يجري سباقا، وآخرون ينحتون حيوانات من جليد إلى أن سمعنا صراخ بوسيدون، كان ذلك علامة على هجوم القبيلة الأخرى، وفي لمح البصر كنّا جميعا داخل المغارة رافعين وراءنا السّلم. لم يصل جنودهم بعد، نظر بوسيدون بالمنظار وقال مرتبكا: إنني أراهم جيدا، فقلت له حائرا: كم عددهم؟ فقال: انتظر، وأخذ يعدّهم ثمّ قال: ستة عشر شخصا، فقلت محذرا: إنّ عددهم كبير، ليأخذ كلّ واحد منّا مكانه. توزعنا إلى فريقين بين الفتحة والباب، حيث بقي بوسيدون مع مينيلاوس أمام الفتحة وتحته توجد أمفتريت وهيلينا وسيليني، بينما كنت أنا وأورفيوس وديموفون بمحاذاة الباب وكانت وراءنا باقي النساء إلا أنتيجوني التي ظلّت في القاعة الكبيرة. أمرتهم بالانتظار إلى غاية اقترابهم وابتدائهم في الصعود بعدها فقط نقوم برمي الحجارة عليهم، كنت أودّ إصابتهم بالجروح حتى إذا ما

تمكّنوا من الصعود إلى الباب سيكونون قد فقدوا قواهم وبالتالي لن يستطيعوا هزيمتنا، وهذا ما حدث فعلا إذ وبمجرد شروعهم تسلّق الجبل ابتدأت الحجارة تنهال عليهم من كلّ الاتجاهات، كان يكفي لنا مدّ أيدينا إلى الوراء حتى تصبح محمّلة بالحجارة التي نقوم بقذفها. رافقت سرعة النساء في تقديمهن الحجارة لنا مع دقتنا في التصويب، فكنا نصيبهم في أغلب الأوقات لدرجة أنهم لم يتمكّنوا حتى من الوصول إلى أسفل باب المغارة. أبصرت أفروديت وهي تعطهم إشارة الانسحاب. كانت فعلا أفروديت! لقد تعرّفت على ملامح وجهها على الرغم من بعدها عنّي إنها لم تتغير، بقيت جميلة جدا، فناديتها: أفروديت توقفي، لديّ عرض لك، فرأيتها تتوقف وتصغي إليّ، فتابعت حديثي قائلا: إننا نعرف أنكم في حاجة إلى المساعدة ونحن لن نرفض لكم ذلك، كان يكفيكم أن تطلبوها منا، لدينا كمية لا بأس بها من المؤونة، إن أردتم، فسنقدم لكم جزءا منها، لكنها قاطعتني قائلة في شيء من الضيق: نحن لا نطلب صدقة، فقلت لها مترجيا: لا تعتبريها صدقة بل اعتبريها هدية منّا لكم، فقالت وكأنها واثقة من نفسها: نحن نرفض الهدايا، قل لنا فقط أين وجدتم تلك الحيوانات، وهل من إمكانية للعثور على مثلها؟ نظرت إلى أصدقائي وقلت لهم: ما رأيكم؟ هل سأقول لهم عن المكان أم لا؟ فقال مينيلاوس بإشفاق: نعم أخبرهم عنه، فلربما سيكفوننا شرّهم، فقلت لها هاتفا: نحن موافقون، هل تعرفين السلسلة الجبلية التي تتراءى في الشمال من بعيد، قالت: نعم، فقلت لها: اتجهوا نحو شرقها حتى تصلوا إلى الجبل الأول ثمّ الثاني ولمّا تصلون إلى الثالث، فستجدون به مغارة مقابلة لكم، بداخلها توجد العديد من الحيوانات، لكن الطريق طويل وصعب فاحذروه. ثمّ انصرفت هي وجنودها، فقالت هيلينا حانقة: حتى الشكر لم تقدمه لنا! يا لهم من أنذال.

لقد عظمت قيمة أفروديت في نظري، فيالها من حكيمة، أنا أدرك جيدا أنها على علم باستحالة وصولهم إلى مواقع المؤونة من دون أن نقدم لهم يد المساعدة، فنحن لم نصل إليها إلا بفضل بروميثيوس، لذلك لم تكن تملك سوى هذا الحل، وأنا متأكد أيضاً من أنها كانت مقتنعة قبل مهاجمتنا بعدم

إمكانية تحقيق النصر، بل على العكس كانت تهدف حتمًا إلى شيء آخر، كانت تريد أن تستفسر عن مكان عثورنا على المؤونة لا أكثر، لقد تظاهرت بالهجوم علينا، ربما حتى جنودها لم يعرفوا حقيقة الأمر، بما أنّ أفراد قبيلتي أيضاً كانوا يظنّون أننا حققنا فوزا عظيما، فيا لسخافة الأيام، أنت ذكية جدا يا أفروديت وعظيمة، كان عليك أن تنزعي هذا الكبرياء الذي تتخفّين وراءه، نحن آخر جيل يا أفروديت، إنه من الواجب علينا أن نتمتع بأيامنا، لنترك جانبا هذه العادات والتقاليد التي تحاصرنا وتخنق أنفاسنا، إننا موجودون على الأرض لنتمتع بالحياة عليها لا لأن نكبت أنفاسنا وأفكارنا خوفا من أن تغضب الآخرين، إذا لم نحطم نحن هذه الأغلال فمن سيحطمها؟ نحن آخر جيل، ولا يوجد من سيحاسبنا، إننا لن نؤذي أحدا وهذا هو المهم، لذلك لم يكن من الضروري أن تحبسي نفسك وراء تلك المظاهر الخادعة، أنا أفهمك جيدا يا أفروديت، وأنت أيضاً تفهمينني، أنا متأكد من ذلك، أتمنى فقط أن تنجحي في رحلتك، وألا تفقدي جنودك كما فعلت أنا، أين أنت يا بروميثيوس؟ ثمّ تذكرت عدم مشاركة أنتيجوني في المعركة التي قمنا بها، فذهبت لأطمئن عليها، ووجدتها كعادتها قابعة في إحدى زوايا القاعة ورأسها بين يديها، دنوت منها ثمّ جلست بجانبها وقلت لها هامسا: اسمعيني جيدا يا أنتيجوني، أنا أعلم أنك أكثرنا جميعا تأثرا بفقدان هايمون، لكن انظري إلى فينوس، أتعتقدين أنها تكره بروميثيوس أو أنها غير حزينة عليه لأنها لا تبدو على الحالة نفسها التي تبدين عليها أنت الآن؟ هل تعذيبك لنفسك سيعيد هايمون؟ هل سيرضى هايمون لو كان حيًّا بأن تتعذبي بهذا الشكل؟ سيرفض حتمًا، كنّا جميعا نعرف خطورة المهمة التي أقدمنا عليها، وحتى أنت كنت تعلمين ذلك، فالموت كان بانتظارنا في أية لحظة، وهذه هي الحياة، لقد وصل دوره، ثمّ جاء دور بروميثيوس، فدور ستيروب ولا نعلم أيًّا منّا سيكون الضحية القادمة، لكن هل سننتظر الموت هكذا؟ هل سنستسلم؟ أنت تعلمين بأنك ستموتين، وأنا أعلم بأنني سأموت وكل واحد منّا يعلم بأنه سيفارق يوما هذه الأرض، لذلك سأسدي لك نصيحة آمل أن تعملي بها، فاسمعيني جيدا: عليك أن تنتظري كلّ شيء من هذه

الطبيعة لأننا لا نتحكم فيها بل هي التي تتحكم فينا، فالسعادة عندما تأتي إليك لا يعني أنك تمكّنت من تحقيقها، بل الطبيعة هي التي قبلت أن تمنحها إياك والأشياء المحزنة أيضاً لست المسؤولة عن وقوعها بل الطبيعة هي التي أرادت ذلك، فرفضنا لما تفرضه علينا الطبيعة لا يغير شيئاً ممّا يصيبنا منها، ومادمنا نعيش على هذه الأرض، فإن الطبيعة هي التي تتحكم فينا ويجب أن نقبل بهذا الأمر، يمكن لك أن تقولي بأننا سجناء، وأنا أوافقك هذا الطرح، فنحن فعلا سجيني الطبيعة إذ لا يمكن لنا الانفصال عنها، لكننا بالمقابل نستطيع التغلب عليها عندما نضع نصب أعيننا الأشياء بتناقضاتها، فمثلا أنت كنت تتوقعين عودة هايمون كما كنت تتوقعين في الوقت نفسه عدم عودته، كان من الواجب عليك أن تتقبلي في صميمك الأمر الثاني، لقد فهمت فينوس الأمر، إنها حزينة على بروميثيوس لكنها لا تظهر ذلك، وحبّك لهايمون يعلم به الجميع ويعلم به هايمون نفسه، فليس من الضروري أن تظهري للغير بأنك تحبينه أو أنك تتألمين لفراقه، إذا توصلت إلى الإدراك بأنّ أحاسيسك هي ملكك لوحدك ولا يهم ما يقوله الآخرون عندئذ ستكونين من أسعد الناس لأنك ستحقّقين التلاؤم مع نفسك ومع الطبيعة وبالتالي تقهرينها بلامبالاتك، أتفهمين ما أعنيه؟ ثمّ سكتت أنتظر منها تعليقا أو إشارة فإذا بها تنفجر بكاء وترتمي عليّ، فعانقتها وقلت لها بصوت حنون: نعم بإمكانك البكاء قليلا فلا أحد يستطيع أن يحرمك منه وستخففين عن نفسك جزءا من الألم الذي تحسين به. وانتظرت برهة قليلة من الزمن ثمّ تابعت حديثي قائلا لها برجاء: والآن يا أنتيجوني هلا أريتني ابتسامتك الجميلة؟ فرفعت رأسها ونظرت إليّ ثمّ ارتسمت على ثغرها الجميل ابتسامة صغيرة لكنها كانت رائعة، حيث قالت متأسفة: أعتذر لأنني لم أستطع مشاركتكم المعركة فقواي منهارة. قلت لها مبتسما: لا تفكري في الأمر، إذ لا تزال العديد من المعارك تنتظرنا فهيئي نفسك فقط. ابتسمت لي من جديد، ولمّا هممت بالنهوض شاهدت فينوس أمام باب القاعة أظنّها قد سمعت كلّ ما قلته لأنتيجوني لأنني لمّا مررت بجانبها قالت لي مبتسمة: شكرا .

حتى أنت يافينوس أعرف بأنك تعانين الكثير، أنا أعرف مدى حبك لبروميثيوس، ومدى حبه لك، لقد فقدت رفيقا، أما أنا فقد فقدت فيه عدة رفاق، لقد كان معلمي وأستاذي، كان كلّ شيء في حياتي، ولولاه لما فهمت العالم بهذا الشكل، أنا لا أنكر أنّ الكثير من أفكاري الآن قد استقيتها من الكتب، لكن طريقة تعاملي مع الطبيعة ومع الناس قد علّمني إياها بروميثيوس. عاد إلى ذاكرتي الآن مشهد معه استحال عليّ نسيانه، إذ كنت في أحد الأيام ألعب مع أفروديت لمّا قدم إلينا بروميثيوس وخاطبني قائلا: هل تحب أفروديت؟ وقد كانت بجانبي فلم أجبه، بل أخذت أنظر إلى الأرض لا أعرف كيف أردّ عليه، كنت حائرا من أمره، ثمّ وجّه سؤاله إلى أفروديت قائلا لها: وأنت هل تحبينه؟ لم تجبه بدورها بل طأطأت هي الأخرى رأسها أرضا، فقال لنا مبتسما: اسمعاني جيدا، أحيانا يظنّ الإنسان بأنه يملك متسعا من الوقت للقيام بكل ما يريده، وفي الأخير يجد نفسه قد فاتته عدة أمور، لقد ولدتما في وقت لا يحسد عليه، لذا سأقول لكما شيئاً واحدا يجب أن تتذكرانه جيدا: لا يجب عليكما أن تخجلا من الأمور التي ترون أنها ستسعدكما، قولا فقط: تبًّا للمجتمع، إذ لا يجب أن تعيرا الاهتمام للتعاليق التي يقيمها على تصرفاتكما، أنا لا أتحدث عن الحب فقط بل أتحدث عن كلّ الجوانب الأخرى، إنّ تعاليق المجتمع لن تتوقف إلا عندما يموت هؤلاء الأشخاص، لكنه يولد أشخاص آخرون سيسلكون طريق آبائهم وأجدادهم وهكذا دواليك، أنتم محظوظون – إن سميناه هكذا – لأن المجتمع الذي تحيون فيه هو محدود جدا، فلا تضيّعا الفرص المتاحة لكما، ولا تضيّعا وقتكما، خذا فقط بعين الاعتبار ألا تضرّا الآخرين، أفهمتما؟ لا يجب أبدًا أن تضرّا الآخرين .. ثمّ خاطبني قائلا: وأنت! يجب ألا تتأخر عن إعلان حبك لها حتى تتقدّم إليك وتطلبك كرفيق، أما هي فإنني على علم بأنها تحبك وستطلبك يوما، أليس كذلك يا أفروديت؟ أتذكر جيدا النظرة التي قدّمتْها لبروميثيوس وكأنها تريد أن تشكره على كلامه هذا، وواصل حديثه قائلا: أنت تفهم الأشياء قبل أن أنطق بها، لكنك أحيانا تعتقد بأنك قد ألممت بجميع الأمور وهي لن تنفلت منك، لذلك تذكّر جيدا ما سأقوله

لك: إن حياتنا هذه مهما حاول الإنسان أن يكون فيها يقظا، ومتمكّنا من تسيير شؤونها، إلا أنّ الطبيعة قد تفاجئه بما لا ينتظره، لذلك يجب أن ترخي الحبال نوعاً ما، أتفهم ما أريد قوله؟ وتركني مندهشا. لم أدرك جيدا دلالة عباراته إلا بعد أن بدأت حساباتي تتخذ مجرى مغايرا ابتداء من مقتل والدي إلى قتلي لعمي وابتعادي عن أفروديت، عندئذ أدركت أنّ الطبيعة يمكن لها أن تلعب بنا وفق أهوائها .

لم أتحدث مع أصدقائي عن حقيقة أمر الهجوم بل تركتهم يصرخون ويرقصون تعبيرا عن فرحهم، بل شاركتهم أيضاً نشوة الانتصار حيث أمضينا الليل كله في الأكل والرقص، وحتى أنتيجوني شاركتنا في سهرتنا. كان الجميع متعجبا من التغيّر المفاجئ الذي حدث لها، فكانت بذلك فرحتنا مكتملة. لم نخلد إلى النوم إلا مع قرب أولى شعلات الصبح، ولم نتمكّن من الاستيقاظ إلا بعد مدة طويلة من انتصاف النهار حيث استمرت الضحكات المتبادلة، لكننا فجأة سمعنا صراخا رهيبا، فبحثنا عن مصدره لنجد أخيرًا سيليني بجانب أنتيجوني، نظرت إلينا وهي تقول: لقد ماتت أنتيجوني! في الأول لم أصدق الأمر لأنني لم أنتظره على الإطلاق، فأنا كنت أتوقع أنها قد تمكّنت أخيرًا من تكسير الطوق الذي فرضه عليها الحزن والأسى، لكن أظنّ أنني تأخرت كثيرًا، فاعتبرت نفسي المسؤول عن موتها إذ لم أدرك درجة خطورة وضعها، فبصفتي حكيم القبيلة كان لزاما عليّ أن أهتم بكل فرد منها، وإلا فما جدوى دوري أنا؟ نظرتُ إلى فينوس التي كانت واقفة بجانبي وعلامات الحيرة بادية على وجهي، فربّتت على كتفي وكأنها تعلم ما يحوم في رأسي وقالت بصوت مفعم بالمودّة والحنان: كانت متلائمة مع الطبيعة بوجود هايمون، لكن بوفاته فقدت ذلك التلاؤم، وبالتالي لم تر ضرورة للبقاء فيها، وفضلت الانسحاب. كنت أودّ أن أصرخ قائلا لفينوس: إنني أرفض هذا الخيار، لا يجب أن ينسحب المرء، فالانسحاب عندي عبارة عن خيانة، عبارة عن ضعف، كان من الأجدر أن تقاوم. كنت أودّ أن أقول لها الكثير إلا أنني فضلت السكوت الذي اعتبرته أول انسحاب لي، لقد بدأت مواقفي تتناقض، لذلك يجب عليّ إعادة ترتيبها من جديد .

***

اشتدت البرودة وعادت العواصف الثلجية الهوجاء لتحبسنا مرة أخرى داخل المغارة، كنت محظوظا جدا إذ من جهة لديّ خمس رفيقات لا أملّ منهن أبدًا، فهن يعرفن كيف يقضين على الرتابة، لذلك كنت أتصور نفسي بطلا من أبطال حكايات شهرزاد حيث أرى مغارتنا عبارة عن قصر عظيم، ورفيقاتي هم زوجات وخليلات الخليفة، لا ينقصني فيها شيء، - على الأقل في خيالي – ومن جهة أخرى لديّ كمّ هائل من الكتب التي لم أطلع عليها بعد، كنت آخذ كتابا وأقرأه بشغف بحيث لا تفوتني منه كلمة، فكلها تحمل مغزى أو معنى كنت أحاول الوصول إليه دائمًا. أدركت مثلا أنّ من بين مشاكل عصر صديقي وجود ندرة في المياه ومعاناتهم من الحرارة الشديدة. يا لها من مفارقة عجيبة! لأنّ مشاكلنا الآن هي على العكس تماما. سمعت من قبل الحكايات التي كانت ترويها لي خالتي وأبي وبعضا من العجائز التي حالفهن الحظّ في الحياة مدة طويلة، حيث كنت أسجل في ذاكرتي كلّ ما يروونه لي بتفاصيلها، في البداية كنت أعتقد أنها مجرد أساطير وحكايات لم تكن موجودة في الواقع، لكن إصرار كلّ رواتها على مصداقيتها جعلني أنا الآخر آمن بكل ما يحكونه لي، والآن ساهمت الكتب التي وجدتها في الصندوق في التأكيد على واقعية جزء كبير من تلك الحكايات بالإضافة إلى أنها استكملت الحلقة الناقصة من السلسلة الزمنية التي كانت غامضة نوعاً ما، فمن الحكايات التي كانت تتردّد في قبيلتنا أنّ الإنسان كان في بداياته في وضعيتنا نفسها تقريبا وذلك من حيث اكتسابه للوسائل المادية المساعدة له في عمله على تسخير الطبيعة، لكنه كان أحسن منّا بكثير نظرا للظروف الطبيعية المحيطة به ثمّ توصل بعد ذلك في مرحلة من مراحل حياته إلى التحكم بشكل كليّ في الطبيعة بحيث تمكّن من التغلب عليها مستثمرا جميع الثروات التي قدّمتها له، فظنّ بذلك أنه نجح في ترويضه لها، حيث لم يعلم أنه بتدميره لمخزوناتها كان في الواقع يدمر نفسه، لقد قام بتجارب جعلت الأراضي الخصبة الشاسعة صحاري قاحلة، وأحرق الغابات المنتشرة لدرجة أنه يحكى بأنّ السماء في إحدى المناطق من هذا العالم لم

تظهر لكثافة الدخان الذي تراكم لمدة تفوق عن نصف السنة، ومما يروونه أيضاً تلك التجارب التي قامت بتدمير كلّ أنواع الحياة في جزء كبير من العالم وحتى الحيوانات المسكينة لم تسلم من تلك الكارثة فربما يعود ذلك إلى انتشار بعض المواد التي صنعها بنفسه والتي لم يتمكّن من التحكم فيها، لقد انحسر مجال العيش بمقابل كثرة عدد السكان لدرجة أنّ الأرض لم تستطع أن تمدّهم بالغذاء الكافي، وتتبادر إلى ذهني الآن الحكاية التي رواها لي بروميثيوس بنفسه والتي لم أجد لها أثرا في الكتب التي وضعها صديقي في الصندوق وهي حكاية غريبة لم أصدقها في البداية لكن وبعد اطلاعي على ما يمكن أن يقوم به الإنسان من أجل مصلحته أصبحت مقتنعا فعلا بحقيقة حدوثها، كنت مع أفروديت جالسين في الخارج نتمتع بالحرارة التي كانت الشمس تهبها لنا من حين لآخر، أتذكر جيدا بقاء بروميثيوس مع رجلين من قبيلتنا لحراسة القرية بينما ذهب أبي وبقية الرجال للبحث عن المؤونة أو الحطب لا أتذكر بدقة هذا الأمر، لكن ما ترسّخ في ذهني صورة قدوم بروميثيوس إلينا حيث بادرنا قائلا: لديكما الحق في الاستمتاع بالحياة، لكن آمل ألا تكونا مثل أجدادكما. فقلت له باستغراب: ما بهم أجدادنا؟ فردّ قائلا: إنها حكاية طويلة وأنتما ما تزالان صغيرين سيأتي اليوم الذي سأرويها لكما. لكن وبعد إلحاحنا الشديد استسلم وقال: الخطأ خطئي، لأنني شوقتكما لتاريخ أسود للبشرية إنها حكاية سمعتها من جدي الذي سمعها بدوره من أجداده فهي حكاية قديمة جدا وعجيبة في الوقت نفسه، سأرويها لكما وفق ما رواها لي. كنت في مثل سنكما عندما قال لي: هل تعلم بأننا جميعا محظوظون، لقد كدنا ألا نوجد أصلا بسبب تصرفاتنا؟ فطلبت منه المزيد من الإيضاح، فقال: في البداية كانت الحروب هي وسيلة البشرية في إنقاص عددها، وكان الأقوياء يقضون على القرى الصغيرة والفقيرة لينتقلوا بعدها إلى المدن الفقيرة، ثمّ البلدان المتخلفة، تحت ذرائع عدة كالإرهاب والأمراض التي يحملونها معهم ومختلف الآفات الأخرى، ثمّ توصلوا إلى طريقة لا تخطر على بال أحد، حيث تمكّنوا من صنع مواد تجعل الإنسان عقيما، أتفهمان ما أقصده؟ فقلت له نعم وماذا بعد ذلك؟ فقال:

اتفقت كلّ العائلات الثرية والحاكمة على عدم تناول نوع من البذور المنتشرة آنذاك في مختلف الأرجاء والتي كانت بمثابة الوجبة الأساسية عند عامة الناس، لقد شاركت كلّ الدول الغنية في المشروع وفي سرية تامة. وتمكّنوا من تحقيق غرضهم ففي الوقت الذي كانت أسرهم تزداد وتتسع بدأت تنقرض العائلات الأخرى الواحدة تلو الأخرى، لكن الشيء الذي لم يفكر فيه هؤلاء المتهورون هو أنهم بتلك البذور قد قضوا على جانب كبير من أنواع الحيوانات التي تناولتها، بالإضافة إلى أنّ الطبيعة كانت شبه قاحلة فهي تتطلب العديد من الأيدي لخدمتها، وعندما أدرك أفراد العائلات الفقيرة ما اقتُرف في حقّهم رفضوا خدمة هؤلاء الأشخاص واعتبروهم أعداء فأشعلوا ثورة رهيبة أملا في القضاء عليهم، لقد أرادوا أن ينتقموا لأنفسهم بإبادة أعدائهم وبالتالي إبادة كلّ الجنس البشري. إنّ وجودنا الآن يعتبر شيئاً عظيما على الرغم من أننا ننحدر من سلالة هؤلاء المتهورين الذين أفلت البعض منهم من الموت، وعددنا كما ترى قليل، ونحن نأمل أن يزيد ويعمّر من جديد هذه الأرض من دون أن نتّبع مسارهم، فقد كانت الأجيال المتعاقبة عليها تتفنن في طرق تحطيمها، وما تقوم به الطبيعة الآن ضدنا لا يجب أن ننظر إليه على أنه استهداف شخصي وإنما لأننا فقط ننتمي إلى جيل البشرية.

كنت أحب الاستماع لوالدي ولبروميثيوس لأنهما يحسنان طريقة السرد ووراء كلّ كلمة من كلماتهما معان عدة، إنّ ما قاله لنا بروميثيوس وما سمعته من الآخرين اعتقدت في البداية بأنها مجرد أساطير تعبّر عن حلم الإنسان بالتطور والعظمة لأخذ العبر لا أكثر. لكنه اتضح لي الآن بأنّ كلّ ما وصل مسامعي عن أجدادنا قد حدث فعلا ولقد ساهمت الكتب في تجلية هذه المسألة إذ وجدتُ بأنّ الأجيال السابقة لم تهتم بنا أصلا إذ كيف لها أن تدمر الأرض وتستغل كلّ ثرواتها دون أن تترك لنا جزئا منها؟ كانت موارد الطاقة حسبما اطلعت عليه متنوعة وكثيرة: فمن فحم وحطب وغاز وبترول وشمس ورياح وغيرها، بالإضافة إلى المعادن المختلفة التي كانت تزخر بها الطبيعة، كلّ ذلك قد استغل ولم يترك لنا أيّ شيء، إنه لحظ كبير بالنسبة لنا أن وجدنا

بعض الحطب في هذه الجبال وإلا فإننا سنموت من البرد، لو فكروا قليلاً في الاحتفاظ بجزء منها لكنّا الآن نحيا حياة عادية، لكنهم فضلوا مسح كلّ الثروات من على سطح الأرض، حتى الحيوانات المسكينة لم يتركوا لها ما تمكّنها من البقاء على قيد الحياة إذ عملوا على القضاء عليها، فنحن لم نجد أكثر من خمسة أنواع من الحيوانات المتجمدة تعود حتمًا إلى العصر الذي حرّم فيه الإنسان نفسه من المساس بها، بينما لم نر أثرا لبقية الحيوانات الأخرى، وهذا يعني أنهم قد قضوا عليها جميعا، فأنا لم أشاهد طوال حياتي طائرا واحدا! بينما تواجدت الأسماك في طفولتي على الرغم من ندرتها ثمّ ما لبثت وأن اختفت، كان أبي يرفض اصطيادها قائلا: إننا نمثل الجنسين المتبقيين أحياء على هذه الأرض فلا يجب عليكم أن تؤذوها وإلا فإنكم ستجدونني خصما لكم، نفذنا جميعا أوامره بما فيهم عمي .

ومن الحكايات الأخرى التي سمعتها عن أجدادنا تلك التي رواها لي أبي مرة حيث بدأ حكايته قائلا: تساقطت على الأرض حمم من السماء جعلت البراكين تقذف بدورها حممها، وأخذت البحار ترتج بفعل الزلازل فتحطمت على إثرها كلّ المنشآت التي بناها الإنسان وأصبح علمه لا ينفع أمام تلك التغيّرات المفاجئة، مات الكثير من الأشخاص، واستمرت الغازات التي تنبعث من البراكين والمصاحبة لاهتزازات الأرض مدة طويلة من الزمن هلك فيها الكثير من الناجين من الكوارث الأولى. ثمّ وفي لمح البصر نزلت الحرارة بشكل سريع وحلت محل العواصف الرملية والأتربة الأمطار والبرد والعواصف الثلجية، لم يفهم الإنسان شيئاً ممّا يحدث للطبيعة، ولمّا حلّ الصفاء شاهد الناس منظرا مريعا: إذ اختفى القمر وبدا قرص الشمس صغير جدا! وبالتالي أخذت الشمس تفقد قوتها، فالبرد الشديد الذي تحسّون به والذي يتزايد مع الوقت مصدره اقتراب هذه الشعلة من الفناء، لقد كان قرص الشمس عندما كنت صغيرا أكبر قليلا من الحجم الذي عليه الآن، وكانت درجات الحرارة أحسن من الوضع الذي هو عليه، وللأسف فإنّ الطقس لن يتحسن بل سيزداد سوءا، أنا لا أريد أن أخيفك بل أريد أن تعلم الحقيقة كما هي، من الممكن لجيلك أن يحيا حياة

عادية حتى تصبحوا شيوخا فالشمس لن تنتهي بهذه السرعة، لكنكم يجب أن تنتظروا المزيد من الانخفاض في درجات الحرارة وعليكم تحمّل البرودة الشديدة، إنّ أجسامكم متعودة عليها وهذا شيء رائع، فهي لن تؤثر فيكم كثيرًا عكس الأجيال التي عايشت التغيّرات السريعة للحرارة والتي قضت على الكثير منهم.

لم يكن أبي يريد تخويفي، لأنه يعلم بأننا لن نستمر طويلا على هذه الأرض، فالبرودة أصبحت شديدة والعواصف الثلجية لم تتوقف على الرغم من انتهاء فصلها، بل ظلّت مستمرة على مرور الأيام، كنت أودّ سماع المزيد حيث تحدثت مع بروميثيوس في شأن الشمس ومن بين الإضافات التي قدمها لي قوله أنّ عدد سكان الأرض قد أصبح قليلاً جدا، فسكان شمال الكرة الأرضية ماتوا جميعا بسبب التغيّر المفاجئ للطقس، والمصير نفسه حلّ بسكان الجنوب، وسكان المرتفعات، وحاول العديد أن يصل إلى منطقتنا بصفتها الوحيدة الصالحة للعيش، بينما حاصرت المياه المتجمدة المناطق الأخرى ولم يتبق منها شيء، كان يفصلنا عن القارات بحار إلا أنها الآن قد تجمدت، واتصلت مع بعضها البعض، لذلك فإننا نمثل حتمًا آخر سكان الكرة الأرضية .

الآن وبعد اطلاعي على الكتب، فهمت بالتدقيق كلّ ما قاله لي أبي وبروميثيوس، لم يكن الإنسان هو المتسبب الوحيد في معاناتنا، فهو لم يدمر الطبيعة وإن كان قد شارك في تأزيم وضعنا باستغلاله العشوائي لكل الموارد التي منحتها له الأرض، فالشمس هي السبب الرئيسي لمعاناتنا، كنت في البداية أعتقد بأنّ ما قام به الإنسان على وجه الأرض هو الذي أثّر في الشمس التي انفجرت، لكنني الآن أستطيع أن أجزم بأنّ الإنسان لا دخل له فيما حصل، كنت مهتما كثيرًا بعلم الفلك ووضعت تصورات حول التغيّرات التي يمكن أن تكون قد حدثت وراء نقص جاذبية الشمس، وساعدتني فينوس في ذلك. افترضنا أولا أنّ الكواكب البعيدة كأورانوس ونبتون وبلوتو قد خرجت عن مدارها على نحو ما حدث للقمر لأنّ الجاذبية التي كانت تفرضها عليها الشمس

قد زالت، فهي الآن تسبح في هذا الكون، وهو المصير نفسه الذي ينتظرنا إذ بمجرد وصول قوة الجاذبية إلى النسبة التي لا تؤثر فيها على الأرض ستأخذ بدورها استقلالها، ومن الممكن جدا أن ننضم بعد فترة زمنية لا أستطيع تقديرها إلى نظام شمسي آخر أو يمكن لنا أن نصطدم بكواكب أخرى وننفجر فتاتا.

تمكّن الإنسان من اكتساب التكنولوجيا العالية التي تفوق بكثير ما تروي عنه الكتب، فلِمَ لم يغادر كوكب الأرض؟ حيّرني هذا التساؤل، لِمَ لم يذهب الإنسان إلى اكتشاف الأنظمة الشمسية الأخرى؟ جعلت هذا الأمر كموضوع نقاش في إحدى سهراتنا، حيث قلت لهم: بصفتنا آخر جيل على الأرض، فلنفرض أننا سنقيم حوصلة عامة عن مرور الإنسان على سطحها، فما هو الخطأ الذي قام به ليجعل الطبيعة تتغلب عليه؟ فوجودنا نحن الآن في هذا الوضع يمثل فوزا لها لأننا لم نستطع تغيير أيّ شيء! فابتدأ مينيلاوس الحوار قائلا: إنهم حطموا كلّ شيء، لم يهتموا لا بالبيئة ولا بالطبيعة، فجهدهم قد كرّس لتخريب البيئة وأفقد بذلك توازن الطبيعة إذ أنهم لوّثوا كلّ شيء وقضوا على كلّ شيء، ألم تحك لنا عن هذه الأمور في كتبك؟ كانوا على علم بكل الأضرار التي يقومون بها إلا أنهم لم يبالوا بذلك، وكانت الدول المتقدمة أكثر عدوانية على الأرض، لذلك لو كنت أعيش في عصر صديقنا لقمت بتحطيم كلّ المصانع التي أرى أنها تهدد الكيان البيئي، وسأقوم أيضاً بالقضاء على كلّ الرؤساء والمسؤولين الذين لم يبالوا بنا نحن الأجيال التي أتت من بعدهم، فقاطعته قائلا: الرجاء منك الهدوء يا مينيلاوس، أولا أودّ أن أقول لك بأنك تستعمل ألفاظا علمية رائعة، فأنت تستوعب كلّ ما نرويه لك وهذا شيء جيد، لكن يجب أن أذكّرك بشيء: نحن لسنا من أنصار العنف، هل تعتقد أن العنف سيُقْدِم على تغيير الأمور؟ فقالت هيلينا بحدة: طبعا، أليس قتلك لهاديس هو الذي مكّننا من العيش في أمان؟ فقلت مندهشا: معك الحق لكن لا يجب أن نخلط بين الأمور، فقالت فيليس بصوت هادئ: أما أنا فأرفض العنف مهما كان، لقد ارتكب الإنسان خطيئة في حياته وعلينا الآن أن ندفع الثمن، لا

يوجد أمر آخر، فقلت لها مبتسما: إذن أصبحت تؤمنين بالديانات التي كان يؤمن بها أجدادنا؟ الخطيئة والذنب وغيرها من الأمور، فقالت متمتمة: لتفهمها كما تريد، فأنا أرى أننا لا نعيش أصلا مقارنة مع حياة صديقنا، ألست على حق؟ فهتفت كلا من سيليني وإيوس بحماس: معك الحق ثمّ تابعت إيوس الكلام قائلة: إنّ ما تقوله فيليس صحيح، فمنذ أن ولدنا ونحن لا نرى سوى الثلوج والجبال، والمياه، ولا نرى أيّ شيء آخر، أين هو جمال الطبيعة؟ وأضافت سيليني قائلة: هل شاهدتم طائرا في حياتكم؟ هل رأيتم زهرة أو نبتة؟ أتتذكرين يا فينوس الصورة التي كانت تمثل كوكب المريخ، يقال إنّ الحياة فيه غير موجودة، أنا أرى أننا نعيش في مكان يماثله إذ لا فرق بين وجود الصخور فقط، أو طلائها بالثلوج، فقاطعتُها قائلا: لنعد إلى جوهر الموضوع، ما هي الأشياء التي كان على الإنسان أن يغيّرها في حياته بغض النظر عن عملية تحطيمه للطبيعة؟ فقال أورفيوس ضاحكا: كان عليه أن يخلق وسيلة يطير بها إلى الفضاء، فعقّبت على كلامه قائلا: لقد حاول، لكنه فشل! فقاطعني قائلا: ولماذا فشل؟ لأنه كان مهتما بإبادة جنسه والأجناس التي تعيش معه. لكنني قمت بتقديم تصور آخر حيث قلت له: لنفرض أنه قد صنع المركبة أو المراكب التي تخرجه عن النظام الشمسي، من سيكون معه؟ إذا كنتم تؤمنون بمبدأ المساواة وتكافؤ الفرص وغيرها من المبادئ التي ترونها ضرورية، فإن عملية الاختيار ستكون مجحفة في حق الكثيرين، فقاطعتني فيليس قائلة: على الأقل سيستمر الجنس البشري في الوجود، وهنا قالت فينوس غاضبة: أنتم لا تفكرون سوى في الجنس البشري، هل هو الكائن الوحيد الذي يعيش على هذه الأرض؟ والحيوانات التي تعيش معه؟ والنباتات التي تحيط به أليس لها الحق في الحياة أيضاً؟ أم أنّ تميّز الإنسان بالعقل قد جعله أنانيا لا يفكر إلا في نفسه؟ فخيّم الصمت على الجميع، لقد تمكّنت فينوس من توجيه مسار حوارنا إلى بُعد آخر لم يكن يفكر فيه أحد، لقد قلت في السابق بأنها ذكية، وإعجابي بها يزداد يوما بعد يوم. لها الحق في كلّ ما قالته، إذ كان من الواجب أن نتعايش مع بعضنا البعض بما أنهم لا يملكون مكانا آخر يرحلون إليه، فلما

كلّ هذه الأنانية؟ كانت حياة الإنسان كلها تتلخص في حرق وقطع الأشجار وقتل وإبادة الحيوانات، ووصلوا إلى درجة أنهم كانوا يقتلونها للتسلية، فما أغباهم حقا، لو كانوا يصطادونها من أجل القضاء على الجوع لكان الأمر معقولا، ولو وجدت الحيوانات حيّة الآن لقمنا باصطيادها في ظل غياب موارد أخرى، لكن أن يقوموا بذلك من أجل الترفيه عن النفس فهذا هو عين الهمجية، لو كانت الفرص متكافئة بين الحيوان والإنسان لما كان يقدم على ذلك، لكنه بوسائله المتطورة جعل كلّ الحظوظ بجانبه، كانت الحيوانات في طريق الانقراض وحققوا بذلك هدفهم، يا لهم من حمقى. كسّرت الصمت السائد قائلا: أنتم تعلمون بأنّ الوضع الذي نحن عليه الآن سببه الرئيسي هي الشمس، لذلك أرى أنه مهما قام الإنسان بمحاولات فإنه سيأتي الجيل الذي لن يتمكّن من الصمود أمام التغيّرات التي ستحدث، بالإضافة إلى ذلك فإن علمائهم آنذاك كانوا مؤمنين بأن الشمس مازالت ستعيش لمدة خمسة بلايين سنة أخرى مع ازدياد في حجمها الأمر الذي جعل أبحاثهم وتجاربهم تنصب إلى الذهاب إلى الكواكب الأخرى البعيدة نوعاً ما عن الشمس، لكنهم أخطئوا في حساباتهم لأنّ الشمس لم تتمكّن من الاستمرار في الاشتعال إلا لمدة صغيرة. إنّ الخطأ ليس خطأهم، فالعلم لم يصل إلى المنزلة التي تسمح لهم بتوقع كلّ شيء، وكانوا فوق ذلك يؤمنون بأمور بعيدة عن الواقع، وبالتالي يجب أن نفهمهم، فقاطعني مينيلاوس قائلا: لا يجب أن نخفي الحقيقة، كان الإنسان منشغلا بعملية الإبادة وإلا لكان عالما بكل ما يحيط به، نحن نعيش في شبه العدمية، لم نتعلم مثلهم ولم تكن لدينا تكنولوجيتهم إلا أننا نملك قدرا من المعرفة أحسن منهم بكثير، فالتجربة الإنسانية كانت لنا أحسن معلم، لو توفرنا على الإمكانيات نفسها الموجودة عندهم آنذاك لاستطعنا تحسين وضعنا، لكن كما ترون لدينا الصخور والثلوج والحيوانات المتجمدة وعلى الرغم من كل ذلك فقد تكيّفنا معها، فقالت أرتيميس مقاطعة له: حتى وإن وجدت هذه الإمكانيات التي تتحدث عنها، فماذا ستفعل؟ ستعيش فقط أيامك على الأرض لا أكثر ولا أقل، لكنه قاطعها بدوره قائلا بسخرية: على الأقل

سأعيشها دون قلق ودون خوف، فقالت له بصوت يحمل كل معاني الثقة: سيكون القلق موجودا والخوف موجودا، فأنت ستخاف من الأمراض والحوادث وبما أنك على علم بأنّ الموت قادمة لا محالة فستخاف وتقلق من إمكانية فقدان النعم التي تعيش بين أحضانها، أليس كذلك؟ على الأقل نحن الآن ننتظر الموت و لا نخسر من ورائنا شيئاً، فماذا لو كنّا في نعيم! سيجعل حياتنا كربا لأننا سننفصل عنه ونفقده إلى الأبد، لذلك أرى بأنّ جيلنا يعيش حياته تبعا للظروف المحيطة به، وهو الشيء الذي قامت به الأجيال السابقة.

كان كلام أرتيميس عجيبا! لقد قدمت لي تصورا لم يسبق لي وأن فكرت فيه، إنّ مشكلتنا الآن لا تكمن في المدة الزمنية التي نستطيع أن نصمد فيها أمام غضب الطبيعة، بل مشكلتنا مرتبطة ببعد أخطر ألا وهو زوال البشرية على الأرض، لقد قام الإنسان بالقضاء على النباتات والحيوانات لذلك حلّ دوره لينقرض هو الآخر، وهذا هو منطق الأشياء، علينا إذن أن نقتنع بأننا قد وصلنا إلى مرحلة يجب أن نترك فيها الوجود، فهل سنتقبل هذا الأمر؟ قالت إيوس حائرة: لِمَ لم يحفر الإنسان تحت الأرض ليصل إلى .. كيف سميته لنا يا فينوس؟ فردت عليها بابتسام: الماغما، فقالت: نعم الماغما ففيه الحرارة الكافية التي تساعدنا على القضاء على هذا البرد، ألا تحسون بأنه قد ازداد الآن؟ فقامت فينوس الذكية بصوتها الرقيق وابتسامتها الحلوة في تفسير سبب إحجام أجدادنا عن الحفر قائلة : إنّ نسبة الأكسيجين الموجود في الطبيعة قليل جدا بسبب اختفاء أغلب الغابات، فإذا ما أضفنا إليه الغازات التي ستفرزها الأرض فستكون مشكلتنا أعقد بكثير، نحن لا نملك وسيلة لصنعه أتفهمين؟ ونظرت إليّ وكأنها تقول: هل تظنّ أنك الوحيد الذي تعلم بهذه الأمور، أنا أيضاً مثقفة!. حاولت أن أقدم دليلا إضافيا لإيوس حيث قلت لها: المشكلة لا تتمثل فقط في الحرارة، أنت تعلمين أنّ مصادر الغذاء قد أصبحت منعدمة وغير موجودة، فالحيوانات تحتاج إلى النباتات، والنباتات تحتاج إلى الشمس، والشمس شبه غائبة، بمعنى أنّ السلسلة تنقصها أهم حلقة. فقام ديموفون قائلا: مادامت الأمور مفروغ منها فيستحسن أن نفكر في سعادتنا أليس هذا

كلامك؟ هيا غني لنا يا أورفيوس، وسانده الآخرون الرأي، فأنشدنا أغنية جديدة ألفها منذ أيام قليلة فقط، وتتحدث عن جمال الطبيعة في القديم وفق الصور التي شاهدها في الكتب، كانت أغنية رائعة، تعبّر عن فقداننا للكثير من الأشياء. فكّرت في تدوين أغانيه، فهو يملك عبارات رائعة ومؤثرة .

توصلت عن طريق الحوار الذي دار بيننا في تلك السهرة إلى أنّ جميع أفراد قبيلتي واعون بالراهن الذي يعيشون فيه وواعون بالتاريخ الذي مضى، إنهم مثقفون بأتمّ معنى الكلمة وهذا شيء عظيم، آخر جيل على هذه الأرض يخرج منها بالطريقة نفسها التي ابتدأ بها حياته لكن بفارق بسيط، كان مختلفا عن جميع المخلوقات بعقله، وها هو الآن يستعمله بطريقة رائعة. لقد استطعنا بفكرنا أن نبني من جديد العلاقات السليمة والمنطقية، أن نقدم لكل شيء حقه، نحن نعلم بأنّ الإنسان قد ارتكب أخطاء عديدة في حياته لذلك نجد أنه من الرائع لنا أن ندرك على الأقل حجم الأخطاء التي ارتكبوها وأن نعترف بها، وهذا دليل على وعينا. نحن ندرك جيدا قصر الحياة التي تنتظرنا، لكننا لم نقلق ولم نفزع لهذا الأمر، لقد أخذنا الأمور بالجدية واللامبالاة، وهذا عين الصواب. لو كان الإنسان في القديم يفكر بهذه الطريقة لما كانت هناك مدعاة للحروب والمجازر، لكن هل يستطيع أحد منّا أن يغيّر ذلك ؟! الطبيعة منحتنا كلّ شيء والآن تود أن ترتاح بدورها وهذا حقها، لقد تحملتنا طويلا، فنحن بطبعنا لا نؤمن بالأبدية التي خلقتها الأجيال السابقة وهو في نظرنا مجرد وهم، لقد وصلنا إلى مرحلة النهاية، ونحن مؤمنون بذلك، فمشكلة الإنسان هي عدم قبوله للموت، إنه يرفضها ويرفض معها فكرة الفناء محاولا خلق عالم آخر حتى يستطيع أن يطمئن نفسه، وها نحن الآن أمام الأمر الواقع، أمام الموت التي ننتظر قدومها في أية لحظة ونحن متأكدون بأنها غير بعيدة، لكننا لسنا خائفين منها، فلكل بداية نهاية .

***

لم أصدق خبر وفاة هستيا! تركتها في الصباح على مثل عادتها مليئة بالنشاط، استيقظت الأولى قبل رفيقاتها، وقامت بحمل الحطب ووضعه قرب الموقد، كما عبأت القدر بالماء لتسخينه، ثمّ ساعدتها إيوس في وضع قطع الجليد على المؤونة لتبقى جامدة. كانت فرحة ومبتسمة، ظنّنت أنّ ابتسامتها تعود إلى حالة الطقس الجيدة لهذا النهار، إلا أنه كان لسبب آخر، فأرتيميس قد اختارت قضاء الليلة مع بوسيدون، وكنت على علم بذلك إذ أخبرتني من قبل بالأمر وأبديت موافقتي على طلبها من دون أدنى تردد، الشيء الوحيد الذي طلبته منها هو أن تنال موافقة أمفتريت أولا، فردّت عليّ بأنها كانت الأولى التي سألتها في الموضوع، فهستيا إذن كانت سعيدة لهذا السبب، ربما لأنها لم تتوقع من أرتيميس أن تقوم بذلك، أو لأنها رأت بأنّ إعجاب هذه الأخيرة ببوسيدون لن يصل إلا نتيجة، أو كان لأمر آخر، فسيليني شاهدت هستيا مع أمفتريت تتبادلان معا الهمسات والضحكات، لكن المحيّر في الأمر هو أنّ هستيا كانت سعيدة جدا حسب رواية داناي، لم تظهر أيّ شيء ينبأ بما سيحدث لها حيث كانت تقوم بالأعمال التي اعتادت عليها إلى غاية منتصف النهار، وبعده بدأت الأمور تتغير إذ أحسّت في الأول بالدوار، فنصحتها رودوب بالراحة لكنها أحسّت بعد ذلك بألم في ظهرها. اعتقدت النساء في البداية أنه ألم ناتج عن الأعمال التي قامت بها في الصبيحة، وسيزول بمجرد أن ترتاح قليلاً فهي مرهقة، لكن الألم لم يزل بل انتقل الألم إلى صدرها، قامت سيليني بوضع الدهون على المواضع التي تؤلمها لكن ذلك لم ينفع إذ لم يتوقف الألم بل ازداد حدة لدرجة أنها أصبحت لا تستطيع الحركة، فكل أطراف جسمها توجعها، حاولت تحمّل ذلك في البداية حيث كانت تتأنى فقط، لكنها لم تستطع التحمل أكثر، فأصبحت تصرخ وتتلوى من شدة الألم. كان الأمر فضيعا! أحاطتها النساء من كلّ جهة محاولات التخفيف عنها لكن شدة الألم قد ازدادت حتى أغمي عليها. لم تستطع هيبي وسيليني تحمل الموقف حيث أدهشتا بالبكاء، فقامت داناي بإخراجهما من القاعة، ولمّا عادت وجدتها لم تستيقظ بعد من إغمائها، كانت

درجة حرارتها عالية جدا فقامت فينوس بإحضار قطع الجليد من خارج المغارة حيث لفّتها في قطعة قماش ووضعتها على جبينها، لاحظت النساء حركات صدرها وهي تتنفس بحيث لم يكن يسمع في المغارة سوى صوت تنفسها الذي كان سريعا في البداية ثمّ أصبح يهدأ تدريجيا، ظنّت النساء أن ذلك علامة على زوال الحمى إلا أنّ الصوت ما لبث وأن توقف نهائيا، فصرخت أمفتريت معلنة النبأ: لقد ماتت! لقد ماتت !. أحدث موتها في نفسي صدمة أخرى، إذ لم يخطر ببالي أبدًا أن يقع ذلك الشيء، كنت أعرف بأنّ حلول الشتاء القادم سيغيّر حتمًا بعض الأمور في قبيلتي، لكن أن تموت هستيا في هذا الوقت وبتلك الطريقة فهذا ما لم أتمكّن من تصديقه .

كثيرًا ما كنّا نغادر المغارة تاركين النساء لوحدهن، فأنا كنت أدرك بأنّ ستيروب تستطيع حمايتهم بقوتها وذكائها، كما كنت أعلم بأنّ جميع الأمور ستسير بشكل عادي لوجود هستيا، فهي كانت تجيد تنظيم الأمور الداخلية، لكن بعد موت ستيروب منذ أكثر من سنة، ثمّ موت هستيا مساء أمس، قد جعلنا نحسّ جميعا بفقدان شخصين أساسيين. لم تتحمل كلّ من سيليني وفيليس فراق هستيا لهما بهذه الصورة المفاجئة، كانتا متأثرتين إلى حد بعيد، لم أرد أن أتحدث معهما، بل تركت النساء الأخريات يحاولن التخفيف عنهما، بينما كنت منعزلا في الطرف الآخر من القاعة أكتب فيها مذكراتي، والدموع تنزل من عيني، حتى جاءت إليّ فينوس وضمتني إلى صدرها، فأحسست بالحياة تدبّ فيّ من جديد .

***

مرّ على موت هستيا أكثر من ستة أشهر، وهي المدة نفسها التي قضتها أرتيميس مع بوسيدون وأمفتريت، لم أفهم بالتحديد العلاقة التي تربط أرتيميس ببوسيدون لأنني لم أره أبدًا يقبّلها أو يداعبها، لكن من الممكن أن يكون خجولا من قيامه بذلك أمامي، لقد حاولت الحديث معه في هذا الموضوع لأحاول أن أحرّره من ظنّونه وأعبر له عن عدم اهتمامي بأرتيميس، فأنا ما زلت أملك ثلاث رفيقات، لكنه كان يتجنب الخوض في هذا الموضوع، ظلّت علاقتي مع أرتيميس طيبة جدا، فأنا لم أتحدث معها على الإطلاق عن سبب انفصالها عنّي، إيمانا منّي بأنّ لكل واحد تصوره الخاص للسعادة التي يودّ تحقيقها، فإن لم تتوفر مع شخص ما، فمن الأحسن البحث عنها عند شخص آخر، لذلك لم أعلن أبدًا امتعاضي من ذلك التصرف، على الرغم من وجود إحساس داخلي يعبّر عن رفضي لابتعادها عنّي بهذا الشكل. وكأنني أسمع صوتا يقول معنفا إيّاي: كفاك هراء، إنك تحس بالغضب وبالحزن لأنها تخلت عنك، لا تكذب على نفسك! إنها انفصلت عنك، وأنت السبب، لذلك لا تحاول أن توهم الآخرين بأنك سعيد على الرغم من انفصالكما، اذهب إليها وصارحها، ابحث عن السبب، لا تكن خجولا، ألا تتذكر نصيحة بروميثيوس لك؟ قم واذهب إليها وقل لها بصريح العبارة: لماذا اخترت بوسيدون بدلا منيّ؟ ما الذي قمت به حتى تنفصلي عنّي؟. لقد كنت فعلا قلقا وحزينا، لا لتخلّيها عنّي، بل لكوني لم أعرف بعد السبب الذي جعلها تقوم بذلك، إنه تصرف عاد بالنسبة لقبيلتنا، لكن لم يحدث مثله بيننا منذ سنوات عدة، وجاء الأمر وكأنه غير منطقي، على الأقل بالنسبة لي، فالشيء الذي كنت حانقا عليه هو كوني لم أستطع أن أحقق لها السعادة، فاعتبرت نفسي مذنبا، لذلك كنت أتمنى أن تكون كلا من داناي وإيوس وسيليني سعيدات معي. لقد قلت لهن في السابق: إن رأيتن تصرفا غير لائق منيّ، أو إذا شكّلت عائقا أمام تحقيق سعادتكن فلا تخجلن وصارحنني به. وكدت فعلا أن أنسى أمر أرتيميس التي كنت أعاملها كرفيقة صديقي محاولا أن أظهر لها بأنني غير مستاء منها، فمثلها مثل فيليس وأمفتريت وهيلينا ورودوب

أعاملهن بالطريقة نفسها، إلى أن جاء اليوم الذي كنت فيه وحيدا في المغارة بينما كان الجميع يستمتع في الخارج بصفاء السماء المتزامن مع عدم حدّة البرودة، أحسست بوجود شخص داخل القاعة الكبيرة، فاستدرت لأرى من القادم، فوجدت أرتيميس أمامي، مدّت يديها وأمسكت بهما يداي ثمّ ابتسمت وقالت: هل أنت غاضب منيّ؟ فأجبتها بارتباك: كلا، على الإطلاق! فقالت محافظة على ابتسامتها: لماذا إذن طيلة هذا الوقت كله لم تسألني عن سبب انفصالي عنك؟ فقلت لها محرجا: هذا أمر يعنيك أكثر ممّا يعنيني أنا، فأنت حرة في اختيار رفيقك، وكما تعلمين، فإنّ شعاري في الحياة هو تحقيق السعادة في تلاؤم مع الطبيعة فإن كانت سعادتك مع بوسيدون فأنا راض كلّ الرضا ... فقاطعتني حانقة وقد اختفت ابتسامتها: أيها الأحمق أنا أعرفك جيدا! كف عن هذا الكلام وحرّر نفسك! إنني أعلم جيدا، بل أنا متأكدة من أنك منشغل بمعرفة السبب أليس كذلك ؟. لم تترك لي فرصة الردّ عليها بل واصلت كلامها قائلة: إنّ طبعك يحاول أن يلمّ بجميع الأمور، لقد كان من السهل عليك أن تأتي إليّ وتسألني، لكنك لم تفعل، لقد لاحظت حيرتك وقلقك وانتظرت أن تتقدّم، إلا أنك لم تقم بذلك، سأقول لك أمرا اعتبره نصيحة منيّ، فلطالما قدّمت لنا النصائح، وحان الوقت الذي تستمع فيه لنصائح غيرك، أنا أحبك كثيرًا، وأعلم بأنك على دراية بذلك، فلا يجب أبدًا أن تخجل من الإفصاح عما تشعر به، فلا تترك شيئاً بداخلك ينغّص حياتك، ألم تقل أنّ سعادة المرء هي الهدف في هذه الحياة، أعلم أنني سببت لك الكثير من الألم، فأرجوك أن تسامحني، لم أقصد ذلك. ثمّ تنهدت وواصلت حديثها قائلة: هل تتذكر الأيام التي سبقت موت هستيا؟ لقد جاءت إليّ أمفتريت لتقول لي بأنها تشعر بالكآبة والحزن وهي خائفة من أن يؤثر ذلك على بوسيدون، لقد حاول المسكين بكافة الطرق أن يعيد لها البسمة لكنه لم يفلح، لذلك جاءت لتعرض عليّ أن أساعدها، لم أفهم أول الأمر الشيء الذي كانت تقصده حيث قلت لها حائرة: إن كان بوسعي تقديم المساعدة فعلى الرحب والسعد، فردّت عليّ بارتباك: ولكنه طلب غريب، وأظنّ أنه الحل الوحيد لإنقاذنا. توقفت برهة عن الكلام

وكأنها لا تدري كيف تصيغ حديثها ثمّ استطردت قائلة: أن تكوني رفيقته!. لم أصدّق ما قالته لي حيث كنت أظنّ أنها تمزح معي، لكنني سرعان ما أدركت أنها جادة في كلامها، فقلت لها: هذا أمر مستحيل، ألم تفكري في رفيقي؟ فقالت بصوت خفيض: إنّ لديه أربع رفيقات أخريات، فالمسألة لا تعدو أن تكون لشهر على أكثر تقدير، تحدّثي مع رفيقك وأنا متأكدة من أنه لن يمانع، ولمّا تكلّمت معك في الأمر كنت أنتظر أن تسألني عن السبب لكنك لم تفعل، كنت في حقيقة الأمر غاضبة لأنك تخليت عنّي بتلك السهولة، هل تتذكر ضحكات هستيا الأخيرة، لقد كانت بسبب ما روته لها أمفتريت عن الوضع الذي وجدت فيه نفسي. ثمّ جاء موت هستيا، لم أستطع بعدها العودة إليك إذ كنت متيقنة من رفضك لعودتي حيث ستعتبرها مجرد شفقة منيّ، والآن أرى أنه قد حان الوقت لمصارحتك، هذا كل ما في الأمر، ثمّ همّت بالانصراف فأمسكتها بدوري من يديها قائلا: انتظري، لقد أفصحت عما يوجد في قلبك، فماذا ستفعلين الآن؟ فقالت وقد أطرقت عينيها أرضا: أنا لا أطلبك من جديد كرفيق لي بل أمنح لك حرية الاختيار، فأنت رأيت بأنّ كلا من أمفتريت وبوسيدون قد أصبحا يضحكان من جديد ويشاركاننا في كلّ ما نقوم به، لذلك فإنني أظنّ بأنّ مهمتي قد انتهت وإن رأيت أمرا آخر ... فقاطعتها قائلا: هل أخبرت أمفتريت بالأمر؟ فردت قائلة: كلا، ولكنها تعلم بأنه سيأتي اليوم الذي سأنفصل عنهما! ثمّ سألتها وأنا أنظر إلى عينيها: ما رأيك أنت، هل تودين العودة أم تفضلين البقاء مع بوسيدون؟ فقالت حرجة وقد أبعدت عينيها عنّي: الرأي كما قلت هو رأيك، فقلت لها بصوت هادئ يحمل معنى الجدة: سأعيد سؤالي بطريقة أخرى، هل ترين بأنك ستكونين سعيدة عندما تعودين إليّ؟ فتمتمت مبتسمة من دون أن تنظر إليّ: نعم، فقلت لها: بقي الآن أن تستشيري كلا من سيليني وإيوس وداناي، ثمّ استطردتُ قائلا: لكن ألا تخافين من أن يعود الاكتئاب من جديد إلى بوسيدون وأمفتريت؟ فقالت مبتسمة: لا أظنّ ذلك، وما عليها إلا أن تقوم بدورها، فقلت لها: وإذا اكتأبت فيليس أو هيلينا أو ..فقاطعتني قائلة بنبرة حادة: أيها الأحمق لن أتخلى عنك بعد الآن !. أخذت تعانقني وتقبّلني بشغف ثمّ

عادت إلى الخارج وهي تعدو وعلامات السرور بادية على محياها، أما أنا فقد كنت سعيدا للغاية، لأنني تحققت أخيرًا من عدم تسبّبي في تعاسة أيّ شخص، تحدّثت فيما بعد مع بوسيدون قائلا: هل تريد أن تبقى أرتيميس معك؟ فقال لي دهشا: إنها حتمًا تحبك، كنت أظنّ في الأول بأنها لم تكن سعيدة معك، ثمّ لاحظت بعد ذلك بأنها كانت تحاول تقريبي أكثر من أمفتريت، وأؤكد لك بأنني تمكّنت بفضلها من اكتشاف رفيقتي من جديد، إنك محظوظ جدا لأنّ أرتيميس معك، وسأقول لك شيئاً آخر: أنا لم أمارس الحب معها إطلاقا طيلة الأشهر الستة الماضية، فلا أحد منّا اقترب من الآخر، أتفهم ما أعنيه من أنك محظوظ؟ لكن ذلك لا يعني أنني لست محظوظا، فأمفتريت رائعة.

***

عاد البرد من جديد ليعكر الأجواء، حيث لم تهدأ العواصف الثلجية منذ أكثر من شهرين، وأظنّ أنها ستستمر هذه المرة أكثر ممّا اعتدنا عليه. لكننا نملك من المؤونة والحطب ما يكفينا لسنة تقريبا، لذلك لم ننشغل بها، فهمنا الوحيد ألا تهبط درجات الحرارة كثيرًا داخل المغارة إذ وصلت في أحد الأيام إلى -31°. لم تتحمل أجسامنا تلك البرودة الشديدة حيث لازمنا الارتجاف، ثمّ أصابتنا نوبة من البرد أسقطتنا جميعا أرضا إلا فينوس التي لم تمرض، ولولاها لقُضي علينا. أمضينا أسبوعا ونحن نعاني من الحمى، فكانت فينوس تسهر على خدمتنا جميعا، إذ كانت تسخّن لنا الماء وتعد الأكل وتغيّر من الأفرشة الجلدية التي نتغطى بها، إلى جانب تنظيفها للمغارة، وبالإضافة إلى ذلك كله كانت تضع قطع الجليد على رؤوسنا وتحمل لوحدها الكميات اللازمة للمؤونة حتى لا تفسد، المهم أنه بعد تماثلنا للشفاء، قرّرنا جميعا منحها شهرا لتستريح، قالت لها النساء برجاء: الآن جاء دورك لأخذ قسط من الراحة، إذ تحمّلت الكثير ونحن لا نريد أن تفعلي شيئاً إلا الراحة، ويمكن لك أن تقومي بهواياتك المفضلة، اقرئي مثلا الكتب أو استرخي على الأفرشة، دعي أشغال المغارة، فنحن سنتكفل بها، وإن احتجت إلى أيّ شيء فإننا سنلبيه لك حالا، فما عليك إلا أن تأمري، نحن لن ننسى جميلك أبدًا! فردّت عليهم فينوس بابتسامتها المعهودة والخجل بادٍ على وجهها: شكرا لكنّ جميعا لكنني لم أفعل أيّ شيء، إنه واجبي، فأنا أديت الواجب الذي كان من الممكن أن يقوم به أيّ واحد منكم لو كان في موضعي، لذا أرفض معاملتكن الخاصة لي، وسأكون سعيدة لو زاولت الأعمال نفسها التي كانت موكلة لي من قبل. كانت هذه هي إجابة فينوس، إنها عجيبة حقا! كنت أودّ في أعماقي أن أعانقها وأطلب منها أن تكون رفيقتي لكن الخطأ مشترك بيننا، فأنا لم ألمح لها قط عن حبي وإعجابي بها، وهي بدورها لم تطلبني كرفيق لها، في الحقيقة كنت خائفا من أن أجرح عواطفها اتجاهي، إذ من الممكن أن أحطّم بذلك العلاقة المتينة التي تجمعنا مع بعض. كانت تتبادر إلى ذهني مختلف الإجابات التي يمكن أن أسمعها منها، فمثلا من الممكن أن تردّ

على طلبي بقولها: لم يسبق لرجل وأن طلب فتاة في تاريخ قبيلتنا، فماذا يحدث لك؟ أو أن تقول: هل أنت غير مقتنع بعلاقة الصداقة التي تجمع بيننا؟ ويمكن أن يكون ردّها على هذا النحو: هل أنت مغرم بالجنس إلى هذه الدرجة، ألا تكفيك نساؤك الأربع؟ أو أن تقول بغضب: إنك أناني وأحمق تريد أن يكون كلّ شيء جميل ملكا لك، هل تعتقد أنّ منصبك كحكيم للقبيلة يسمح لك بالحصول على كلّ شيء؟ كانت هذه الأفكار كثيرًا ما تشوش ذهني، وددت في حقيقة الأمر منحها جانبا من الحنان والعطف اللذين فقدتهما بموت بروميثيوس الذي أوصاني عليها، وأنا أرى بأنّ أحسن وسيلة لتنفيذ وصيته هي أن تكون رفيقتي، فبذلك أكسر الكثير من الحواجز التي تمنعني من الاقتراب منها، فمثلا كنت أودّ أن أحتضنها بدوري لأعبر لها عن مدى امتناني لكل ما قامت به من أجلنا لكنني لم أفعل ذلك خوفا من أن يفهم على نحو آخر، أنا أعرف أنه لا يجب أن أراعي اهتماما لكلام الآخرين أو تصوراتهم، فهم أحرار في ذلك، ومادامت نيّتي حسنة، فمن الأجدر ألا أهتم بهم، لكن عندما يخص الأمر برفيقاتي اللواتي يمكن أن أجرح شعورهن، فهذا ما لا أقبله، لقد أصبحت مغرما بها إلى درجة الجنون. كنت أمضي الليالي وأنا أفكر فيها، إنها نائمة غير بعيدة عنّي، لكنني لا أستطيع أن أقترب منها، أن أضمها إلى صدري، أن أقبّلها، أن أمارس معها الحب... كنت أعيد كلّ هذه الأفكار إلى البرد الشديد الذي أبى أن يتوقف. إعجابي الشديد بها لم يكن وليد هذه الأيام بل يعود إلى أيام وجودها مع بروميثيوس... بل قبل ذلك بكثير، لكنها الآن وحيدة، فما الذي يمنعني من الاقتراب منها؟.

***

ذهبت في هذه الصبيحة إلى القاعة الصغيرة التي يتواجد بها الصندوق لآخذ كتابا من الكتب الموجودة به، فإذا بي أجدها بالداخل، كنت معتادا في السابق أن نبقى معا هناك ولوحدنا، لأن الأمر كان عاديا بالنسبة لنا، لكن وبعد موت بروميثيوس تغيّر الوضع. عندما شاهدتها تسارعت دقات قلبي، كنت محتارا في أخذ قرار التقدم أو العودة، فكنت أتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف مثل شجرة تتمايل بفعل الرياح، نظرت إليّ ووقع بصرها على بصري، فقلت في نفسي مرتبكا: لقد افتضح أمري ماذا سأفعل يا ترى؟ لكنها تقدمت وقالت مبتسمة: هل قرأت رواية العجوز والبحر لهمنغواي؟ فقلت لها والعرق يتصبّب من جبيني: نعم، فقالت وكأنها لم تلمح شيئاً: أنا أودّ أن أسمع رأيك حولها، فقلت باستغراب: هنا؟ فقالت ضاحكة: كلا سنذهب إلى القاعة الكبيرة فالبرد قاتل هنا، تنفست الصعداء وتوقف الارتجاف الذي تملّكني وبدأت دقات قلبي تأخذ نظامها العادي. جلسنا على الأفرشة أمام النار، ثمّ بادرتها قائلا وأنا أتصنع عدم الاكتراث: ما الأمر الذي تودين أن أحدثك عنه؟ فقالت وقد تغيرت نظرتها، حيث لمست فيها شيئاً آخر يختلف عن نظرتها الوديعة المعتادة: لماذا اختار العجوز كبطل لقصته؟ فقلت حائرا: ربما لأن قوة العجوز هي أقل بكثير من قوت الحوت، فتكافؤ القوى غير موجود، وبالتالي تصبح النتيجة غير متوقعة، وهذا هو الهدف، فقالت متعجبة: لكن ألا ترى أنه حتى وإن جعل بطله شخصا عاديا أو إنسانا قويا، لن تلحق قوته بقوة الحوت؟ أي أنّ التكافؤ الذي تتحدث عنه لن يتحقق ولو بوجود شخص شاب مثلك؟ فقلت مندهشا: هذا صحيح، فما السبب إذن؟ فقالت وقد ازداد بريق عينيها الزرقاوين: لقد فكرت في الأمر، أنا أظنّ أنه يريد أن نشفق على هذا الشخص، تصور مثلا لو كان شابا، هل سيثير الصراع الذي دار بينه وبين الحوت شفقة في نفسك؟ فقلت: كلا لأنه شاب لديه عدة إمكانيات لكسب قوت يومه، وبالتالي فهو غير مضطر لاصطياد ذلك الحوت، فقالت: أصبت، لقد أخذت روايته طابعا تراجيديا بسبب هذه الخصوصية، أتتذكر دون كيشوت لسيرفانتس؟ فقلت

مندهشا: نعم، فقالت: الأمر سيان، إننا نميل دائمًا إلى الجهة التي نرى فيها ضعفا، إنّ عواطفنا لن تخرج إلا في تلك المواقف التي نرى فيها خللا ما، أظنّ أنّ صديقنا باختياره لهذه الروايات أراد أن يبرز شيئاً مهما له علاقة مباشرة بالجوانب النفسية للإنسان، فهذا الأخير بطبعه لا يهتم بالأشياء إلا إذا أثارت فيه إحساسا معينا، فهو لا يعرف قيمة ما يتواجد أمامه إلا إذا افتقده، وحبّه للأشياء ناجم عن خوفه من افتقادها، لكنه إذا تمكّن من الحصول عليها، وعلم بأنها لن تضيع منه فإنه عندئذ لن يهتم بها، إنّ سيرفانتس لم يجعل بطله يصل إلى مبتغاه، وهمنغواي جعله يصل إلى الحوت، لكن في حقيقة الأمر إلى عظام الحوت فقط، بمعنى أنه لو جعلا بطليهما يصلان إلى هدفهما، فإنّ ذلك سيحطم شعورنا اتجاه الشخصيتين، وهذا ما يشعر به الإنسان في الطبيعة، عليه أن يحس بالألم ليعرف معنى الراحة، ويحس بالحزن ليعرف معنى السعادة، إنّ مسألة وجود الأشياء مرتبط بمقدور الإنسان على إدراك أهميتها، وبالتالي عدم التفريط في كلّ ما سيحقق له السعادة، لا يجب أن ينتظر النهاية المأساوية حتى يتواصل الشعور نفسه الذي يكنّه للأشياء التي تفرحه، بل عليه أن يغيّر بعضا من جوانب حياته حتى تكون النهاية سعيدة، لأنه في الحقيقة يدرك تماما قيمة الأشياء التي ستسعده، ويعلم مسبقا بأنها مهمة بالنسبة له، ولن تتغير أبدًا نظرته اتجاهها،أتفهم ما أعنيه؟ ثمّ نظرت إليّ وبدأت تضحك. كنت مندهشا ممّا تقوله حاولت استيعاب كلّ المعاني التي تتحدث عنها لكنني في الحقيقة فقدت الخيط، فقالت والبريق نفسه ثابت في عينيها: لا تهتم، فأنا أتفلسف فقط! فقلت لها متعجبا: ماذا تعنين؟ فقالت ضاحكة: لا شيء، ثمّ قامت ورنين ضحكتها العسلية يدغدغ أذناي. لم أنم طوال هذه الليلة إذ كنت أفكر في مكمون عباراتها، حاولت أن أصل إلى الأشياء التي أرادت قولها لي، فيالي من غبي، كاد رأسي ينفجر من كثرة التفكير، الشيء الذي كنت متأكدا منه هو أنها تعلم بمكنون حبي لها، إذن فهي أرادت أن تعبّر لي عن رأيها حول هذا الموضوع، لكنها حيّرتني فعلا، فمن جهة تقول لي بأنّ الإنسان لا يعرف قيمة الأشياء إلا إذا افتقدها، ويمكن هنا أن أفهم بأنها تقول بوجوب

الإسراع وإلا فإنني سأفقدها، ربما تكون معجبة بأحد أصدقائي وأنا لا أعلم بالأمر! لكن من جهة أخرى تقول أنّه عندما يصبح الشيء ملكا للإنسان، فإنه عندئذ لا يهتم به، أي أنني سأفقد الكثير إن أصبحت رفيقتي، وهذا ما يعني أنها دعوة للكفّ عن التفكير فيها، إنه شيء محير حقا! يجب أن أضع النقاط على الحروف، لكن كيف ومتى؟ هذه هي المشكلة، نحن طوال الوقت مع الآخرين، والمرة الوحيدة التي كنّا فيها لوحدنا كانت في صبيحة هذا اليوم، لماذا لا تساعديني يا فينوس؟ إنّ الزمن قصير جدا، يجب أن آخذ برأي بروميثيوس، لقد أوصاني بعدم الخجل واستغلال الفرص المتاحة من دون تضييع للوقت، لذلك قررت على التو أن أصارحها وأعلن حبي لها علّها تطلبني كرفيق، فبعد كل ما قامت به من أجلنا لا أظنّ أنّ رفيقاتي يمانعن من انضمامها إلينا، نعم هذا ما سأقوم به.

***

قمنا كعادتنا في سهرة اليوم بتشكيل دائرة حول النار، ووقفت وقلت للجميع بصوت يعبّر عن جدية الأشياء التي سأعلن عنها: استمعوا إليّ، إنّ لديّ شيئاً أريد أن أخبركم به، فقال أورفيوس مازحا: هل تريد أن تأخذ مكاني في الغناء؟ فقلت له: كلا أنا جديّ، إنّ الأمر يتعلق بفينوس، فرفعت هذه الأخيرة رأسها مندهشة، بينما عيون الجميع منصبّة إليها، كنت إلى ذلك الوقت عازما على البوح بما أكنّه لها، لكنني لا أعرف كيف فقدت تلك الجرأة إذ لم أستطع إخراج الكلمات من فمي. فقالت إيوس: وما بها فينوس؟ فقلت:... أريد أن تحكي لنا إحدى قصص ألف ليلة وليلة. فانفجر الجميع ضحكا، حيث قال لي بوسيدون ضاحكا: كنت أظنّ أنك ستعلن حبك لها! وانفجر الجميع ضحكا من جديد. ترى لماذا قال لي بوسيدون ذلك؟ هل كان يمزح أم أنه يعلم بما يجول في خاطري. لا أعرف كيف مرّت تلك السهرة، فقد كنت غائبا عنهم تماما بينما كانت فينوس تقص عليهم إحدى القصص وهي تنظر إليّ من حين لآخر مبتسمة وكأنها تقول لي: إنني أسمح لك بفرصة أخرى لكن لا تضيعها. لقد تغيرت تقاليد قبيلتنا كثيرًا ففي السابق كانت الفتاة لا تجد حرجا في طلب فتى حتى وإن لم يعلن لها عن حبه، وإذا ما تمّ الارتباط فإن مسألة الانفصال مرتبطة بها أيضاً، أما الآن فعلى الرجل أن يصرّح أولا للمرأة بأنه يريدها حتى تتمكّن من طلبه كرفيق لها والانفصال يكون برضى الطرفين، ولو كان للأجيال أن تستمر من بعدنا لأصبح الرجل هو الذي يطلب المرأة! كم هو غريب هذا الأمر إنه يشبه قليلا ما وجدته في الكتب والذي عايشته الأجيال البعيدة، وهذا ما جعل التقاليد تترسخ في عقول الناس كأنها أمور حتمية مفروضة لا يمكن التغيير منها وإلا فإن مصير البشرية سيكون الفناء ... إننا آخر جيل! أي أنّ البشرية فعلا في طريقها إلى الفناء! فتبًّا لهذه التقاليد التي حاصرتنا إلى آخر رمق من حياتنا .

***

لم يمض على تلك الحادثة أسبوع عندما تصادفنا من جديد صبيحة اليوم ولوحدنا في القاعة التي يتواجد بها الصندوق، لكنني في هذه المرة كنت الأول، وفينوس هي التي التحقت بي من بعد، لا أعرف إن كانت صدفة أو أنها تعمدت ذلك، فهي لمّا دخلت قالت لي بصوتها الرقيق: آمل ألا أكون قد أزعجتك؟ فقلت لها مبتسما: أأنت تمزحين؟ بدأت دقات قلبي في التسارع، وبدأ العرق يتصبّب من جبيني، فكّرت في الهرب من ذلك الموقف، لكن سأكون بتصرفي هذا من أنذل الناس، كنت على علم بأنها سوف تقحمني في موضوع ما، فملامح عينيها والبريق الذي ينبعث منهما كان أقوى بكثير من بريق المرة الماضية، لذلك كنت واثقا من أننا سنكشف عن كلّ أوراقنا، حاولت أن أخفي ارتباكي وأظهر بصفة الرجل الواثق من نفسه، القوي الذي لا يهاب هذه المواقف، لكنّ سحر جمالها قد أفقدني كلّ قواي وبقيت أنظر إليها كالأبله، لم أنبس بأية كلمة، ساد صمت قصير ظنّنت أنه لن ينتهي أبدًا، إلا أنها قطعته قائلة وقد اختفت الابتسامة من شفتها حيث أخذت مظهرا جدّيا أرعبتني به: في تلك السهرة، أنت تعلم ما أقصد، هل كنت فعلا تود أن أقرأ عليهم حكاية أم أنك كنت تريد شيئاً آخر؟ ثمّ سكتت وهي تحاصرني بعينيها الزرقاوين، لم أجد ما أقوله لها، تلعثمت في كلامي أثناء محاولتي الرد، فقاطعتني قائلة وقد عادت الابتسامة إلى شفتيها: على مهلك، هل أنا التي أثير فيك كلّ هذا الانفعال؟ لم أتمالك نفسي، إذ أصبحت في موقف يجب أن أتخذ فيه قرارا حاسما، لقد أتاحت لي فرصة لم أكن أنتظرها، ولقد مهّدت لي الطريق، وهي الآن تبتسم لي، كان لزاما عليّ استغلال الموقف. تبادرت إلى ذهني صورة بروميثيوس عندما كان يقول لي: استغل الفرصة ولا تخجل، ومن الغريب أنني استعدت أيضاً صورة أفروديت التي كانت معنا، لذلك تملكني شعور غريب، فأنا أحب أفروديت أيضاً! هذه الفتاة التي أمامي جاءت مستسلمة وهي تريد حتمًا أن أعلن لها عن حبي حتى تطلبني رفيقا لها، ولطالما انتظرتُ هذه اللحظة، لكنني الآن أفكر في شخص آخر غيرها، أردت أن أصفع وجهي وأن أمسك بنفسي وأرمي بها على

الجدار لتتحطم. كنت حانقا من هذه الأفكار التي جاءت لتنغص سعادتي، وبدأت ألعن نفسي وألعن الأيام التي أحسست فيها بالحب، هذا الشعور الذي لا يزال ملتصقا بنا نحن الجيل الأخير. قاطعت فينوس تفكيري عن طريق قيامها بالتلويح بيدها أمام وجهي قائلة: أنا هنا، أنسيت؟ إنني أنتظر أن تقول لي ماذا كنت تودّ قوله في تلك السهرة؟ فأجبتها وأنا لا أعرف من أين اندفعت تلك الكلمات قائلا: اسمعي يا فينوس، إنك جميلة وذكية، وصغيرة في السن مقارنة بغيرنا لذلك يحزنني كثيرًا أن أراك لوحدك، أنت تعلمين بأنه قد مرّ وقت طويل على موت بروميثيوس ، وأنا وفق معرفتي بك لست من اللواتي يلبسن الحداد إلى آخر لحظة في حياتهن، أنت حتمًا تريدين أن تسعدي بما تبقى لنا جميعا من وقت في هذه الحياة، وكما تعلمين فإنها يمكن أن تكون طويلة كما يمكن أيضاً أن تكون قصيرة، لذلك أحب أن أراك مرتبطة مع أحد أفراد قبيلتنا... فقاطعتني ضاحكة: ومع من تريد أن أرتبط؟ هل اخترت لي رفيقا؟ فاحمر وجهي، إذ لم أعثر على إجابة لسؤالها، لكنني تشجعت من جديد وقلت لها: أنت تعرفين الجميع، فإذا أعجبك أحد منهم، فما عليك إلا أن تذهبي إليه وتفاتحيه في الموضوع، إنها عادتنا جميعا ولا أرى في ذلك أيّ حرج، وإن كنت لا تستطيعين القيام به بنفسك فأنا مستعد لمدّ يد العون، وسأتحدث في الموضوع مع من تريدين، يكفيك الإشارة إليه، فقالت: حتى وإن كان ذلك الشخص هو بوسيدون ؟. تسمّرت في مكاني ولم أستطع إجابتها، أخذت أفكر قائلا في نفسي: هي إذن تفكر في بوسيدون ولا تفكر فيّ أنا، إنني أحمق، لا أفهم أيّ شيء. أحسست أنني في عزلة تامة عن العالم، وعن كلّ ما يحيط بنا، لكنها قاطعت تفكيري مجددا بضحكاتها قائلة: معذرة، كنت أودّ أن أقول حتى ولو كان ذلك الشخص أنت؟ هنا تصبّب العرق من جبيني سيولا إذ شعرت به وهو يصل إلى ذقني ثمّ يواصل مساره على رقبتي وصولا إلى صدري، كما تسارعت دقات قلبي إلى درجة أنه خيّل إليّ أنه يهش جسمي هشا. يا لك من جريئة ولعوبة في الوقت نفسه، لك كلّ الحق في تعذيبي بهذه الطريقة، فأنا لست جريئا. قلت في نفسي: يجب أن تظهر هنا شجاعتك وإلا فإنك ستكون نذلا طوال حياتك وستندم على

هذه الفرصة التي ستضيعها، عندئذ قلت لها بصوت حازم وكلي ثقة في نفسي: ولِمَ لا، فقالت: إذن أريدك أنت، هل تقبل أن أكون رفيقة لك؟. لم أكن مندهشا من طلبها، فأنا كنت أتوقعه، لكنني وفي اللحظة نفسها لاحت لي صورة أفروديت بعينيها الزرقاوين الجميلين وشعرها الأصفر الحريري، وأنفها الصغير الدقيق، وشفتيها الرقيقتين، عادت إلى ذهني صورة بشرتها البيضاء الناعمة، وقوامها الرشيق، وابتسامتها الحلوة، لقد ارتسمت صورتها على فينوس بمختلف معالمها. لم أكن أودّ أن أخدع هذه الفتاة الرائعة، إنها صورة مماثلة لحبيبتي أفروديت، لكنها امرأة أخرى، امرأة أحبها كثيرًا، امرأة وضعت فيّ ثقة عمياء لذلك لم أودّ أن أخدعها أو أن أخفي عنها أيّ شيء، سأكون إنسانا حقيرا إن أخفيت عنها مشاعري اتجاه أفروديت، لذلك لم أتوانى لحظة حيث قلت لها بصوت هادئ ورزين: انتظري، يجب أن أعرّفك بسر لم أبحه لغيرك، فحتى رفيقاتي لا يعلمن به، فقالت متعجبة: إنني أستمع، فقلت: أنا معجب بك حقا، وأنا أحبك قبل ارتباطك ببروميثيوس، ولا أستطيع أن أصف مقدار حبي لك، فقاطعتني قائلة: أنا أعلم بهذا الأمر، فقلت مندهشا: ماذا؟ أتعلمين حقا بحبي لك قبل ارتباطك ببروميثيوس؟ فقالت مبتسمة: طبعا! حتى بروميثيوس كان يعلم بذلك، ولقد قال لي يوما: إذا حدث لي شيء، فأنا أوصيك به، فهو إنسان يعرف كيف سيسعدك. حاولت إخفاء دهشتي، لأنني لم أدخل بعد في الموضوع الذي أردت الحديث عنه لذلك قاطعتها قائلا: حسنا، لكن الأمر لا يتعلق بهذا. ثمّ تبادرت إلى ذهني فكرة أخرى، فقلت لفينوس: إنك تعلمين بحبي الكبير لرفيقاتي، فإنهن طوال مدة ارتباطهن بي لم يخطئن أبدًا في حقي، ولم ألق منهن أيّ تصرف بإمكانه أن يزعجني، إنهن وفيات لي، لذلك لا أريد أن أغضبهن أو أن أثير فيهن الإحساس بأنني إنسان ناكر للجميل، فقاطعتني قائلة: إنهن يعلمن جميعا بشعورك اتجاهي وبشعوري اتجاهك، بل كلّ القبيلة تعلم بذلك، إنهن لن يمانعن مطلقا بأن أتقاسمك معهن وكم من مرة عرضن عليّ أن أطلبك كرفيق، لكن وفي كلّ مرة يحدث شيء ما يضطرني إلى تأجيل الخوض في الموضوع. عندئذ لم يتبق لي إلا الإفصاح عن سرّي حيث قلت لها بصوت

خافت: إن كان الأمر كذلك فقد بقي شيء واحد أودّ أن أصارحك به، أنت تعرفين أفروديت؟ فقالت مبتسمة: نعم، حكيمة القبيلة الأخرى، وهي أيضاً ابنة عمك، فقلت لها: لكنك لا تعلمين بأني قد عاهدتها بأن أكون رفيقا لها عندما كنّا صغارا وهي بدورها عاهدتني على أن تكون رفيقتي، ولحد الساعة أنا مغرم بها، لا أعرف كيف يمكن لي أن أشرح لك الموضوع، أنا على علم بأنها بعيدة عنّي، ويستحيل عليّ أن أرتبط بها إلا أنها لا تزال ساكنة في أعماقي، لا أستطيع أن أقول لك بأنني أحبك أكثر منها أو أنني أحبها أكثر منك، لكن يجب فقط أن تعلمي بأنه يوجد شخص آخر غير رفيقاتي يتقاسم معهن قلبي، أنا أريد أن أكون صريحا معك فما هو رأيك؟ فردّت وهي تضحك: إن كنت تريد أن تبقى علاقتنا علاقة صداقة فقط فأنا لا أعترض، فقاطعتها قائلا: كلا فأنا أحبك، وأريد أن تكون علاقتي بك أكثر من ذلك، فقالت: هل تظنّ إذن أنني سأغِير من شخص أنا أعلم بأنه لن يتمكّن من الحصول عليك؟ يكفيني أن أعلم بما تكنّه لي من حب، فأنا أيضاً أحبك من صميم قلبي، كنت قبل ارتباطي ببروميثيوس معجبة بك، وقد وصل الأمر لأن أصارحك بمكمون عواطفي اتجاهك، لكن وفاة رفيقته غيّرت مجرى الأمور، إذ لم يكن من اللائق أن يبقى وحيدا بينما تنعم أنت بسبع نساء، وكنت واثقة من أنك لن ترض أيضاً بمصاحبتي، هل تعلم ردّ بروميثيوس عندما عرضت عليه أن يكون رفيقي؟ تصوّر ما قاله لي: أنا أعلم بأنك تحبينه هو وليس أنا لذلك يجب أن تنعمي بحياتك معه، فأجبته حانقة: وما أدراك بعواطفي، إن لم تقبل طلبي الآن فسأصارح الجميع برفضك لي، ولن أرتبط لا به ولا بغيره وإن حدث لي شيء ما فستكون أنت السبب، فقال لي غاضبا: إنك تتصرفين تصرفا صبيانيا، فقلت: صبية تريد رجلا يعلمها الحياة هل من عيب في ذلك؟ أنا لم أقصدك شفقة عليك، بل لأنني واثقة من سعادتي معك، فقاطعني متسائلا: هل أنت متأكدة ممّا تقولينه؟ فأجبته قائلة: أنا أدرى بشعوري، ولو لم يكن هناك أدنى ميول لي نحوك لمَا طلبت منك أبدًا أن تكون رفيقا لي، إلا إذا كنت في نظرك دون المستوى الذي تأمله، فقال محتجا: أنا لم أشر إلى هذا الأمر، لكنني قاطعته

قائلة: إذن أين المشكلة؟ لماذا ترفضني؟. لم يجد ما يقوله سوى هذه العبارة: أأنت متأكدة من رأيك؟ فقلت له: بل أنا واثقة ومصرّة عليه، فقال: إذن سأستشيره أولا، فإن أحسست بأنني سوف أسبب له التعاسة فسأرفض عرضك. ثمّ جاءني بعد يوم مبتسما وهو يقول: هل ما يزال عرضك قائمًا؟ فقمت عندئذ باحتضانه. إنّ الأيام التي قضيتها معه هي من أسعد الأيام في حياتي، حاولت بقدر الإمكان أن أكون رفيقة وفيّة له، وأتمنى أن أكون قد وفقت في ذلك، أما الآن فأنا أودّ أن أنعم بحياتي معك، فما رأيك؟. لم أجبها، بل تقدمت إليها بعد كلّ ما روته لي حيث أحطت خصرها بذراعي ووضعت يدي على رقبتها حيث لامست شعرها الحريري ثمّ قربت رأسها من رأسي ووضعت قبلة على ثغرها وأنا أتأمل بريق عينها الرائع، تمنيت لو استمرت تلك اللحظة إلى الأبد، وأحسست أنّ فينوس بدورها لم ترد أن تتوقف تلك القبلة إذ شعرت بحرارة نهديها المنتصبين، لكن بوسيدون دخل فجأة إلى القاعة حيث وجدنا متعانقين، فقال مازحا: لا تتحركا، ابقيا في الوضعية نفسها، سأحضر الجميع الآن، هل طلبته يا فينوس؟ فقالت مبتسمة: نعم، فقال: أخيرًا قرّرتما، يا صاحب النصائح! اعتقدت بأنها لم تعجبك وكدت أن ألمح لها عن رغبتي بها عساها تطلبني كرفيق لها، ثمّ واصل كلامه متظاهرا حزنه الشديد: لكنها فضلتك وضاعت مني، فماذا سأفعل الآن؟ لكنه ما لبث وأن انفجر ضحكا. خرجنا من القاعة الصغيرة حيث اتجهنا إلى القاعة الكبيرة أين كان يتواجد الجميع، وأعلنت لهم ارتباطها بي، وكانت رفيقاتي سعيدات بالخبر، فهي فتاة رائعة ومحبوبة من طرف الجميع.

***

كنت أظنّ أنني أخيرًا تمكّنت من الوصول إلى فينوس، الفتاة المتكاملة، التي تمثل بالنسبة لي النموذج المثالي للمرأة، إذ كانت بمثل جمال أفروديت، كنت أسبح في نظراتها وكأنني في بحر هادئ لا أخاف فيه لا الأمواج ولا البرد، كانت حرارة جسمها ونهديها وقبلاتها بمثابة الدواء لهذا الطقس اللعين، لقد أضافت لحياتي طعما لم أعهده من قبل، أصبحت رومانسيا بأتم معنى الكلمة، تمكّنتْ من تغيير مجرى حياتي، بل لقد تغيرتُ! نعم لقد تغيرتُ وأصبحت شخصا آخر، شخصا يعشق فتاة إلى درجة الجنون، كنت محتارا من نفسي إذ كيف ضاعت مني طيلة تلك السنين كلها؟ لقد مضى وقت طويل على موت بروميثيوس، فلماذا تأخرتُ في التلميح بحبي لها؟ إنّ ذكائها وفكرها وحديثها وعرضها وتقييمها للأمور يجعلني كالأسير في سجنها، نعم إنني كالسجين الذي لا يمكن له أن ينجو بنفسه، بل كنت سعيدا لوجودي فيه. عندما أستمع إليها أحسّ بالحرية التي منعنا منها الطقس، اعتقدت أنني محظوظ جدا لامتلاكي ذلك الصوت وتلك الصورة وكنت أحدّث نفسي قائلا: لو أتت الموت الآن لاستقبلتُها بسعادة فقد حقّقتُ ما أريده إذ أنا في تلاؤم مطلق مع الطبيعة، أستطيع بذلك أن أرحل عن هذا العالم لأنني وصلت إلى قمة السعادة، إلا أنه حدث عكس ما كنت أتمناه! ففينوس هي التي ماتت بين يدي، ماتت بعدما حاصرتها الطبيعة، قتلها الطقس اللعين ببرودته، لم يشفق على ذلك الجسد الذي أنار مغارتنا بجماله، ولا على ذلك الذكاء الذي أنار من جديد شعلة العلم وحب المعرفة بيننا، لم يشفق على ذلك الصوت الحنون والملهم الذي طالما حملنا إلى عوالم بعيدة، حيث سمح لنا بالتحرر من سجن الطبيعة المفروض علينا قهرا. كان سعالها بمثابة الخناجر التي تفتك بي فتكا، أمضيت معها ثلاثة أشهر فقط، لم أنفصل عنها على الإطلاق، وكأنني كنت أعلم بأنها لن تدوم طويلا، لقد أحسست بأنّ تلك السعادة لن تستمر، لأنّ الإنسان لن يكون في تلاؤم أبدي مع الطبيعة، وكنت آمل أن أكون أنا الذي يودّع الطبيعة، كنت أنانيا في تفكيري، لأنني أردت الرحيل قبلها حتى لا أحسّ بالألم، لكنها كانت أذكى

مني، لقد رحلت سعيدة، لم يتمكّن السعال من أن يمحو الابتسامة الرائعة التي كانت ترسمها لي، واستطاعت أن تموت بها. وبعدها توقفت الحياة في نظري، فأصبحت لا أؤمن لا بالسعادة ولا بالحياة ولا بأيّ شيء آخر، كنت أمقت الطبيعة وأمقت الحياة، كنت أهذي كالمجنون: لماذا؟ لماذا؟ تبًّا لك أيتها الحياة؟ ماذا فعلنا لأن ننال منك هذا الانتقام؟ لماذا لا تقتلينني؟ هيا أنا أنتظرك، أنا لست خائفا منك، أنا مستعد، بل سأنفذه بنفسي! لقد كدت أن أنتحر لولا ديموفون وميتيلاوس اللذين تمكّنا من أخذ الخنجر من يدي، أصبت بإحباط شديد، ذهب النوم عنّي وبقيت ساهرا لليال طوال أبكي لوحدي على ما فعله الزمن بي، كنت أرفض اقتراب أيّ شخص مني، وبلغ اليأس مني درجة لا تطاق، وحتى رفيقاتي لم أسمح لهن بمواساتي حيث كنت أصرخ في وجوههن: ابتعدن عنّي لا أريد أن أرى أحدا، فما كان لهن سوى الانصياع، قال لهن أورفيوس بحسرة: يستحسن أن نتركه لوحده حتى يستعيد صوابه. لم أكن أظنّ أنني أصل يوما إلى مثل تلك الدرجة من التعاسة، لقد مات العديد من أحبائي لكنني لم أحزن بهذا الشكل، كنت أستطيع التحكم في نفسي لأنني كنت أنتظر من هذه الدنيا كلّ شيء، بما في ذلك موتها الذي كنت أنتظره، إلا أنني لم أستطع الصبر، أحسست بفقدان طعم السعادة للأبد، إذ لا أتصور مطلقا تمكّني من الوصول مجددا إلى تلك السعادة مع رفيقاتي، كنت على علم بأنني سوف أتسبب في تعاستهن، وهذا ما زاد من كآبتي وحزني، إذ كيف لي أن أحقق السعادة للآخرين وأنا لا أشعر بها، كيف لي أن أتمكّن من العيش مجددا بعدما ذقت أقصى درجات السعادة؟ لقد ماتت! ويستحسن لي أن أرافقها، فهكذا على الأقل لن أضرّ أحدا. أمضيت أكثر من شهرين على تلك الحالة المأساوية، تراودني فيها أفكار سوداء جعلتني أشبه بالمجنون، فكنت أقول: كم تبقى لنا، سنة؟ سنتين؟ ستة أشهر؟ ما الفائدة من عيشها؟ ما الفائدة من الاستمرار في العذاب؟ امتنعت عن الأكل والشرب إلا نادرا، حتى جاءتني سيليني منذ قليل فقط وقالت لي بصوت هادئ ورقيق: اسمع جيدا، أتتذكر ما قلته لأنتيجوني؟ لقد حكت لنا فينوس ما دار بينكما، إذن فما عليك إلا أن تستعيد ما قلته لها،

ثمّ نهضت وتركتني. فكرت جيدا في الأمر ثمّ قلت في نفسي: لن تتمكّني منيّ أيتها الطبيعة، نعم لن تتمكّني مني !.

***

مرّ على موت فينوس أكثر من خمسة أشهر، هدأت فيها العواصف، وسمحت لنا بالخروج من جديد. كانت الطبقة الثلجية التي تغطي السطح سميكة جدا، وصلبة من شدة البرد، فأصبحت الأرض زلجة، كنّا نستعمل تقنيتنا في المشي على الثلوج للانتقال من منطقة إلى أخرى، حيث نربط إلى أرجلنا قطعا ملساء من الحطب الصلب، ونستعين بعصيين حتى لا نتعثر ونسقط، لقد شاهدت مثلهما في بعض الكتب لكنها كانت مصنوعة من مادة أخرى غير الحطب. أصبحنا نواجه صعوبات أكثر لاستخراج المؤونة، وكنّا نخاطر بالابتعاد عن المغارة، ونحفر حفرا عميقة، أحيانا تستغرق الحفرة الواحدة أيامًا حتى نعثر على حيوان أو أكثر وأحيانا أخرى لا نعثر على أيّ شيء، فنعود أدراجنا منكسري الخاطر.

كنت أحسّ بالفراغ والملل، لقد تحطم شيء ما بداخلي، ولم تعد لذة الحياة بعد إلى نفسي، لاحظت المعاملة الخاصة التي كانت تقدّمها لي كلّ من إيوس وسيليني وداناي وأرتيميس، وكنت أتظاهر أمامهن بالسعادة، وكأنني نسيت ما حدث، لكن صورة فينوس تعود وترتسم من جديد في ذاكرتي، كانت تراود أحلامي مرتدية دائمًا فستانا أبيض، كانت تشير إليّ بيديها ثمّ تختفي وراء غابة كثيفة من النخيل لأجد نفسي وحيدا بجانب شاطئ واسع جدا أترقب فيه المدى عساني أرى زورقا أو سفينة تبعدني عن الجزيرة التي ما تلبث وأن يتقلص حجمها، وعندما أبصر شيئاً يطفو من بعيد ألتفت باحثا عن فينوس حتى أخبرها عن قارب النجاة الذي يتقدم لكنني أدرك في الأخير أن الشيء الذي يطفو ما هو إلا جسد فينوس، فأستيقظ من نومي مذعورا والعرق يبلل كامل جسمي ،كان يراودني الحلم نفسه في كلّ مرة، ولا أتمكّن بعده من العودة إلى النوم حيث أظل ساهرا إلى غاية حلول الصبح. جاءت إليّ رودوب يوما وقالت لي بارتباك: هل تقبل أن تكون رفيقا لي؟ نظرت إليها باستغراب، فرودوب على نحو ما أعرفها خجولة جدا، إذ نادرا ما تشاركنا في النقاشات التي تدور بيننا، حيث

تظل قابعة بجانب أورفيوس تتأمل فيه وهي ممسكة بذراعه وكأنها تخاف أن يهرب منها، وعلى عكس أورفيوس الذي يميل إلى المزاح والكلام والثرثرة، فهي تميل إلى الصمت والعزلة. كان طلبها غريبا جدا، إذ لم أفكر فيها يوما كما أنها لم تقم أبدًا بمحاولة لفت انتباهي، فقلت لها مبتسما: إن كان أورفيوس هو الذي بعثك إليّ فقولي له شكرا على اهتمامك بي، ويستحسن لكِ أن تعودي إليه فإنه الشخص الذي يناسبك، أنا أعلم بأنك تحبينه كثيرًا وهو أيضاً يحبك كثيرًا. ثمّ تركتها وذهبت إلى قاعة الصندوق، بينما عادت أدراجها مطأطئة الرأس، وجاءتني بعد ذلك هيلينا لتعرض عليّ الطلب نفسه فأعدت لها الإجابة نفسها التي قدمتها لرودوب، ولم يمض يوم على تلك الحادثة حتى جاءتني فيليس، فبادرتها قائلا: من فضلك لا تقولي شيئاً، أنا أودّ أن أجتمع معكم الآن، فهل هذا ممكن؟ فقالت مندهشة: نعم، الجميع متواجد في القاعة الكبيرة. عندئذ وضعت الكتاب الذي كان بين يدي في الصندوق حيث أحكمت إغلاقه، ثمّ خرجنا معا إلى القاعة، وخاطبتهم بصوت هادئ: استمعوا إليّ جيدا، أودّ أن أشكركم على اهتمامكم بي، لكن يجب أن تعلموا بأنني أمُرّ بمرحلة أحاول فيها أن أعيد نظرتي إلى هذه الحياة، فأنا أودّ أن أفهمها جيدا، وعندما أصل إلى تحقيق هدفي سأعود كما كنت، وربما أحسن بكثير من السابق، لذلك الرجاء منكم أن تصبروا معي قليلاً، أنا أعتذر لكم جميعا عن تعكيري لجو هذه المغارة، فالرجاء أن تسمحوا لي، وأنا سأعدكم بأنّ هذه الحالة لن تطول، ثمّ تركتهم على دهشتهم بينما عدت إلى القاعة الصغيرة، كانت باردة جدا إلا أنني لم أكن أعر ذلك اهتماما .

اعتقدت أنني قد تحكمت أخيرًا في مسار حياتي، لكن ما حدث لي مع فينوس قد أوضح لي العديد من الأمور التي كنت أجهلها عن نفسي، إذ كنت أتصور مثلا بأنه يكفي أن يقوم الإنسان بضبط حساباته حتى يتمكّن من وضع جميع الاحتمالات الممكنة نصب عينيه وبالتالي ترقّب أيّ منها ستقع تبعا للظروف التي تتجدد وتتغير. كان ذلك أمرا منطقيا بحيث أنه ينتظر فقط تحقق إحدى تلك الاحتمالات. لكن في حقيقة الأمر، أثناء وضعي لها لم أقيّم

جيّدا الأهميّة التي تستدعيها، فأنا أعرف مثلا بأننا جميعا سنموت عاجلا أم آجلا، لكنني لم أضع في الحسبان مثلا بأن تموت رفيقاتي قبلي أنا، بل كنت أتصور أنني سأموت وأترك على الأقل إحداهن، بحكم كوني أكبرهن جميعا، وأنا أيضاً في سن كلّ من مينيلاوس وبوسيدون بينما أورفيوس وديموفون يصغراننا قليلاً. لكنه كان من الأجدر لي أن أضع نفسي في الموقف الذي أجد فيه الجميع ميتين، على الرغم من استحالته، لكنني عندما أضع نفسي في هذا الموقف الذي أراه رهيبا وصعب التّحمل، يومها أستطيع مجابهة أيّ شيء يمكن أن يقع لنا. حاولت في العديد من المرات أن أتصور نفسي في ذلك الامتحان الصعب لكنني لم أتمكّن من قبوله، فتارة ينتابني نوع من الهستيريا التي تجعلني أصرخ لوحدي، وتارة أخرى أقع أرضا بحيث ترتعد كافة أطراف جسمي، وأحيانا تنهمر الدموع من عيني ولا تتوقف طوال النهار وتمتد أحيانا طوال الليل، كنت أرفض تقبّل ذلك التصور، فأخذت أحدث نفسي محاولا إقناعها باحتمال وقوعه قائلا: إن لم تستطع قبول موت أفراد قبيلتك جميعا فإنك لن تحس بالسعادة بعد الآن. كان ذلك أمرا غريبا ورهيبا في الوقت نفسه، إذ عليّ أن أقبل به لأنه من بين الاحتمالات الواردة. أنا واثق تمام الثقة بأنه في حالة تعرض أحد أفراد قبيلتي لمكروه، فإنه سيحدث لي شيء ما، لأنني فقدت في تلك الفترة ذلك الحبل الذي يجعلني متمسكا بالحياة، ومن الواجب عليّ تعويضه بحبل أكثر متانة. وفي الأخير تمكّنت من إقناع نفسي بأنني أصارع الطبيعة، فهي من جهة تعمل المستحيل من أجل الإيقاع بي وأنا بدوري يجب أن أعمل المستحيل حتى أتمكّن منها وأسيطر عليها. وعادت إلى ذهني عندئذ الأفكار التي كنت أردّدها سابقا حول السعادة وكيفية تحقيقها، حيث يكفي للإنسان أن يعرف كيفية قلب الموازين ليجعل الحزن حاملاً في طياته بعض ملامح السعادة. ووصلت إلى إقناع نفسي بأنه يجب أن أحطم جزءا من مشاعري حتى أتمكّن من الحفاظ على حياة كلّ فرد من أفراد قبيلتي، سأضحي بسعادتي من أجلهم، إنهم طيبون جدا لذلك يجب أن أكون السند الذي يعوّلون عليه ووجود شخص في القبيلة لا يتأثر بالأحداث مهما كانت درجة قسوتها هو الذي ينفع في

تلك المواقف، وبصفتي الحكيم يجب أن أمثّل ذلك الشخص الذي يحاول إعادة السعادة إليهم، ومن ثمة وصلتُ إلى تقّبل إمكانية موت جميع أفراد القبيلة، الأمر الرهيب الذي لا أتمناه لكنني من الآن فصاعدا لن أستبعده. سأقول لنفسي عندئذ: لقد بقيت لوحدك، لكنك ما تزال حيًّا، ولحد الآن، أنت الفائز على هذه الطبيعة، فكل لحظة إضافية تعيشها إلا وتمثل لك انتصارا جديدا عليها. لقد حاولت القضاء علينا في السابق مع ضعف حرارة الشمس، لكننا صمدنا وتكيّفنا مع الوضع ومع مختلف الأوضاع التي تعاقبت على الرغم من صعوبتها، إنّ ذلك يجعلنا نحسّ بالفخر. لم تترك لنا الأجيال السابقة أيّ شيء، لكننا مازلنا أحياء، وإذا بقي منّا فرد واحد حيًّا فإنه لن يحيا لنفسه فحسب وإنما يحيا لجميع من لم تتح لهم فرصة الاستمرار في الحياة، وبما أنّ السعادة تعاش مع كلّ لحظة يمرّ بها الإنسان، فإنني نظرت حولي ووجدت بجانبي أربع رفيقات جميلات ولطيفات أخطأت كثيرًا في حقهن، بالإضافة إلى أصدقاء جدّ مخلصين، أنا محاط بأفراد يتمنون لي كلّ الخير والسعادة، لذلك سأحقّق طلبهم وسأبرهن لهم على أنني المسيطر على هذه الطبيعة، لقد استغرق بحثي عن هذه النتيجة أكثر من شهر. وعندما خرجت إليهم، كنت قد حلقت لحيتي التي تركتها بعد موت فينوس، ولمّا شاهدني الجميع بدأوا يصيحون ويصفقون، فقلت لهم مبتسما: الليلة سنقيم احتفالا على شرف فينوس لأنها لو كانت حيّة لدفعتنا حتمًا لأن نفرح ونسعد في هذه الحياة فلا يجب أن نخيب ظنّها.

***

بعد النكبة التي أصابتني، عادت الأمور إلى مجاريها وأصبحنا نمزح ونضحك، غير آبهين بالعواصف الثلجية الهوجاء التي كان من الممكن ألا تتوقف، كنّا نعيش أيامنا وفق ما هي عليه لا ننظر إلى المستقبل. أنشأنا شعارا جديدا تعاهدنا على الالتزام به وهو الاستمتاع بكل اللحظات التي نعيشها ولا نأبه بما سيأتي به المستقبل، فالأشياء التي ستقع فيه لا يستطيع أحد تغييرها، فما الداعي إذن من النظرات التشاؤمية؟ نحن نعلم جميعا بأنّ المستقبل سيكون أسودا، وهذا ما يجعلنا أكثر حماسا لأن نعيش حاضرنا، لقد حقّقنا انتصارا على الطبيعة لأننا كنّا فعلا سعداء. أحيانا ينتاب أحدنا نوع من الإحباط لكننا كنّا نحيطه برعايتنا إلى أن نرفع من معنوياته، كنّا نستعيد كلّ اللحظات السعيدة التي عشناها في الماضي حتى نحقق السعادة من جديد، وبما أننا وصلنا إليها في الماضين فيمكن تحقيقها أيضاً في الحاضر.

اقتربت مني سيليني منذ قليل وقالت لي بصوت منخفض: هل أنت واثق من نفسك؟ فقلت لها متعجبا: ماذا تقصدين؟ فردّت هامسة: هل أنت سعيد حقا، أم أنك تتظاهر بالسعادة؟ فأجبتها قائلا وأنا أرسم ابتسامة على شفتي: بل أنا سعيد حقا، أنت موجودة بجانبي، وصديقاتك أيضاً موجودات معي، فكيف لا أحسّ بالسعادة، فقالت باستغراب: وفينوس؟ فقلت لها بصوت قاطع: ماتت، فقالت حانقة: أنا أعلم بأنها ماتت، لكن ألا تفكر فيها؟ فقلت مندهشا: أحيانا، عندما تزور خاطري أستعيد مباشرة الأوقات السعيدة التي عشتها معها لكي أتأكد من أنها هي الأخرى كانت سعيدة، فنظرت إليّ بعينيها البنيتين الجميلتين ثمّ قالت: وإذا متّ أنا، هل ستحزن عليّ مثلما كنت حزينا عليها؟ فقلت لها بارتباك: ما بك؟ هل أنت مريضة؟ فقالت مبتسمة: كلا، ولكن أريد فقط أن أعرف موقفك. فقلت لها برقة: دعك من هذه الوساوس وافرحي معي بهذه الأيام التي نقضيها معا، ألا ترين بأنّ الصفاء قد عاد، فلنستثمره ونقوم بنزهة إلى الخارج، فقاطعتني حانقة حيث اختفت الابتسامة التي رسمتها على شفتيها

الرقيقتين منذ برهة: إنك لم تجب عن سؤالي! فقلت لها وأنا أنظر إلى عينيها الساحرتين: حسنا، إن كنت تودين أن أكون صريحا معك، فأنا لن أكون أبدًا حزينا عليك بمثل حزني على فينوس، صحيح أنني سأحزن قليلاً ولكنني سأواجه الحياة من جديد بسعادة. فقالت لي وهي تضحك: هذا ما كنت أودّ سماعه منك، لأنني سأكون حزينة جدا لو حزنتَ عليّ كثيرًا. فقلت لها مازحا: لكنك عندما تموتين ستكون النهاية، فأنت لن تشاهدي ما سأقوم به، فقالت بحماس: بل سأراقب تصرفاتك إلى غاية عودة السعادة إلى ملامحك، فقاطعتها مازحا: لقد أصبحت تؤمنين بما حملته تلك الكتب! فقالت وهي تضحك: بل أؤمن بحبي لك، ثمّ وضعت قبلة على ثغري أنستني على إثرها النزهة التي كنت أودّ القيام بها. لقد بدأت أكتشف صديقاتي من جديد، كن في الأول عبارة عن رفيقات، أحبهن لكل ما يفعلنه من أجلي، لم أكن أرى جمالهن ووسامتهن، لقد كنت مغرما بأفروديت ولم أرد خيانتها بإعجابي بجمال إحداهن، حتى فينوس التي كانت تضاهيها جمالا حاولت أن أجعلها أقل مرتبة منها لكنني الآن أكتشف من جديد جمالهن، فسيليني تعجبني فيها عيناها البنيتان اللتان تعلوهما أهداب طويلة، ويعجبني أنفها الصغير والدقيق والذي كان متعال قليلاً على نحو خاص أكسبه روعة، بينما ثغرها الصغير يحمل دائمًا ابتسامة محتشمة، إنها أصغر رفيقاتي، أحسست بنظراتها المعبّرة عن حبها الكبير لي، فأحسست بدوري بالندم لأنني لم أشاهدها من قبل بهذه الصورة، لقد كانت نحيفة قليلاً إلا أن ذلك لم يؤثر على طولها القصير بل اكتسبت من ورائها رشاقة، إذ لولاها لظهرت بدينة جدا، وأعدت اكتشاف جمال أرتيميس الساحر، بقامتها المعتدلة، وبياض بشرتها المائل إلى الحمرة، وأنفها الصغير، وعينيها الخضراوين الواسعتين حيث ينبعث الصفاء منهما، ويتدلى على وجهها البيضوي المنقط شعرها الأحمر على شكل ضفيرتين مركبتين بعناية فائقة، لا أعلم إلى غاية اللحظة الشيء الذي يثيرني فيها فصورتها كاملة تثير غرائزي، إنها تملك جسدا رائعا لا تتوفر عليه رفيقاتي الأخريات، أما إيوس فإنها باهرة الجمال بسمرتها وبعينيها الخضراوين وشعرها الأسود الطويل الناعم، كانت تتركه دائمًا يخرج

ويظهر فوق ملابسها، وعندما تمشي فإنه يتمايل ويتحرك في انسجام تام، عندما تضحك تظهر أسنانها الناصعة البياض والمرسومة بعناية فائقة، كان جسمها بضا ممتلئا تعلوه بشرة ناعمة، أعتبر نظرتها الساحرة من أروع النظرات في المغارة بل الأروع جميعا، فأهدابها التي تعلوا عينيها الواسعتين، وحاجبيها بتقويسهما الدقيق قد ساهما في خلق تلك النظرة، وإذا رافقتها بابتسامتها الحلوة فلا يستطيع المرء إلا أن ينبهر أمام ذلك الجمال، فكيف لم ألحظه من قبل؟ وأعدت اكتشاف داناي التي تعتبر الأخرى في غاية الجمال، كانت في مثل قامتي، وجهها يميل إلى الطول، تمتلك هي الأخرى نظرة مختلفة عن الأخريات إنها نظرة ثاقبة أسّستها عيناها الصغيرتين بلونهما الأزرق ذو البريق الخلاب، لا تبتسم كثيرًا على الرغم من جمال ثغرها الصغير، تتساقط خصلات شعرها الأشقر القصير على عينيها فتزيد وجهها بهاء، بشرتها بيضاء وناعمة مثل بشرة فينوس، أحيانا تكون محمرة الخدين عندما يكون البرد قارسا، وأحيانا تتورد فقط وجنتها فتضفي على ذلك الوجه جمالا آخر، قلت لها مرة وأنا أمازحها: إنّ وجنتيك المحمرتين تعجباني كثيرًا! فردّت حانقة: إذن سعادتك مرهونة بعذابي من هذا البرد! فقمت بتقبيل خديها قائلا: كلا، بل حتى أتمكّن من تدفئتهما بقبلاتي، فضمتني إلى صدرها وهي تضحك.

لقد مكّنني حزني من الوصول إلى حقائق لم أدركها من قبل، فجمال رفيقاتي الساحر لم أعره اهتماما إلا بعد موت فينوس، كيف عشت معهن كلّ هذه المدة من دون أن أعي وأتمتع بذلك الجمال؟ ربما انشغالي بأمور القبيلة هو الذي دفعني إلى إهمالهن، نعم أصبحت متأكدا من الخطأ الجسيم الذي اقترفته في حقهن لذلك جمعتهن ليلة أمس في القاعة الصغيرة التي خصصناها للانعزال بالرفيقات، وأشعلنا النار في الموقد حتى رفعنا درجة حرارة القاعة ثمّ قلت لهن بصوت هادئ ورقيق: أرجو أن تسمحن لي، فقد ظلمتكن كثيرًا، لقد كنت أحبكن بطريقتي الخاصة ولم تشتكين من تصرفاتي على الإطلاق، أنا أعلم بأنني لم أوفكن حقكن لمّا ارتبطت بفينوس، وكان ذلك خطأ كبيرا من طرفي، فأرجو المعذرة. حاولت إيوس أن تقاطعني لكنني واصلت حديثي قائلا: مهما

حاولتن الدفاع عنّي، فأنا أرى بأنني حقيقة مذنب، إذ لم أتمكّن إلا مؤخرا من رؤيتكن بالوجه الحقيقي الذي كان من الواجب أن أراكن عليه، لذلك فإنني سوف أكرّس وقتي كله في خدمتكن، سأحاول أن أعوض لكنّ كلّ ما فات، سأحاول أن أجعلكن أسعد النساء على هذه الأرض، لذا أطلب منكن العفو لكل ما بدر منيّ، وهذا لا يعني بأنني لم أحبكن أو لم أكن معجبا بكن في السابق، بل على العكس أنا الآن متعلق بكن أكثر من أيّ وقت مضى. كن يصغين إليّ باهتمام شديد، رأيت بعض الدموع تتلألأ على عيني سيليني، فقلت لها برقة: أرجوك! أنا لا أستطيع تحمل رؤية هذه القطرات على أعين مثل عينيك الجميلتين، فإن كنت تحبينني حقا فامسحيها وابتسمي لي، بل وابتسمن كلكن لي. قامت سيليني بمسح الدموع من على عينها ورسمت بشفتها ابتسامة عريضة ورائعة، كما قامت كلّ من داناي وإيوس وأرتيميس بالشيء نفسه. ثمّ اقتربت مني داناي وجلست ورائي حيث ضمتني بقوة إلى صدرها، كما اقتربت إيوس من الجهة اليمنى وأحاطتني بذراعيها ووضعت رأسها على كتفي، وجلست أرتيميس على يساري مستندة عليّ، فقامت سيليني محتجة: وأنا ألا تتركن لي مكانا معه؟ فضحكت إيوس وقالت: بإمكانك أن تتكئي على صدره، فردّت حانقة: أتظنّين أنني سأخجل منكن وألا أفعل ذلك؟ ثمّ اقتربت مني وجلست في حجري ووضعت صدرها على صدري حتى لامسته فأحسست بدقات قلبها المتسارعة وبنفسها الخفيف وبحرارة نهديها فقمت بدوري بضمها بشدة. لقد أصبحت سعيدا بالنمط الحياتي الجديد الذي اتخذته، كنت أكثر ثقة بنفسي، فأخذت أمضي لياليّ بين أحضان رفيقاتي، ففيهن أرى منفذا للسعادة، وكنّ هن الأخريات يأملن أن يستمر هذا التلاؤم بيننا، كأننا وُجدنا في هذه الطبيعة لنعيش معا، داخل هذه القبيلة الصغيرة التي كانت مترابطة إلى أقصى الدرجات.

***

خرجنا كعادتنا للبحث عن المؤونة، حيث اتخذنا الطريق الغربي المؤدي إلى بعض الجبال القريبة منّا والتي سبق وأن استخرجنا منها العديد من الحيوانات، إذ تركنا هناك نفقا لم نتمّ بعد حفره، وإذا بنا نرى بعض أفراد القبيلة الأخرى، كانوا أربعة. لمّا شاهدونا غيّروا طريقهم حيث أنهم وعوض أن يقابلوننا مباشرة، استداروا نحو اليمين متخذين الطريق الموجود بين جبلين كممر لهم. كانت تلك المرة الأولى بعد حوالي سنة نتصادف بهم من جديد، لقد تعرّفت مباشرة على أفروديت، إذ كانت ترتدي معطفها الجلدي الأبيض، حيث كان بياضه مغايرا لبياض المعاطف الأخرى، وأظنّ أنها هي الأخرى قد تعرّفت عليّ، كنت آمل أن تواصل طريقها وتلتقي بي، لكنها فضلت الانسحاب. إنّ الوضع الذي كنّا عليه لم أفهمه في الحقيقة، فأنا لا أعرف إن كنّا في حرب أو في سلم، وإن كانت ترغب في قتلي أم أنها تمتنع عن القيام بذلك، إن كانت تكرهنا، أو أنها لا تعيرنا أدنى اهتمام، لقد كنت فعلا في حيرة، إذ مضى وقت كثير لم أفكر فيها، كان وجود فينوس معي بمثابة الصورة المكتملة للسعادة التي كنت أنتظرها، لم يكن للآخرين أدنى فرصة للتدخل في تلك العلاقة. لقد أدركت بأنني ظلمت رفيقاتي لذلك طلبت منهن أن يسمحن لي، وعلى الرغم من أنهن لم يبدين أدنى امتعاض من سلوكي أو تصرفاتي، لعلمهن من جهة مدى حبي لفينوس، ومن جهة أخرى لأنها رفيقتي الجديدة وبالتالي يجب أن تمنح لها الفرصة لتتمتع قليلاً، لكنني لم أفهم لِمَ لم تخطر ببالي صورة أفروديت عندما فقدت فينوس؟ إذ كنت أستطيع أن أصبّر نفسي بوجود حبيبة أخرى تشبهها، وإن كانت ليست لي إلا أنني أنتظر اليوم الذي يمكن أن نلتقي فيه مجددا، فما يزال عندي أمل كبير في تحقق ذلك، والرغبة الشديدة التي تتملكني كلّما أفكر في أفروديت تجعلني أتصورها تبادلني بدورها المشاعر نفسها. كان عمي دائمًا حجر عثرة بيننا، فمقتله قد حطّم صلتي بها، لكنها الآن ربما تعلم بأنها كانت الوسيلة الوحيدة التي أملكها كي أثأر لنفسي ولقبيلتنا، إنها حتمًا ذكية، وإلا لما تركوها حكيمة عليهم، فهي تحسن التصرف ولقد حافظت على أفراد قبيلتها،

أنا لا أعلم عددهم بالضبط إلا أنني لمّا شاهدتها مع جنودها تيقنت من أن عددهم لا يزال كبيرا، وبالتالي فقد تمكّنت هي الأخرى من التغلب على هذه الطبيعة. كنت أودّ أن أتحدث معها بخصوص هذا الموضوع، كنت أودّ أن أسمع رأيها حول الصراع الذي نجريه ضد الطبيعة، هل هي واعية به أم لا؟ كنت أودّ أن أتحدث معها عن الحياة والموت، عن السعادة والشقاء، كيف لها أن تحقق السعادة، هل هي سعيدة أم أنها تشعر بالاكتئاب؟ فالعديد من الأسئلة التي كانت تتبادر إلى ذهني كنت أودّ طرحها عليها، لقد مضى أكثر من أربع عشرة سنة على انقطاع علاقتنا فهل من الممكن أن نتوحد من جديد؟ هل بإمكانها أن تقبل أن أكون رفيقا لها؟ هل من الممكن أن أشغل بالها الآن؟ ربما تكون قد نسيتني ونسيت كلّ الفترات الجميلة التي قضيناها معا ونحن أطفال. لقد أصبحت تشغل بالي من جديد، كنت ألعن نفسي التي لا تودّ أن ترتاح أبدًا، كلّ العوامل كانت متوفرة لي لأن أكون سعيدا وأنعم بحياتي إلا أنني دومًا أبحث عن المزيد، لقد بدأت أفهم لماذا الرئيس والدكتاتور والإمبراطور والملك والوزير والسلطان والحكيم والزعيم وغيرها من المناصب المختلفة التي يتحلى بها الإنسان لا يقتنع بها بل يحاول بقدر الإمكان أن يخضع شعبه ويذله ليبيّن عظمته، وعندما يتحقق له ذلك يملّ ويبحث عن شعوب ودول أخرى ليخضعها، وإن تحقق له ذلك أيضاً ولم يجد من يخضعه فإنه إما أن يجن أو أن ينتحر، فالإنسان لا يقتنع بأيّ شيء، وأظنّ أنني من طينة هؤلاء، فنهايتي ستكون حتمًا إما الجنون أو الانتحار، إذ كيف أجد نفسي بعد أن صارعت المحن العديدة لأصل إلى تحقيق السعادة أسقط من جديد في دوامة أخرى، لقد أصبحت لا أنام في الليل لأن صورتها تراودني، لعنت ذلك اليوم الذي التقيتها فيه، إذ لولا مصادفتي بها لكنت قد نسيتها واستمتعت بسعادتي مع رفيقاتي وأصدقائي. لقد شاهدت حلما ليلة أمس آلمني كثيرًا، إذ رأيت فينوس على صهوة حصان تعدو باتجاهي ولمّا تعرّفت عليها أوقفت الحصان الذي كنتُ أمتطيه، فبادرتني بصوت حانق: إلى أين أنت ذاهب؟ لقد بحثت عنك كثيرًا، فقلت لها بارتباك: أنا ذاهب ... ولم أستطع إكمال جملتي، فقالت وعلامات

الغضب بادية على محياها: إلى أفروديت أنا على علم بذلك. كنت أرتعد من الخوف أمامها إذ أحسست بالخجل والذنب، فضحكت وقالت: لقد نسيتني بهذه السرعة؟ لم أجد ما أجيبه بها، فإذا بصورتها تتحول إلى أفروديت حيث كانت تقهقه ثمّ انطلقت داخل الغابة لتتركني وحدي، حاولت أن أناديها لكنني لم أعرف أيّ اسم سأختاره: فينوس أم أفروديت؟ ثمّ استيقظت من نومي وقد تملّكني الخوف، أنا لا أؤمن بالأحلام على الإطلاق، لكن هذا الأخير ذكّرني بفينوس، فمنذ أن سيطرت صورة أفروديت على ذهني نسيتها فعلا، نسيت الفتاة التي أوصلتني إلى ذروة السعادة، والتي أوصلتي أيضاً إلى قمة الكآبة، ماذا سيحدث لي لو تعرّضت للشيء نفسه مع أفروديت؟ قلت في نفسي محذرا: يستحسن لك أن تنساها، فكّر في رفيقاتك وأصدقائك، لقد كنت سعيدا، فاستمر في سعادتك ولا تهتم بها، هل تظنّ أن السنوات الأربع عشرة غير كافية لأن تمحيك من ذاكرتها؟ إنها حتمًا على علم بأنك مرتبط بست رفيقات، فما هي صورتك في نظرها: إنسان يعشق جميع النساء، إنه ليس بالإنسان المخلص للحب الأول، لو كان كذلك لما اتخذ أية رفيقة بل كان سينتظرني مثلما انتظرته أنا، لكنه على العكس كان يضيف لنفسه رفيقات أخريات، وربما حتى رفيقات جنوده دخلن في مغامراته. نعم! هذه هي الصورة التي تحملها عنّي لذلك يستحسن أن أنساها.

كلا إنه أمر مستحيل، هل أهذي أم ماذا؟ هل يمكن لي فعلا أن أنسى حبيبتي أفروديت، لقد تعاهدنا على أن نكون معا، أول حب أشعر به، فكيف لي أن أخون هذا العهد؟ إنّ فينوس التي كنت أعشقها لحد الجنون قد صارحتها بحبي لأفروديت، وهي تعلم بحبي ويستحيل عليّ أن أنساها، فكيف لي الآن أن أتخذ قرار محو صورتها من ذهني؟ كان يجب عليّ أن أتخذ قرارا آخر ألا وهو الذهاب إليها ومصارحتها بكل ما أكنّه لها من حب، نعم هذا هو عين الصواب، أن أتجه إليها في مغارتها وأقول لها بصوت يحمل معاني الحسرة والرجاء: اسمعيني جيدا يا أفروديت، إنّ الزمن قصير بالنسبة لنا، وقد ضيّعنا الكثير، أنت تتذكرين العهد الذي قطعناه على أنفسنا، ستكونين رفيقتي، لأنني لا أزال

أحبك وأنت أيضاً تحبينني، يجب أن نرتبط مع بعض، ولتعلمي بأني مستعد لترك كلّ ما أملكه من أجلك، نعم أنا أبحث عن سعادتي وعن سعادتك فهلا قبلت عرضي ؟. لكن هل فعلا أنا مستعد لترك كلّ شيء؟ ما ذنب رفيقاتي؟ ما ذنب قبيلتي؟ كلا يجب أن أقول لها برقّة: ستحضين بمكانة خاصة بين رفيقاتي، فأنا أعرفهن جيدا، سيسعدن كثيرًا بارتباطك معي، نعم هذا ما يجب أن أقوله لها، إنّ الوقت يمر بسرعة، لقد ضيّعت فعلا الكثير منه، يجب ألا أرتكب نفس الحماقة التي ارتكبتها مع فينوس فأنا لم أتمتّع بوجودها معي إلا ثلاثة أشهر، كان بالإمكان أن أقضي برفقتها مدة أطول لولا خجلي وخجلها، معك الحق يا بروميثيوس، لولا مصارحتي لها عندما كنّا صغارا لما علمت بما أكنّه لها، إنني أشكرك كثيرًا، فقد سمحت لي بأن أمتلك ذلك الأمل الذي يسمح لي بأن أتمسك بهذه الحياة .

فكّرت في الطريقة التي أستطيع بها التقدم إليها، فقلت في نفسي: يستحسن أن أذهب مباشرة إلى المغارة. لكن من الممكن أن يعتقدوا بأنني أهاجمهم وبالتالي سيقتلونني قبل أن أتفوه بأدنى كلمة، لذلك يستحسن أن أتحدث معها في الخارج. لكنني محاط دائمًا بجنودي! وهي الأخرى محاطة بجنودها، فكيف لي الاقتراب منها؟ حيّرني هذا السؤال إذ أصبحت لا أفكر إلا فيه: ما العمل للوصول إليها؟ وأخيرًا توصلت إلى فكرة مفادها أنني سأخرج للبحث عن المؤونة أو الحطب، وسأصطحب معي أحد جنودي، سأذهب إلى الوجهة التي هم معتادون البحث فيها لأناديها من بعيد بأنني أودّ الحديث معها، سأقول لصديقي بأنني أريد أن أجمع القبيلتين لأن عددنا ليس كبيرا، إنهم لن يرفضوا هذا الطلب وقد سبق وأن تحدّث أحدهم في هذا الموضوع، لذلك يستحسن أن أسرع في القيام بهذا العمل .

***

مرّ على اتخاذي قرار الاتصال بأفروديت زمن من الوقت، أظنّه بالتحديد ثلاثة أشهر، كنّا نخرج جميعا للبحث عن المؤونة والحطب، إلى أن جمعنا كمية معتبرة منه فاقترح ديموفون المكوث بالمغارة بضعة أيام لأخذ الراحة ما دام المخزون كافيا، فوافقته الرأي ورأيت أنّ الفرصة مواتية لتنفيذ خطتي، فأخبرتهم بأنني أرغب في القيام بنزهة لوحدي في الغد للنظر في المواقع الأخرى لمعرفة ما إذا كان الجليد قد ذاب قليلاً فيها حتى نتجه إليها للبحث عن المؤونة، فأبدوا تأييدهم للأمر، وأراد كلّ من أورفيوس ومينيلاوس مساعدتي في المهمة لكنني رفضت اقتراحهما بحجة عدم ابتعادي كثيرًا عن المغارة. أتذكر جيدا كيف بتّ تلك الليلة وأنا أفكر في قرب لقائي بأفروديت من جديد، إذ أصبح من الممكن أخيرًا مقابلتها حيث سأفصح لها عن كلّ ما يجوب في مشاعري، خالقا في نفسي الجرأة اللازمة للقيام بذلك. وفي الصباح عندما هممت بالخروج لاحظت الغيوم قد تلبدت ثمّ حلّت عاصفة ثلجية شديدة جعلتنا حبيسي المغارة مدة شهر كامل لم تتوقف فيها على الإطلاق، ولمّا عاد الصفاء من جديد، خرجنا كعادتنا للبحث عن المؤونة. فقلت في نفسي بحنق: لن تنالي منيّ أيتها الطبيعة بل سأبرهن لك عن صمودي أمام وحشيتك، وعن عزمي على نيل مبتغاي. لكنني في حقيقة الأمر بدأت أشك في الردّ الذي من الممكن أن تقدمه لي أفروديت، أو أن أجدها مرتبطة مع أحد جنودها لذلك خفّفت عن نفسي قائلا: دع الأمور تجري وفق طبيعتها، فمن الممكن أن تسمع يوما طرقا على جدار المغارة وعندما تطلّ لمعرفة الزائر ستندهش برؤية أفروديت وهي تقترب منك لتطلبك رفيقا لها. هذه الفكرة أسعدتني كثيرًا، فقد خلقت في نفسي أملا جديدا في هذه الحياة.

***

حاولت مرارا أن أفهم تغيرات الطقس لكنني لم أستطع، فما قرأته في الكتب كان شيئاً رائعا، إذ لو كان التنبؤ بكل التغيّرات التي تطرأ على الجو ممكنا في عصرنا الحالي لما حدثت المآسي التي تعرضنا إليها، لكن الإنسان وما يحمله من نزعة تدميرية جعلنا نسمع فقط عن بطولاته المجيدة في تحطيم كلّ ما يخلقه مستغلا وصوله إلى التقدم العلمي ليحطّم كلّ إنجازاته، ويعيد الإنسانية إلى العصور الوسطى حسب الاصطلاح الوارد في الكتب الموجودة بالصندوق، ثمّ آمنَ بأنه لا ضرورة بعد ذلك في البحث عن التكنولوجيا مادام الإنسان سيحطم وجوده من جديد. كانت الأسلحة التي صنعها في منتهى البراعة، نووية، هيدروجينية، بكتريولوجية ... أباد بها نفسه وأباد في طريقه الحيوانات والنباتات، وجعل سطح الأماكن التي مستها تلك الأسلحة شبيها بسطح القمر الذي نرى صورته في الكتب، لقد أحسن الإنسان توظيف عقله! كان تميّزه عن باقي الكائنات الأخرى مفيدا للبشرية في فنائها وأنا أحمّله المسؤولية الكاملة عن الوضع الكارثي الذي نعيش فيه الآن، وهذه المعاناة التي تلازم أيامنا. أتذكر والدي عندما قال لي يوما: هل تعلم أنّ هذه الأرض كانت تحتوي في القديم على ثروات كثيرة، لكن الأجيال السابقة استخرجت كلّ شيء! لقد مسحت كلّ ما يتواجد سواء على سطحها أو في باطنها. فقلت له بسذاجة: لكن عليهم أيضاً أن يوظفوها ويستغلوها لصالحهم، فقال متحسرا: لو كان استعمالها لغرض الاستفادة منها كما تقول لكان أمرا منطقيا، لكنهم كانوا يستبدلونها بأشياء تافهة توفر لهم سعادة قصيرة ما تلبث وأن تنتهي، فتعيدهم من جديد إلى واقعهم المرّ، ستفهم مرادي عندما تكبر يا بني.

أدركت الآن قصده، نحن بحاجة إلى كلّ شيء لكننا لا نملك شيئاً، لم يترك لنا الأوغاد شيئاً، فتبًّا لهم جميعا، لقد قلبوا هذه الأرض رأسا على عقب، وأصبحت الآن مجنونة، تريد أن تقضي علينا بكل ما تملكه من قوة، تحدّثتُ معها يوما مفسرا بأنه لا ذنب لنا، وأنّ هذا الجيل لا يجب أن يدفع ثمن أخطاء

الأجيال الأخرى فكان ردّها أن أرسلت لي عاصفة هوجاء جعلتني لا أرى طريق العودة إلى المغارة على الرغم من قربي منها، عندئذ أدركت بأنّ للطبيعة روح، إنها تحسّ بكل ما نفعله بها، إنها تسمعنا عندما نتحدث، فغضبها وهيجانها دليل على أنها قد تألمت كثيرًا، لذلك أصبحتُ لا أحمل لها أيّ حقد، لأننا لو عانينا جزءا فقط ممّا عانته لكنّا من أكبر السفاحين على الأرض، فالخطأ خطأ بني جنسنا.

قرّرت ألا أكون من ذلك اليوم فصاعدا عدوا للطبيعة، لأنني أدركت معنى تصرفاتها، فكل ما يأتي منها يجب أن نقبله، لقد تصرّفت معنا بطريقتها الخاصة طوال هذه السنين القليلة التي مرّت فذقنا ذرعا بها، بينما هي تحملتنا آلاف السنين، ولم تتحرك لتظهر امتعاضها. رأت نفسها وهي تذبل شيئاً فشيئاً كالنبتة المحرومة تارة من الماء وتارة أخرى من الشمس إلى أن تموت. لقد قضينا على مختلف ثمارها وكأننا نريد أن نبقى الثمرة الوحيدة لها، لكننا في الحقيقة ثمرة فاسدة لا تجني منّا سوى الدمار، لهذا كله فإنني أعتبر ما حدث لنا هو أمر منطقي منطقية الأفعال التي سبقنا إليها أجدادنا.

***

هدأت العواصف الثلجية بعد أن استمرت زهاء الأسبوعين، كنّا نظنّ أنها ستستمر كعادتها أشهرا عدة إلا أنها رأت غير ذلك، لقد منحتنا فرصة الخروج من المغارة والتمتع بالجو الصافي، فقلت لأفراد قبيلتي مبتسما: إننا لن نقوم بأيّ عمل اليوم، فكما ترون المؤونة متوفرة والحطب موجود لذلك أرى أنه يجب أن ننعم بهذا الطقس الجميل، كانت درجة الحرارة في الخارج تناهز -18°، طقس رائع، لا تهبّ فيه سوى نسمة صغيرة باردة، طلب أورفيوس من رفيقته أن تصاحبه إلى أعلى الجبل حيث حمل معه كنارته، واختارا مكانا منعزلا حيث أخذ يغني لها بعضا من مقاطعه الجديدة، ومن حين لآخر يتوقف ليقبل رفيقته ويداعبها، فكنّا كلّما ينقطع صوت الكنارة نعلم بأنّ رفيقته هي السبب، أما ديموفون فقد اختار أن يعدو مع رفيقته فيليس، فهو يعشق الجري على الثلج، وهي أيضاً تحب ذلك، كانا يصعدان جريا إلى أعلى القمم المحيطة بنا وينزلان منها بالسرعة نفسها، كنت أتعجب من فيليس كيف لها أن تتحمل هذا الإرهاق الذي يفرضه عليها ديموفون، إلا أنها عندما يصلان إلينا تبدو في منتهى السعادة حيث تعرض علينا أن نرافقهما، لكننا كنّا نرفض طلبها متعللين بمختلف الأسباب التي كانت تتبادر إلى أذهاننا، فنحن لا نريد إزعاجهما وفوق ذلك كله كنت أكره كلّ أنواع الرياضة لأن الجهد الذي نبذله في عملنا كاف لتنشيط أجسامنا، في السابق كنت أحب المصارعة إلا أنني وبعد تغيّر نظرتي إلى الحياة رأيت أنّ الإنسان يستحسن له أن يكون مسالما لكي يعيش في هناء، فجيلنا أصلا كان عليه ألا يتعلم مثل تلك الأنواع من الرياضة التي لا يأخذ منها سوى الحقد والكراهية والعداوة للغير. فمن الكذب أن نقول بأنها رياضة، إنها شكل من أشكال حيوانية الإنسان، لذلك كنت مع رفيقاتي نفضل إما المشي، أو الجلوس في مكان ما حيث نتبادل النكت ومن حين لآخر يداعب بعضنا البعض، فكنت أقبلهن معبرا لهن عن حبي الكبير، وهن يحببن الاستماع إلى مختلف العبارات التي تشير إلى جمالهن وإلى عشقي بهن، لقد حفظت العديد من العبارات الجديدة من الكتب، فكنت أرددها عليهن، كن سعيدات جدا بهذا

حيث لا يتوقفن أبدًا عن الإلحاح بمواصلة أحاديثي. كنت أعرف في الحقيقة كيفية التعامل معهن سواء بالكلام أو بأشياء أخرى لأوصلهن إلى قمة النشوة والسعادة والهيام. أما بوسيدون ومينيلاوس فقد فضلا الجلوس معا حيث كانا يتبادلان أطراف الحديث، بينما أمفتريت وهيلينا جالستين في مكان غير بعيد عنهما، كانتا بدورهما تتبادلان الحديث وأحيانا تصل إلى مسامعنا ضحكاتهما، كنّا نميّز بدقة ضحكة هيلينا عن ضحكة أمفتريت، فهيلينا أكثرنا جميعا ضحكا إذ كانت ضحكاتها تسمع في كافة أنحاء المغارة، هي تضحك لكل شيء غير آبهة بمختلف الكوارث التي تنتظرنا، وكنت معجبا بطريقتها في التعامل مع الأوضاع، إلا أنها من جهة أخرى عندما تحل مصيبة عندنا، فإنها تتحول إلى النقيض بحيث لا تستطيع أن تكتم حزنها معلنة عنه سواء بالبكاء أو الصراخ والعويل، وهذا ما أكرهه، فأنا أفضل أن يحتفظ كلّ واحد منّا بحزنه ولا يعلنه للآخرين، بينما أستحسن ضحكاتها لأنها تضفي على حياتنا نكهة خاصة. إنني أتفهم كيفية تعبيرها عن حزنها، وأنا لم أمنعها يوما، فوضعنا الحالي يدفعنا إلى أن نمنح الحرية الكاملة للجميع، فتبًّا لتلك القواعد التي تحدّ من تصرفات الإنسان، لكنني على الرغم من ذلك أحاول عن طريق التلميح أو عن طريق النصائح التي أقدمها للجميع التأكيد على ضرورة الاهتمام بسعادة القبيلة جميعا، حتى نضمن بدورنا سعادتنا، إذ يستحيل أن نكون سعداء عندما يكون أحد أفراد قبيلتنا حزينا، فنحن نمثّل وحدة متكاملة يجب أن تواجه مصيرها وهي ملتحمة، ونعمل على الوصول إلى النهاية ونحن جميعا سعداء.

كنّا إذن جالسين على بعض الأغطية الجلدية التي أحضرناها معنا، وكانت إيوس على يميني، وأرتيميس على يساري، بينما كنت متكئا على صدر سيليني حيث كنت أحسّ بحرارة نهديها ودقات قلبها، أما داناي فقد كانت متمددة واضعة رأسها على ساقي، كنّا نتبادل أطراف الحديث كعادتنا حتى جاءني كلّ من بوسيدون ومينيلاوس. تحدث بوسيدون وقال بصوته الهادئ: إننا نريد أن نذهب إلى الجهة الغربية أين حفرنا في المرة الأخيرة نفقا ولم ننته منه. لنرى إن كان ممكنا متابعة الحفر فيه وإن لم تؤثر فيه الثلوج التي تساقطت في

الأيام السابقة، فقلت لهما مستغربا: ألا تريدان أن تستمتعا بهذا الطقس الجميل؟ وماذا ستقول كلّ من هيلينا وأمفتريت؟ يستحسن لكما أن تذهبا إليهما لتتمتعا معا بهذا اليوم الجميل، فقال مينيلاوس متأففا: ليست لدينا رغبة في هذه الأمور الآن، بالإضافة إلى أنهما تستمتعان معا بهذا الجو، إنني أفضل المشي قليلاً مع بوسيدون فما رأيك؟ فقلت لهما في شيء من الضيق: أنا لا أمانع، لكن إن غضبت رفيقتيكما فلا دخل لي، تصرّفا معهما كما تريدان. كنت أفضل أن يبقيا معا، فالكل كان يستمتع بالطقس الجميل مع حبيباتهم إلا هما، كنت أودّ أن يقوما بالشيء نفسه، لكن وبما أنها كانت رغبتهما فلم أرد معارضتهما حيث رأيتهما يذهبان إلى المكان الذي كانت فيه أمفتريت وهيلينا جالستين، رأيتهما يتحدثان معهما قليلاً ثمّ عانق بوسيدون أمفتريت، بينما قبّل مينيلاوس هيلينا وبعد ذلك أخذا الوجهة الغربية.

لم أكن أتوقع أن يحدث أيّ شيء في ذلك اليوم، فقد كانت كلّ الظروف مهيأة لأن نستمتع بوقتنا، لكن وبعد مدة ليست بالقصيرة من ذهاب مينيلاوس وبوسيدون، لاحظت السحب وهي تقترب منّا ثمّ ازدادت كثافتها، ووصلت إلينا بسرعة غريبة عن النحو المعتاد، إذ كانت في السابق قبل وصولها تسبقها الرياح الباردة، بينما حدث العكس، لقد أحاطتنا السحب من كلّ جانب، ثمّ بدأت الرياح تهبّ وكانت قوتها تزداد من لحظة لأخرى، هرعنا إلى المغارة لنحتمي فيها، وأول شيء تبادر إلى ذهني هو مينيلاوس وبوسيدون. كنت أتمنى أن يكونا قد لاحظا تلك السحب وبالتالي العودة مباشرة إلى المغارة، وكنت واثقا من هذا الأمر لأنهما يملكان الخبرة اللازمة في مثل تلك الحالات، فكل العوامل مهيأة لهبوب العواصف الثلجية. بدأنا نحس بالبرد بسبب الانخفاض السريع لدرجات الحرارة .

لم يمر من الوقت إلا قليلاً حتى بدأت العواصف تهب، عندئذ أيقنت باستحالة عودتهما في مثل تلك الظروف، لأنها ستكون مجازفة حقيقية، فمن الصعب جدا المشي على الثلوج أثناء العواصف، فنحن لا نستطيع رؤية أيّ

شيء، بالإضافة إلى الرياح التي كانت تدفعنا يمينا وشمالا بحيث لا تسمح لنا بمشي خطوات إلى الأمام إلا بعد أن نترك معها كامل قوانا، لذلك كنّا نقوم بحفر الخنادق والأنفاق تحت الثلج للاحتماء فيها إلى أن تزول العاصفة. لم أقلق عليهما، حيث طمأنت كلا من أمفتريت وهيلينا بعدما رأيت ملامح الخوف والفزع بادية على وجهيهما قائلا بابتسام: لقد صادفتنا عواصف أكثر منها شدة لذلك لا تقلقا، وهما لن يعودا الآن وسينتظران حتمًا هدوء العاصفة، سيكونان داخل أحد الأنفاق، فلا مدعاة للقلق. لم تكن تلك الكلمات التي قلتها كافية لإبعاد كلّ الوساوس التي تدور في فكرهما، لذلك طلبت من أرتيميس وإيوس البقاء معهما حتى تخففا عنهما ذلك القلق .

مرّ على منتصف النهار الكثير، والعاصفة لم تهدأ بعد بل ازدادت حدّتها، فتيقنت أنها لن تتوقف طوال اليوم، كنت أتمنى أن تهدأ في الليل حتى يتمكّنا في الصباح من العودة، وكان لديّ أمل كبير في تحقق ذلك، أمضينا الليلة جميعا ساهرين نترقب باب المغارة، فلربما استطاعا الاقتراب وبالتالي الوصول إلينا، تذكرت بأنهما لم يحملا معهما أي شيء يدفع عنهما البرد، ولا إمكانية لهما لإشعال النار، هنا بدأت مخاوفي تزداد لأن درجة الحرارة في الخارج كانت جد منخفضة، فهما حتمًا سيحسان بالبرد الشديد إلا أنّ قضاء ليلة في الخارج تحت الثلج لن يهلكهما، إذ يكفي أن نجدهما في الصباح ونقدّم لهما الماء الساخن حتى يستعيدا صحتهما. لم أرد أن أظهر قلقي للآخرين بل كنت أعبّر عن ثقتي في مينيلاوس وبوسيدون. تحدثت لمرات عدة مع أمفتريت وهيلينا، مستعيدا المرات العديدة التي حاصرتنا فيها الثلوج، والآراء الصائبة التي كانا يقدمانها لنا، قائلا بأنّ المكان الذي ذهبا إليه ليس ببعيد وبالتالي، فإننا سننقذهما حتمًا لعلمنا بالطريق الذي سلكاه.

لم تنغلق عين أحد منّا طوال الليل، كان الجميع مطرقا سمعه علّه يسمع حركة في الخارج، ترقبنا اللحظة التي تتوقف فيها العاصفة إلى أنّ حلّ الصبح لكن العاصفة الثلجية تواصلت وازدادت قوة. لم يكن بوسعنا أن نقوم

بشيء، كنّا نتبادل النظرات في صمت رهيب متمنين توقف العاصفة، إلا أنّ أصوات الرياح وحبيبات الثلج التي تتسلل عبر باب المغارة والتي تحملها الرياح عبر الرواق إلى غاية القاعة الكبيرة كافية لأن تعبّر لنا عن استمرارها. كان الجو مظلما على الرغم من حلول الصبح، انتظرنا إلى غاية منتصف النهار، لكن أحوال الطقس لم تتغير. أمضينا كلّ الأمسية نترقب أيّ تحول، لكن الأمور بقيت على حالها، ولمّا قرب حلول الليل قامت أمفتريت وصرخت في وجوهنا والدموع تسيل من عينيها: ألا تريدون أن تفعلوا شيئاً لإنقاذهما؟ ما بكم جالسون هكذا كالصخور؟ إن كنتم خائفون، فإنني مستعدة للخروج والبحث عنهما. لكننا لم نجبها بل أطرقنا رؤوسنا أرضا، عندئذ اشتد غضبها وقالت بلهجة حادة: سأخرج للبحث عنهما. تقدمت خطوتين إلى الأمام، فشدتها أرتيميس قائلة لها برقة: تعقلي يا أمفتريت، لن تتمكّني من السير بضع خطوات في هذا الطقس إلا وتفقدي فيه حياتك، فردّت عليها صارخة بغضب: لا تمسكيني، دعيني أخرج، يجب أن أنقذهما، لقد وعدني بالعودة سريعا، وبالتالي فإنني أرى وجوب مساعدته على العودة. همّت بالتقدم والانفلات من قبضتها، لكن إيوس أمسكتها هي الأخرى حيث قالت لها بصوت عال وحانق: أتسمعين ما قالته لك أرتيميس؟ هل تريدين أن تموتي؟ إذا عاد بوسيدون فماذا سيقول لنا؟ لقد تركتموها تخرج، لقد تعمدتم موتها! فنهضتُ وتقدمت إليها قائلا بصوت يحمل كلّ معاني الرقة والرجاء: تعقلي يا أمفتريت، فالأمور لم تنقض بعد، إذ هناك أمل كبير في تمكّنهما من قضاء ليلة أخرى في الخارج، فهما قويي البنية ويستطيعان تحمل هذا الطقس، لذلك لا يجب أن تفقدي الأمل، انظري إلى هيلينا، هي الأخرى قلقة على مينيلاوس لكنها تعلم بأنّ هناك فرص كبيرة في بقائهما على قيد الحياة، لا يجب أن تفقدي الأمل، أتفهمين؟ أرسلت إليّ نظرة لم أشاهدها من قبل في عينيها، لقد قرأت فيها وكأنها تحمّلني كلّ ما حدث وكأنني السبب في الوضع الذي نحن فيه، لكنني لم أعر ذلك اهتماما حيث أنها ما لبثت وأن جلست على الأرض واضعة رأسها بين يديها. عاد الصمت ليخيم من جديد على كامل أرجاء القاعة الكبيرة، حيث لم نكن نسمع سوى أصوات

الرياح في الخارج وصوت اصطكاك الحطب المشتعل أمامنا، نظرت إلى مقياس الحرارة فإذا به يشير إلى درجة -29°، ممّا يعني أن الدرجة في الخارج يمكن لها أن تكون بين -38° و-44°، وهنا أيقنت أنّ الفرص قد أصبحت ضئيلة جدا لأن نجدهما أحياء.

أمضينا ليلة ثانية بيضاء لم ينم فيها أحد منّا، لم تكن لدينا شهية للأكل، كنّا قابعين حول النار وكلّ واحد منّا يسترجع في ذهنه ذكرياته مع مينيلاوس أو بوسيدون إلى أن حلّ الصبح، كانت العواصف متواصلة لكنها أقل حدّة من الأمس، بينما تظل دائما خطيرة، لكنني على الرغم من ذلك قرّرت الخروج بصحبة أورفيوس، حيث أعلنت للجميع بأننا سننظر بجوار المغارة علّنا نتمكّن من العثور عليهما، فقد تبادرت إلى ذهني في الليل إمكانية تقدمهما باتجاهنا، إذ من الممكن أن يكونا قريبين ولا يملكان القوة لمواصلة الطريق لذلك ولكي أبعد أيّ تأنيب للضمير قرّرت المغامرة مع أورفيوس، حيث عرضت عليه الأمر واستشرته إن كان قابلا مصاحبتي، وملأ أبدى حماسه للقيام بالمهمة أعلنت للجميع الفكرة وكانت رفيقاتي غير راضيات بالأمر إلا أنهن لم يعارضن رأيي، بينما رودوب وعلى غير عادتها، قامت قائلة بارتباك: ألا ترون أنّ العواصف ما تزال قوية؟ ألا يكفي أننا فقدنا شخصين؟ لو كان بوسيدون ومينيلاوس معنا لما سمحا لكما بالخروج في هذا الطقس، فقاطعتها هيلينا مؤيدة: معك الحق، لا يجب أن تغامرا بحياتكما، ليس في وسعنا ما نقوم به سوى انتظار هدوء العاصفة، فلا تلقيا بنفسيكما إلى الهلاك. لكنني رفضت طلبهما حيث قلت للجميع بصوت حازم: إننا لن نبتعد كثيرًا، سنحاول البحث عنهما في الجوار فلا يجب عليكم أن تقلقوا. ارتدينا بسرعة معاطف إضافية وغطينا وجوهنا بالقبعات ولبسنا أحذيتنا وقفازاتنا واتجهنا إلى باب المغارة، وبمجرد أن حاولنا الخروج قابلتنا رياح قوية أوقعتنا أرضا، نهضت وساعدت أورفيوس على النهوض قائلا له: عليك أن تحذر، فالعاصفة ما تزال قوية، ثمّ بدأنا بالنزول. كانت الرياح شديدة جدا والبرد قارس إلى حد لا يمكن تصوره، كنّا لا نرى أكثر من خطوتين أمامنا، طلبت من أورفيوس أن يمسك بي حتى لا

نضيع عن بعض إلا أنه لم يسمعني، فصرخت في أذنه: أمسكني جيدا من معطفي، فهز رأسه على أنه فهم ما أردت قوله إذ أنه لم يلبث وأن تشبثّ بشدة بمعطفي من الجهة اليمنى، كنّا نستعين بعكازين للمشي، وكانت خطواتنا قصيرة لكنها كانت ثابتة، اتخذنا الطريق المؤدي إلى الغرب، كنّا لا نستطيع أن نفتح أعيننا من شدة الرياح. لقد كان الأمر في حقيقته لا يعدو أن يكون محاولة يائسة منّا، فنحن نعلم بأنّ الحظوظ ضئيلة جدا إن لم تكن مستحيلة، لكنّ استحالة الوقوع تحمل في حقيقتها إمكانية تحقق -غير المعقول- وإن كانت غير مؤكدة، كنّا متعلقين إذن بتلك الإمكانية، أخذنا ننظر يمينا وشمالا عسانا نشاهد آثارا أو شيئاً من هذا القبيل يشير إلى مرور شخص هناك لكننا لم نلاحظ أيّ شيء، فالثلوج قد غطّت كلّ شيء. مشينا مسافة معتبرة حتى شعرنا بأنّ قوانا قد بدأت تخور، فنظرت إلى وجه أورفيوس حيث تلاقت عيناي بعينيه، ففهم مباشرة مرادي، إذ هز رأسه علامة على موافقته، ثمّ أقفلنا عائدين إلى المغارة، سقطنا أكثر من مرة أثناء عودتنا، وكان الواحد منّا يساعد الآخر على النهوض والاستمرار في المشي. كان سيرنا مستقيما، وبعد مدة من الزمن أحسست بأنه من المفروض أن نكون قد وصلنا إلى المغارة لكننا لم نلمح الجبل الذي تقع فيه، فعلمت بأننا قد أخطأنا الطريق حيث توقفت وبدأت أصرخ في أذن أورفيوس بارتباك: ليس هذا هو الطريق، لقد أخطأنا الطريق، فحرّك رأسه دلالة على تأييده للنتيجة التي وصلت إليها ولاحظت تغيّر ملامح وجهه. عدنا بسرعة أدراجنا. كان الأمر صعبا للغاية، فالبرد تمكّن من التسلل إلى داخل ثيابنا حيث أثّر بشكل رهيب على أجسامنا، أصبحت لا أحسّ بيدي لدرجة أنّ العصا التي كنت أستعين بها قد سقطت منيّ ولم أستطع الانحناء لالتقاطها، فيداي تجمدتا من البرد ولم يعد بإمكاني تحريك أصابعي، أدركت أنه لو لن نسرع أكثر سيكون مصيرنا الهلاك لأن البرد سيصل إلى أرجلنا وبالتالي لن تقوى على حملنا وسنموت تحت تلك الثلوج المتساقطة. توقفنا في منتصف الطريق وبدأت أنظر يمينا وشمالا عساني أشاهد الجبل، كنّا في الحقيقة لا نستطيع أن نرى أكثر من خطوتين أمامنا لذلك أيقنت أنه لا إمكانية لرؤية

الجبل ولا المغارة، فقررت مواصلة الطريق معرجين على اليسار، كنّا نمشي خطوتين أو ثلاث ثم نتوقف لأخذ الراحة، فقد كنا منهكي القوة، وظنّنت أنها النهاية بالنسبة لنا إذ أحسسنا بأننا ندور في المكان نفسه.

سقط أورفيوس أرضا، فحاولت أن أساعده على القيام لكنّني لم أستطع، أدركت أنه قد أغمي عليه، فقلّبته على ظهره لأنه كان مستلقيا ووجهه مغمور في الثلج، ثمّ بدأت أفرك يديه وصدره ووجهه وأنا أصرخ بارتباك: هيا استفق لا تنم، لقد وصلنا، بقيت خطوات قليلة فقط، لا تدعني وحدي، فكّر في رودوب، فكر في الآخرين، أنا أعرفك قويا، لا تستسلم حاول، هيا...حاول! ففتح أخيرًا عينيه واستعاد أنفاسه من جديد، ساعدته على الوقوف، ثمّ طلبت منه أن يتكأ عليّ، وواصلنا السير، كنّا نمشي خطوة بخطوة. ازدادت قوة الرياح وتمكّن البرد الشديد منّا لدرجة أنني ظنّنت بأنه سيتجمّد دمنا. حاولت من جديد تبيّن المكان الذي وصلنا إليه إلا أنني لم أهتد إلى أيّ معلم فالمشهد مماثل في كل موقع. واصلنا سحب أنفسنا وكدت أن أستسلم بدوري، حيث توقفت، وفكرت في أن أتهاوى على الثلج لأستريح نهائيا، فإذا بي أحسّ بيد تمسكني من الجهة اليسرى، كنت أظنّ أنّ أورفيوس هو الذي تحوّل إلى تلك الجهة بعد أن كان على يميني، لكنني لاحظت أن أورفيوس لا يزال عالقا بي على الجهة اليمنى، فنظرت جيدا لأجد ديموفون واقفا بجانبي، حيث صرخ في أذني قائلا: هيا تحمّلا قليلاً، لقد وصلتما. كنّا في الحقيقة غير بعيدين عن المغارة، ساعدتنا النساء على الصعود إليها، حيث غيّرنا ملابسنا ثمّ جلسنا قرب النار، قدموا لنا الماء الساخن فشربناه، كانت شفتي يابستين، أما أصابع يداي وأصابع رجلي، فقد كانت شديدة الحمرة، لا أحسّ بوجودها، لذلك تكفلت سيليني بمساعدتي على تغيير ثيابي، وهي التي أشربتني الماء لأنني كنت لا أقوى حتى على مسك الكوب، بينما قامت رودوب بالشيء نفسه مع أورفيوس، بعدها استلقينا مباشرة على الجلود ونمنا، فالتعب قد أنهكنا كثيرًا.

لمّا استيقظت في الصباح، كانت العاصفة قد هدأت تماما، حيث أُعلمت بأنّ ديموفون وداناي قد ذهبا للبحث عن مينيلاوس وبوسيدون لوحدهما على الرغم من إلحاح كل من أمفتريت وهيلينا لمرافقتهما، أما أورفيوس فلم يستيقظ إلا بعد منتصف النهار، كنت متأكدا من أنهما لن يجداهما بسرعة، فالثلوج المتساقطة طيلة اليومين الماضيين كانت كثيفة مما سيصعب من مهمتهما، ولمّا عادا قبل حلول الليل، دخلا وعلامات التعب والحسرة بادية على محياهما، فابتدرتهما أمفتريت بالسؤال: هل ماتا؟ فردّت داناي محاولة محو الكآبة التي رسمت على وجهها: كلا، إننا لم نعثر عليهما، فقلت لهما: غدا سنخرج معا للبحث عنهما.

في صبيحة اليوم الموالي، حضّرنا أنفسنا للخروج وهتفت لأرتيميس قائلا: عليك أن تبقي مع أمفتريت وهيلينا، أما الباقي فبإمكانكم أن تأتوا معنا، لكن أمفتريت ردت عليّ غاضبة: بل سأمشي أيضاً معكم، والرأي نفسه اتخذته هيلينا، لكنني رفضت وقلت حانقا: عليكما التزام المغارة، فنحن لسنا بحاجة إليكما، لكنهما أصرتا على موقفهما، فما كان منيّ سوى الرضوخ لمطلبهما، فخاطبت أرتيميس بقولي: حتى أنت يا أرتيميس بإمكانك مرافقتنا، فقالت مندهشة: والمغارة؟ فقلت لها بانفعال: لن تهرب!. كنت في الأصل قلقا جدا، فمجيء كلّ من أمفتريت وهيلينا سيعقّد الأمور علينا، لأنني كما أعرف أمفتريت، لن تستطيع أن تمسك أعصابها، وبالتالي كنت خائفا عليها من أن يصيبها أيّ مكروه. أخذنا معنا آلات الحفر واتجهنا نحو الغرب، مشينا مدة معتبرة إلى أن وصلنا إلى المكان الذي قصده مينيلاوس وبوسيدون، فتوقفت هناك وقلت لهم بصوت عال: هنا يوجد النفق الذي سبق وأن حفرناه، سنبدأ به، فلربما سنجدهما مختبئين فيه. قام كلّ من ديموفون وداناي بعملية الحفر حتى وصلا إلى النفق الذي لم تردمه الثلوج، كانت دقات قلبي تسمع من بعيد، لأنني كنت شبه متأكد من وجودهما بالداخل، قال ديموفون بصوت كئيب: سأدخل لوحدي، فقالت له داناي: بل سأدخل معك، لم يعارضها ديموفون حيث دخلا معا إلى ذلك النفق، كانت لحظات الانتظار عصيبة جدا، إذ كنّا ننتظر من

يحمل لنا نبأ موتهما، فجميعنا على علم باستحالة بقاء أيّ شخص بالخارج حيًّا في مثل ذلك الطقس، ولمدة ثلاثة أيام متعاقبة من دون أكل أو نار، لقد كنّا نعلم بأنهما قد فارقا الحياة ولم يتبق لنا سوى العثور على جثتيهما. لمّا لاحت داناي الأولى كتم الجميع أنفاسه ليستمع إلى النبأ الأليم لكنها قالت في شيء من الضيق: إنهما لا يتواجدان هنا!.

عند سماعي لتلك الجملة عاودني الأمل من جديد، فبما أنهما ليسا هنا فهما حتمًا ... لكنني لم أستطع الاهتداء إلى المكان الذي يمكن لهما الاحتماء فيه، فعدت مرة أخرى إلى حالتي الأولى حيث ظهرت علامات الحزن والقلق معا على وجهي، فقال ديموفون حائرا بعد خروجه من النفق: أين يمكن أن يكونا يا ترى؟ كنت أحاور نفسي حول مختلف الأماكن التي يمكن أن ألجأ إليها في حالة هبوب العاصفة، وأخيرًا تبادرت إلى ذهني فكرة، فقلت لهم بصوت خفيض: يوجد بين هذا النفق وبين المغارة ثلاثة أنفاق أخرى كنّا قد حفرناها من قبل للبحث عن المؤونة، ولم نغلقهما، فمن الممكن أن يكونا قد لجئا إليها، وتابعت الحديث مع نفسي قائلا: إنّ الثلوج وعلى الرغم من كثافتها لا يمكن لها أن تغطيهما في حالة تواجدهما في الطريق وإلا لكنّا عثرنا عليهما ممّا يعني أنّهما لم يموتا في الخارج!. اتجهنا عائدين إلى موقع النفق الأول حيث حفر فتحته ديموفون بمساعدة أرتيميس و إيوس، لكننا لم نعثر عليهما، فواصلنا المشي باتجاه النفق الثاني أين أزاح ديموفون وداناي عن فتحته لكننا لم نجدهما فيه أيضاً، فلم يتبق لنا سوى النفق الأخير وكان غير بعيد عن المغارة، أظنّ أنني مررت بمحاذاته مع أورفيوس يوم العاصفة، لكننا لم نلاحظ آنذاك شيئاً. قامت داناي بمساعدة إيوس في إزالة الثلوج عن فتحته ثمّ قام ديموفون بالدخول، ليعود بعد لحظات قلائل، فالمغارة لم تكن عميقة. كانت عودته غير عادية بالنسبة لنا، علمنا مباشرة بالأمر، إذ لم يكن من الضروري له أن يتحدث لأنّ علامات وجهه تعبّر عن الفاجعة. صرخت أمفتريت والدموع تتهاطل من عينيها: بوسيدون، عزيزي، أين أنت؟ لماذا تركتني؟ آه يا حبيبي كيف سأعيش الآن من دونك؟ دعوني أراه. ثمّ حاولت الدخول إلا أنّ ديموفون منعها

من القيام بذلك، قائلا بأسف: يستحسن لك ألا تريه، احتفظي فقط بصورته لمّا كان حيًّا، بينما أجهشت هيلينا بالبكاء حيث وضعت رأسها على كتف سيليني، فأحاطتها هذه الأخيرة بذراعيها قائلة لها برقة : الصبر يا هيلينا، أنت تعلمين أنّ هذا مصيرنا جميعا. ثمّ ما لبثنا وأن رأينا أمفتريت تسقط على الأرض مغشيا عليها، فطلبت من ديموفون أن يحملها إلى المغارة بمساعدة أرتيميس، كما طلبت من سيليني أن ترافق هيلينا، أما الباقي فقلت لهم بصوت حزين: علينا أن نحطم هذا النفق ليدفنا فيه. ثمّ دخلت فيليس برفقة داناي وقامتا بإسقاط الثلج إلى أن أقفل النفق نهائيا. كانت داناي تبكي للمنظر الذي وجدت فيه بوسيدون ومينيلاوس، حيث قالت لي وهي تحاول إيقاف الدموع التي تتساقط من عينيها: المسكينين كانا متعانقين وكأنهما يودعان بعضهما البعض. ثمّ أقفلنا عائدين إلى المغارة في صمت رهيب .

***

مرّ على موت مينيلاوس وبوسيدون أكثر من ثمانية أشهر، أصبحت الأيام تعدو بسرعة مذهلة وهي تحملنا إلى المصير المجهول. كنت قد فقدت من جديد الرغبة في الكتابة، وكدت أن أتوقف عنها نهائيا، فموت صديقي قد أثّر فيّ كثيرًا، لكنني عدلت عن رأيي لأنني أعتبر ذلك استسلاما لليأس، وهذا ما أرفضه، فالحياة يجب أن تعاش بأفراحها ومآسيها. لكنه من الصعب أن نرى أصدقائنا يذهبون هكذا ونحن لا نستطيع فعل أيّ شيء.

لمّا عدنا إلى المغارة بعد دفنهما تحدثت قليلاً مع هيلينا وقلت لها بأنه يجب أن تكون فخورة برفيقها إذ أدى مهمته على الأرض على أحسن ما يرام حيث كان نعم الصديق ونعم الرفيق، نحن ننتظر جميعا الموت، ولا يملك الإنسان لا اللحظة ولا الوسيلة التي يريد عن طريقها توديع هذا العالم. إنّ صيغة الحياة تجعل كلّ لحظة من لحظاتها خطرا علينا إذ يمكن أن يحدث فيها شيء ما يمكن أن يودي بنا جميعا، فلا يجب إذن أن نطيل التفكير في هذا الأمر، فالمهم أنه كان على علم بأننا نصارع هذه الطبيعة من أجل البقاء، ولقد تمكّن منها عدة مرات والآن جاء دوره كما جاء من قبل دور بروميثيوس وغيره. لم أجد الكلمات التي أعبر فيها عن تأثري أنا أيضاً بفقدان مينيلاوس، فقد كان لي الذراع الأيمن، وأنا بدوري علّمته كلّ الأشياء التي تلقيتها من بروميثيوس، لذلك فإن خسارتي وخسارة القبيلة له لا يمكن تعويضها. كنت محتارا من نفسي، فأنا لم أذرف أية دمعة عليهما، أظنّ أنّ قلبي قد أصبح كالحجر حيث جمّده البرد والثلوج المتساقطة، لا يتأثر مطلقا، فتقبلي لجميع الإمكانيات التي يمكن أن تحلّ بنا جعلني في كلّ مرة أنتظر المزيد من المآسي.

عندما استيقظت أمفتريت من إغمائها، كانت شديدة العياء حيث وجدت أرتيميس بجانبها إذ لم تفارقها ولو للحظة، ساعدتها على الجلوس، ثمّ قدّمت لها بعضا من الماء الساخن وبعضا من الأكل، لكنها رفضت تناوله بينما شربت قليلاً من الماء. لم تتحدث إطلاقا بل ظلّت شاردة الذهن طوال اليوم وبين

الفينة والأخرى كانت قطرات الدموع تنزل وتبلّل وجهها الجميل في صمت عجيب، لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً، لقد تحدثت مع أرتيميس عن ضرورة الاعتناء بها، فأجابتني بأنها على علم بما يجب أن تقوم به. كنّا قد قضينا أسبوعا خيّم فيه الحزن والصمت على جميع أفراد القبيلة، ثمّ رأيت أنه من الضروري الخروج للبحث عن المؤونة لأن الجو طيلة ذلك الأسبوع كان هادئا، فخرجت مع أورفيوس وديموفون وداناي التي رافقتنا لأول مرة. آثرنا عدم الابتعاد والقيام بالحفر في إحدى الجبال المحاذية لجبل المغارة، حيث اخترت موقعا وبدأنا الحفر فيه لكننا أحسسنا جميعا بالصعوبة التي لم نعتدها في السابق، فمن عادتنا أن نجد الثلج سهلا في الأول والطبقات الجليدية لا نصل إليها إلا على بُعد خطوات من السطح، لكننا في تلك المرة وجدنا الطبقة الجليدية تقابلنا مباشرة، كانت عملية الحفر إذن صعبة للغاية، حيث لم نتمكّن من حفر سوى جزء صغير طوال ذلك اليوم، كانت قوانا منهكة ومعنوياتنا منحطة. قمنا بتغطية الفتحة كعادتنا حتى لا تتكدس بداخلها الثلوج التي يمكن أن تتساقط ثمّ عدنا أدراجنا إلى المغارة. وجدت هيلينا في استقبالنا حيث كانت تتحدث مع رودوب. كم كنت سعيدا لتمكّنها من التغلب على حزنها، بينما بقيت أمفتريت جالسة في أحد أطراف القاعة الكبيرة ومعها أرتيميس التي وبمجرد مشاهدتي قامت لاستقبالي حيث عانقني وقبلتني كعادتها، ثمّ عادت من جديد إلى أمفتريت. بعد تغييري للملابس التي كنت أرتديها، أخذت معي إناء الماء الساخن وجلست بجانب أمفتريت وحاولت التخفيف عنها، فسألتها برقة: هل تريدين أن تشربي؟ حركت رأسها معلنة رفضها، ثمّ سألتها من جديد قائلا: ما رأيك أن تحضّري لنا الأكل؟ فنظرت إليّ وكأنها لا تصدق ما أقوله، لكنني تابعت حديثي قائلا: هيا انهضي، ساعديها يا أرتيميس. لم أترك لها فرصة الرفض أو حتى التفكير حيث لم تلبث أمفتريت وأن ذهبت مع أرتيميس إلى قاعة المؤونة لتقطيع شرائح اللحم، وحاولت إشراكها في الليل في حديثنا عمّا قمنا به في اليوم إذ بدأت أعرض قوة داناي مازحا: لم أكن أعرف بأنها بتلك القوة، كيف لي أن أرضى أن تكون لي رفيقة وهي أقوى مني؟ أنا أحب

النساء الناعمات والرهيفات، فقالت داناي حانقة: إذن لن أمشي معكم بعد الآن، فقال ديموفون محتجا: عوض أن تطلب من الأخريات مساعدتنا، فإذا بك تعمل على إنقاص عددنا. ثمّ ضحك وضحك الآخرون معه لأول مرة بعد الحادثة، فقلت متصنعا الجد: حسنا، بما أنك تريد أن يشاركنا الآخرون في عملنا، فإنني أقترح أنه في كلّ مرة نخرج فيها إلا ونأخذ معنا امرأة أخرى فما رأيك، وهكذا نكون قد ساوينا بينهن جميعا. فقال ديموفون وهو يضحك: أنا موافق وستأتي فيليس معنا غدا، فقاطعته داناي قائلة: لكنني أريد مساعدكم، فقلت لها مبتسما: بإمكانك المجيء معنا، فنحن لا نرفض المساعدة. ونفذنا رغبتها حيث أصبحت تمشي معنا في كلّ رحلاتنا للبحث عن المؤونة والحطب، بينما كنّا في كلّ مرة نأخذ امرأة مختلفة تبعا لأدوارهن بما فيهما أمفتريت وهيلينا، في حين آثرت بقاء سيليني في المغارة وعدم المغامرة بها لبنيتها الضعيفة، وعادت الأمور شيئاً فشيئاً إلى ما كانت عليه قبل موت مينيلاوس وبوسيدون .

***

بدأت العواصف تعود تدريجيا وبقوتها المعتادة منذ حوالي ثلاثة أشهر وأصبحت الأرض جليدية بأتم معنى الكلمة، فدرجات الحرارة قد وصلت إلى أرقام لم نعهدها من قبل، ففي داخل المغارة كانت تصل في الليل إلى -36°، وكأنّ النار التي نشعلها لا فائدة منها. كانت التيارات الباردة تدخل إلى القاعة الكبيرة التي كنّا ننام فيها جميعا، فقررت أن نعمد إلى إغلاق باب المغارة من جديد حتى ننقص دخول الهواء البارد، فكانت بذلك درجات الحرارة تتراوح ما بين -20° و-26°. أخرجنا كلّ الأغطية التي كانت بحوزتنا حيث كنّا نضعها كتلا علينا لدرجة أننا أحيانا لا نستطيع التنفس من جراء ثقلها على أجسامنا. لاحظت العياء باديا على داناي التي بدأت تسعل، فأمسكت جبينها فإذا به ملتهب مما يوحي إصابتها بالحمى. طلبت منها أن تتغطى وألا تخرج مطلقا من الأفرشة، وأحضرت بعض الجليد الذي أحطته بقطع من القماش ثمّ وضعته على جبينها، كنت قلقا جدا من أن أفقدها كما فقدت من قبل فينوس وهستيا وستيروب، لكن ما لبث وأن جاء دور إيوس حيث أصبحت تعاني هي الأخرى من الحمى، فساعدتني كلّ من أرتيميس وسيليني في الاعتناء بهما، لكن أرتيميس أصيبت بدورها بالحمى، عندئذ أدركت بأنها عدوى، فطلبت من ديموفون أن يساعدني على نقلهن إلى القاعة المجاورة حيث أشعلت أمفتريت النار لتدفئتها، وطلبتُ من الجميع عدم دخول القاعة، بما فيهم سيليني وكنت الوحيد الذي يعتني بهن، بقيت معهن لمدة يومين حيث لم تفارقهن الحمى وكنت أضع الجليد على جبينهن وأدلك أجسامهن بالدهون، وأغيّر من أغطيتهن بالإضافة إلى مساعدتهن على شرب الماء الساخن وتناول قطع اللحم. وفي اليوم الثالث دخلت أمفتريت وقالت لي بصوت مفعم بالشفقة والحنان: يجب عليك أن ترتاح، دعني أساعدك، فرفضت شاكرا عرضها ومحذرا إياها من أن تنتقل العدوى إليها، لكنها أصرّت على البقاء، فقلت لها مستسلما: حسنا! سنحاول أن نعتني بهن معا وفقا لرغبتك أيتها العنيدة!. كان العمل أقل صعوبة بوجود أمفتريت، ولاحظت على عينها القلق الشديد الذي تشعر به إزاء مرض صديقتها أرتيميس.

جاءتني سيليني غاضبة حيث قالت: لماذا رفضت أن أساعدك بينما قبلت أمفتريت؟ فابتسمت وقلت لها: لأنني أردت أن تكون أمفتريت بجانبي!، فرأيت الشرر يتطاير من عينيها، حيث خاطبتني حانقة: إن كان هذا مرادك، فما عليك إلا أن تفاتحها في الأمر. فقلت لها مازحا: أنا أنتظر فقط اللحظة التي تطلبني فيها!، نظرت إليّ من جديد وقالت دهشة: أأنت محق أم أنك تمزح؟ فضحكت وقلت لها: كلا، فأنا أداعبك فقط، هل تعلمين السبب الحقيقي لرفضي مساعدتك؟ فقالت حائرة: لماذا؟ فأجبتها قائلا: لأنني لا أريد أن أفقدك. ابتسمت سيليني ورافق ابتسامتها بريق خاص كان يشع من عينيها، ثمّ اتخذتْ مظهر الجد قائلة: كلا، أريد أن أعرف السبب الحقيقي. فقلت لها: فكّري جيدا، وتركتها عائدا إلى قاعة المرضى كما سماها أورفيوس. وفي اليوم التالي عادت إليّ سيليني وهي تضحك قائلة: لقد بحثت طوال الليل عن سبب مقنع ولم أجده أعتقد أنك فعلا خائف علي، فقلت لها: يمكنك الآن الدخول فأرتميس قد بدأت تتماثل للشفاء مع داناي ولم تبق سوى إيوس التي تعاني قليلاً من الحمى. دخلنا معا إلى القاعة حيث وجدت أمفتريت جالسة بجانبهن، فقلت لها: يمكنك الآن الخروج فقد جاءت سيليني لتأخذ مكانك، فنظرت إليّ كأنها تريد أن تقول بأنها تفضل البقاء حتى تشفى إيوس، لكنني قاطعت تفكيرها قائلا: بإمكانك أخذ أرتيميس وداناي معك. ساعدتها سيليني في إخراج أرتيميس من القاعة بينما اتكأت عليّ داناي حيث أخرجتها بدوري إلى القاعة الكبيرة، ثمّ عدت ووجدت سيليني بجانب إيوس، اقتربت منهما وقلت في أذن سيليني هامسا: هل تعلمين بأنك جميلة جدا؟ فاستغربت من كلامي، فأضفت: إنك رائعة عندما تساعدين الغير، فرفعت حاجبيها وقالت متصنّعة لهجة الآمر: اخرج ودعني أقوم بعملي، كنت على علم بأن إيوس تسمع حديثي إذ رأيت البسمة ترتسم مباشرة على شفتيها، كانت قد تماثلت هي الأخرى للشفاء، وفي الليل خرجت بدورها من قاعة المرضى برفقة سيليني، فجلست هذه الأخيرة بجواري ثمّ هتفت للجميع قائلا: بمناسبة خروج آخر مريضة من المستشفى الموجود بالقاعة الصغيرة، ونظرا للمجهودات الجبارة التي قامت بها كلّ من أمفتريت

وسيليني .. لكن هيلينا قاطعتني قائلة: وأنت، فقلت: نعم والمجهودات الجبارة التي قمت بها أنا أيضاً، فإنني أطلب من أورفيوس أن يتحفنا بآخر مقطوعة وآخر قصيدة عنده، كان كلامي يثير الضحك لدرجة أنّ ديموفون سقط أرضا وهو يقهقه، ثمّ قال: إنني عندما أسمعك تتحدث بهذا الشكل أتصور هؤلاء البراحين الموجودين في بغداد والذين تناولتهم حكايات ألف ليلة وليلة، فقلت له مستطردا: حسنا، وبعد أن يتحفكم أورفيوس بمقطوعته سأقوم بسرد إحدى روائع شهرزاد، ثمّ سكتت. لقد كدت أن أقتل ديموفون حيث أنه ومن شدة ضحكه انقطعت أنفاسه ولم يتمكّن من استعادتها إلا بعد جهد، حيث قال مازحا وهو يمسح قطرات الدموع من على عينيه: من فضلك اسكت ولا تحكي لنا شيئاً، فأنا لا أريد أن أدخل قاعة المرضى بسببك، فانفجر الجميع ضحكا، أمضينا ما تبقى من الليل على الأنغام والقصائد التي كان أورفيوس يغنيها لنا، كانت جميلة فعلا، حيث كنّا سعداء جدا خاصة أنا، فقد كنت أعتقد أنني قد فقدت رفيقاتي نهائيا، لم تمض أيام قلائل حتى استعادت كلّ من أرتيميس وداناي وإيوس عافيتهن وعدن كما كن في السابق، وصادف شفاؤهن عودة الصفاء من جديد، حيث قررت أن نخرج في اليوم الموالي للبحث عن المؤونة .

***

كان الجو رائعا يوم أمس، طلبت من رودوب أن ترافقنا، فجاءت إليّ داناي طالبة مرافقتنا فقلت لها برقة: يجب أن تستعيدي أولا قوتك، فمكانك محفوظ بيننا، ثمّ ما لبث وأن جاءت سيليني لتقول لي بصوتها الرقيق ونظرتها الوديعة: من فضلك، أريد أن أذهب معك، فهل ستقبل؟ فأجبتها مازحا: إنك ضعيفة ولا يمكن لك تحمّل مشقة الرحلة ووجودك بالمغارة أنفع لنا ! لكنني لاحظت تغيّر ملامح وجهها، فحاولت إدراك الوضع قائلا: إنني أمزح معك فقط، فأنا سأكون جد سعيد بمرافقتك لنا ولو على سبيل التنزه. عادت الابتسامة من جديد حيث ارتسمت بصورة رائعة على شفتها .كانت طوال الطريق ماسكة بذراعي، وكان شعرها الذي تغطيه قبعتها البيضاء يتساقط بين خديها كالحرير الناعم ويتمايل بفعل النسمات يمينا وشمالا. كانت ترمقني من حين لآخر بنظرات ساحرة ملؤها الحب والسعادة، وعندما تبتسم وترفق ابتسامتها بتلك النظرة لا يسعني إلا أن أستسلم لها، فبعد موت فينوس أصبحت هي الصغرى في القبيلة لذلك كنت أدللها نوعاً ما. لمّاَ رافقتنا في هذه الرحلة كنت أعتقد أنها لن تستطيع العمل بيديها النحيفتين إلا أنها أبدت قوة لا مثيل لها وكأنها تريد أن تبرهن بأنها هي الأخرى تستطيع القيام بالأعمال الكبيرة، كان رفضي في السابق لمرافقتها لنا بسبب بنيتها الضعيفة، لكنني أيقنت بعد ذلك أنها تعمل بالجهد نفسه الذي تعمل به غيرها من النساء، لقد كانت سعيدة جدا طوال اليوم، كنت أحثها على الراحة لكنها كانت ترفض طلبي إذ استمرت في العمل معنا إلى غاية آخر النهار، وفي طريق العودة لاحظت أنها متعبة، فقلت لها بصوت رقيق: هل أحملك على ظهري؟ ابتسمت وقالت: أصحيح ما تقول؟ فأجبتها مبتسما: نعم، فقالت وهي تضحك: إنني موافقة، ثمّ قفزت على ظهري وأحاطت بيديها عنقي، فقلت لها مازحا: هل تريدين خنقي؟ فضحكت وقالت: كلا، ثمّ قرّبت رأسها من رأسي إلى أن وصلت إلى وجهي حيث وضعت قبلة على

ذقني، فقلت لها متوعدا: لا تتحركي وإلا فإنني سأرميك أرضا، ابتسمت وقالت بخضوع: سمعا وطاعة يا مولاي. لقد أحدثت سيليني شيئاً جديدا في قلبي، حيث عادت تلك المشاعر التي كنت أحسّ بها قبل موت فينوس، كنت أحسّ بالسعادة إذ عرفت سيليني كيفية تحريك غرائزي من جديد، فأصبحت لا أفكر إلا فيها، حيث أمضينا الليل معا في ممارسة الحب، كان شيئاً مختلفا تماما عما ألفته وكأنني لم أقم به من قبل معها، لقد أحسست بالسعادة تعود إليّ من جديد على الرغم من كلّ المآسي التي تعرضت لها، ولمّا حلّ الصبح جاءت إليّ إيوس قائلة وهي تحاول أن تصطنع مظهر الجد في كلامها: لقد سمعت بما قمت به مع سيليني، اسمع جيدا، سأرافقك اليوم للعمل في الخارج، وفي الليل عليك أن تقوم بنفس ما قمت به مع سيليني أتسمع؟ كان حديثها على مسمع من أورفيوس الذي انفجر ضحكا حيث قال مازحا: عليك أن تحتفظ بقوتك وألا تجهد نفسك في العمل بالخارج ! لم يكن لديّ أيّ جواب أقدمه لها سوى التزامي الصمت بينما ازداد وجهي احمرارا.

***

قضينا ثلاثة أشهر تناوب فيها الصفاء مع العواصف الثلجية، شكّل لنا البحث عن المؤونة والحطب هاجسا حقيقيا لأننا بدأنا نحس بصلابة الجليد، لكننا لم نستسلم إذ لم يكن لدينا حلّ آخر، فالابتعاد عن المغارة قد أصبح أمرا مستحيلا بعد حادث مينيلاوس وبوسيدون، لأننا لا نعرف تغيرات الطقس الذي أصبح مجنونا وغير مفهوم على الإطلاق، ففي القديم كان لدينا فصلين: فصل الشتاء القارس الذي يمتد من أربعة إلى خمسة أشهر وفيه تحدث العواصف وتتناقص كثيرًا درجات الحرارة، ثمّ يأتي بعده فصل الشتاء المعتدل حيث يعمّ الصفاء الذي تتخلله من حين لآخر العواصف الثلجية لكنها عابرة لا تدوم طويلا. وعلى الرغم من برودة الطقس في ذلك الفصل إلا أنه كان بالإمكان الخروج والابتعاد عن المغارة لأننا كنّا نستطيع الاحتماء في الأنفاق التي كنّا نحفرها. أما الآن، فإنه يستحيل المبيت داخل أيّ نفق، فدرجات الحرارة تتراوح ما بين -40° و-50°، وأظنّ أنها ستستمر في النزول مع الوقت، فالشمس حتمًا قد تناقصت كثيرًا. إن عدم ثبات الطقس يجعلنا لا نستطيع التنبؤ بأحواله وتقلباته، فأحيانا يعمّ الصفاء وترتفع درجات الحرارة ثم تتغير الأوضاع مباشرة حيث تسود العواصف والبرودة الشديدة، ويستمر الحال على هذا النحو طوال العام، لذلك آثرنا استغلال كلّ الأيام التي يكون فيها الصفاء للعمل، فكنّا نحفر الأنفاق في مناطق مختلفة ثمّ نغطي فتحاتها، لنعود إليها بعد أيام حيث نجد الجليد قد أصبح هشًّا نوعاً ما لنواصل فيها عملية الحفر حتى نعثر على ضالتنا، كانت جميع النساء تشاركنا في العمل، فأحيانا ترافقنا اثنتين ومرات أخرى ثلاث أو أربع تبعا لرغبتهن، لم أكن أفرض على إحداهن مرافقتنا بل تركت لهن مطلق الحرية، وفي الحقيقة لم يكن من الضروري تحديد من يذهب معنا لأنهن واعيات بالمسؤولية التي هي على عاتقهن، إنهن يعلمن بعدم وجود

أيّ حسد أو صراع أو نفاق بيننا، فكلنا نشكل وحدة متماسكة. لقد مضى وقت طويل جدا لم يحدث فيه أدنى صراع بين أفراد القبيلة، كنت فرحا بهذا الأمر لأننا وصلنا إلى رغبتي في تحقيق هذا التلاؤم على الرغم من أنه لم يكن تاما بسبب تواجد القبيلة الأخرى التي تعيش بعيدة عنا. إنّ جوّ الأخوة الذي وُجد بيننا قد ساد من دون أن يكون هناك طمع في نيل شيء في المقابل، فمن عادة الإنسان ألا يقوم إلا بالأعمال التي ينتظر من ورائها فائدة يحقّقها لنفسه، فعدم وجود المقابل يعني الإحجام عن القيام بالأعمال الموكلة. كان من الممكن جدا لأحد منّا ألا يعمل، إذ باستطاعته أن يأكل مثلنا وأن ينعم بكل الأشياء التي ننعم بها، ولن يجد من يؤنبه أو يصرخ في وجهه، لكنهم كانوا جميعا يقومون بالأعمال نفسها. كان الإنسان قديما يولد الصراعات من أجل أشياء تافهة ولا يقوم بالأعمال الموكلة له إلا رغبة منه في تقاضي المقابل سواء أكان ماديا أو معنويا حيث يمتنع عن القيام بالأعمال التي لا ينال من ورائها مقابلا، كان يقوم بالخير لأنه ينتظر من ورائه جزاء ولا يقوم بالشر لأنه يخاف من العقاب. أما الآن فقد وصلنا إلى خلق ذلك التناغم والتكامل بيننا، فلا أحد منّا يتأخر عن القيام بما يراه ضروريا حتى وإن لم يُظهر ذلك علانية للآخرين، ففي الكثير من المرات كنّا نتساءل: من قام بهذا ومن نزع ذلك أو من أتى بهذا؟ فيردّ أحد منا ليقول: أنا الذي قمت بهذا أو فعلت ذاك. كنّا لا ننتظر لا الشكر ولا العرفان من أيّ طرف منّا لأننا لا نقوم به إلا لكونه ضروريا لنا، ومن الواجب أن يفعله أحد منّا وكفى. كنت معجبا بطريقة عيشنا لأننا أصبحنا جميعا سعداء للغاية، فهيلينا أصبحت رفيقة لديموفون، وكانت في وفاق تام مع فيليس، وهذه الأخيرة هي التي عرضت عليها أن تشاركها ديموفون الذي أبدى إعجابه بها في السابق، أما أمفتريت فإنها أصبحت رفيقة لأرتيميس التي تركتني، ووافقت على طلبها طالما أنها وجدت سعادتها مع صديقتها، كنت أردّد عليهم دائما: ابحثوا عن السعادة ولو في أعماق الجليد! المهم فقط ألا تؤذوا الآخرين. لقد ساهمت علاقتهما في توطيد الأواصر أكثر بيننا. سألت أرتيميس مرة قائلا لها: لقد تركتني في الأول ولم أسألك أبدًا عن السبب، أما الآن فأنا أودّ أن

أعرف هل كان الشعور الذي كنت تبادليني إياه حقيقيا أو مصطنعا؟ هل تفهمين ما أقصده؟ فقالت مبتسمة: نعم أنا أعي حيرتك وسأجيبك بكل صراحة، إن أحاسيسي ورغباتي اتجاهك كانت صادقة ونابعة من صميم فؤادي، لقد كانت كلّ لحظة من اللحظات التي أمضيتها معك طوال هذه السنين حاملة لي كل معاني السعادة وستظل راسخة في جذور أعماقي إلى آخر رمق من حياتي، وأنا لست نادمة عليها، بل على العكس أنا ممتنة لك بها. فسألتها من جديد: ومتى بدأ اهتمامك بأمفتريت؟ فقالت محرجة: أتتذكر عندما كنت مع بوسيدون؟ كنت في الحقيقة مع أمفتريت وليس معه، ولو كان حيًّا لقال لك بأنه لم يلمسني على الإطلاق، فقاطعتها قائلا: أنا على علم بذلك، فتابعت كلامها قائلة: لكنني شعرت فيما بعد بأنّني قد ظلمتك لأنني لم أصارحك بحقيقة الأمر لذلك فضّلت قطع علاقتي معها، لقد كان بوسيدون على علم بطبيعة علاقتنا، وبما أنّ أمفتريت كانت لا تزال تحبه بل وازدادت تعلقا به، فإنه لم ير مانعا من أن أشاركه فيها، والآن وكما تعلم، فهي وحيدة بينما أنت لديك ثلاث فتيات رائعات لذلك رأيت أنه من الأحسن لي أن أقضي ما تبقى من حياتي معها، فأنا أعرف بأنك لن ترفض طلبي، ولتعلم بأنني ما أزال أحبك وما أزال معجبة بك إلى غاية الآن، فإن كنت بحاجة إليّ، فأنا أخبرك من الآن بأنني رهن إشارتك ولن تعارضني أمفتريت مطلقا، فقلت لها بإعجاب: شكرا على صراحتك، فأنا أردت فقط أن أعلم إن كنت قد ارتكبت خطئا في حقك. فردّت قائلة برقة وهي تضع يدها بحنان على وجهي: لتكن مطمئنا، أنت أحسن رفيق في العالم، فقلت لها مازحا: كفاك مبالغة. لكنها قالت: انتظر! ثمّ نادت سيليني التي كانت غير بعيدة عنا، حيث قالت لها بنبرة جادة: هل تقبلين مفارقته؟ فقالت المسكينة بارتباك وقد تغيرت ملامح وجهها: لماذا؟ فقالت لها مبتسمة: لا تخافي، إنه مجرد سؤال فقط، ثمّ نظرت إليّ بابتهاج: أترى، إنها تعشقك، ثمّ استدارت نحو سيليني قائلة: أليس أحسن رفيق في العالم؟ فردت سيليني قائلة وهي تنظر إليّ بعينيها البنيتين الجميلتين: أنا لا أفهم قصدك لكن إجابتي هي نعم ولن أغيّره بأحد مهما كان، فما كان لي إلا أن قلت مازحا:

يستحسن لي الانصراف وإلا فإنني لن أتمكّن من النوم الليلة. لقد كنت سعيدا جدا لا لتعبيرهما عن حبهما لي بل لأنني شعرت بأدائي لجزء بسيط من دوري في هذه الحياة، لقد جعلت مخلوقين على هذه الأرض سعيدين، عندما أفكّر في الأمر أستغرب من نفسي كيف لها أن وصلت إلى هذه الدرجة من السعادة وأنا مع أفراد قبيلتي نصارع معا الموت يوميا، كان صراعا من أجل البقاء، لكنه صراع يحمل في طياته التمتع بأحسن ما يمكن أن تقدّمه لنا هذه الحياة، أظنّ أننا حققنا ما لم تحققه الأجيال السابقة على الرغم من توفرها على كلّ مستلزمات الحياة الرغيدة، فأنا لست متأكدا من أنّ الناس جميعا في العصور الغابرة قد وصلوا إلى نفس درجة السعادة التي وصلت إليها أنا وأفراد قبيلتي، ولو كان لهم أن يعرفوا الوسيلة التي تحقّق لهم السعادة لما كانت تلك الحروب والنزاعات، لما أصبح ممكنا للشر ومختلف الأحاسيس الدنيئة أن تجد مكانا في نفوسهم، لما كانت لتلك العادات والتقاليد والقوانين أن توجد أصلا وتحرمهم من الكلام والفعل، بل من التنفس ومن الحياة. كلّما أفكر في أفراد قبيلتي إلا وأقول في نفسي: هؤلاء ليسوا بحاجة إلى مراجعة ضمائرهم، فقلوبهم صافية صفاء هذا الثلج المتساقط، ومشاعرهم رائعة روعة الطقس أثناء الصفاء، وعواطفهم الحارة صادقة صدق مقياس درجة الحرارة الذي لا يكذب أبدًا، فإذا كان الطقس رديئا، فإنه يقول أنّ الأمر ليس على ما يرام، وإن كان الطقس صافيا، فإنه يبعث فينا الأمل في الاستمرار لمدة أطول على سطح هذه الأرض التي أصبحنا متعلقين بها، لأننا لا نودّ أن نقضي على الانسجام الموجود بيننا وبين الطبيعة.

***

إنّ السعادة والشقاء أمران موجودان وجود الإنسان في هذه الطبيعة، فلا يمكن لأيّ واحد منّا أن يتجنبهما، لو كنّا نعيش في عصر غير هذا العصر لكان بإمكاننا تحقيق السعادة وتغليبها على الشقاء، لكن حظنّا التعس جعلنا آخر جيل على سطح الأرض، حيث لم يتبق لنا من ثرواتها شيئاً يذكر، فالأجيال السابقة لم تترك لنا إلا الطبيعة القاحلة التي تتراءى أمامنا، لقد عاشوا حياتهم في وسط مليء بالثروات دون أن يصلوا إلى السعادة التي حققناها نحن بالأشياء القليلة التي نتوفر عليها. ظننت فعلا أننا نجونا، فوصولنا إلى التكيّف مع الطقس سمح لنا بالتأقلم مع كلّ التغيّرات التي تحدث فيه، حيث أنه سبق وأن بقينا خمسة أشهر من دون أن نخرج، كما سبق لنا أن بقينا أشهرا أخرى لا نرى فيها العواصف الثلجية. اعتقدت أننا تمكّنا من السيطرة على هذه الطبيعة القاسية، كان لنا أمل صغير في إمكانية استمرار حياتنا لمدة أطول، نحن نعلم بأننا آخر جيل، فإمكانية الولادة مستحيلة نظرا للبرودة الشديدة التي نعاني منها وربما نتيجة لعوامل أخرى نجهلها. كنّا مقتنعين بحياتنا، فما دمنا قد حققنا هدفنا ألا وهو العيش في سعادة، فإننا لم نكن بحاجة إلى عوامل أخرى، يكفينا الاستمرار في ذلك النمط من الحياة حتى نتمكّن من العيش في وئام مع الطبيعة، إلا أنّ الأمل شيء والحقيقة شيء آخر.

لقد مرّت علينا ثلاثة أشهر كان فيها الصفاء والسعادة يخيّمان على حياتنا، لكنه وبعد تلك الأشهر جاءت العواصف من جديد، كان من الممكن لنا أن نستمر في تمتعنا بالحياة ما دمنا قد تعودنا المكوث في المغارة، لكن الأوضاع قد اختلفت، فالعواصف لم تهدأ منذ أكثر من سبعة أشهر والبرد حطّم أرقاما

قياسية حيث انخفضت درجة الحرارة داخل المغارة في ظرف تلك الأشهر من -18° إلى -39°، ممّا جعلنا نعاني من الآلام في جميع أطراف أجسامنا، كنّا نقوم بفتح منفذ لمرور الهواء حتى يتجدد، لأن الثلوج قد غطت نهائيا باب المغارة واستمر مستواها في الصعود عدة أقدام فوقنا بحيث أصبحت مغارتنا الآن مغطاة، وإن استمر الوضع على ما هو عليه سيختفي الجبل بأكمله تحت الثلوج .

كان همّنا الوحيد هو الحطب، لأن المؤونة متوفرة وقد خزّنا منها الكثير، فحيوان واحد كان يكفينا لمدة أسبوعين أو أكثر ممّا يعني أنه باستطاعتنا المكوث هنا لأكثر من سنة، في حين انصبّ انشغالنا على حجم الحطب الذي نتوفر عليه، إذ أنه لن يكفي مدة أربعة أشهر إذا ما واصلنا استغلاله بالطريقة نفسها. لقد تحدّثت عن هذا الموضوع مع الجميع مبديا لهم تخوفي، وضرورة وضع خطة مستعجلة لتفادي الموت من البرد، فوافق الجميع على إنقاص الكمية اليومية المخصصة للحرق وهذا ما أدى بدرجات الحرارة إلى النزول أكثر داخل المغارة، حيث وصلت إلى -43°، وهو الحد الذي لم نرد تجاوزه وإلا فإنه سيقضى علينا، كنّا نستعمل كلّ الجلود المتوفرة لدينا، ومع نهاية الشهر الخامس بدأت سيليني بالسعال، كنت خائفا من ذلك، لأن المرض معدي ومن الممكن جدا أن ينتقل إلى غيرنا، ولم نستطع عزلها في القاعة الصغيرة لأننا كنّا سنضطر لحرق مخزون إضافي من الحطب، لذلك خصصت لها موضعا في القاعة بمحاذاة النار حيث كنت أسهر عليها، كانت سعيدة جدا بوجودي المستمر معها لدرجة أنها كانت ترفض ابتعادي عنها حيث كانت تقول بابتسامتها المشرقة: كونك معي يمدني الشجاعة لمجابهة الموت من دون خوف، فأرجوك أن تبقى معي. كانت مستلقية داخل كومة من الجلود التي وضعناها عليها وكنت أتكئ بجانبها، وحتى أنسيها مرضها والوساوس التي تحوم في فكرها رأيت أنه من الضروري أن أشغل بالها ببعض القصص، فقرأت عليها رواية العجوز والبحر، ورواية الآمال الكبرى. كانت تبدي اهتماما كبيرا لكل ما أرويه لها لكن مرضها اشتد بعد مرور شهر من ذلك حيث ازداد سعالها وأصبحت تتقيأ كلّ ما تأكله،

ثمّ ارتفعت درجة حرارتها كثيرًا ولم تفد كلّ محاولاتي لتخفيفها، فأيقنت بأنّ النهاية قريبة بالنسبة لها. كانت ممسكة بيدي في تلك الليلة الباردة، حيث قالت لي مترجية بصوت خافت ورقيق: إن كنت تحبّني فلا تتركني من فضلك، يجب أن تبق معي إلى غاية آخر نفس أخرجه، عدني بذلك. فقلت لها متصنعا ابتسامة على شفتي: لا تخافي أنا بجانبك إلى غاية شفائك، فارتسمت بدورها ابتسامة على وجهها الشاحب ثمّ قالت: لا تمزح، فأنا أعلم بأنني سأفارقك، أريد فقط أن أعلمك بأنني لست نادمة على حياتي، إنني سأموت سعيدة لأن الأيام التي قضيتها معك كانت كافية بالنسبة لي للاستمتاع بحياتي، أنا أدرك الآن لماذا رحلت فينوس، لقد أرادت أن تودع العالم بسعادة، وهذا هو حظي أنا أيضاً، ثمّ سكتت. لم يكن بوسعي أن أقول شيئاً سوى أنني ضممت يدها بقوة، ولم تمض مدة طويلة حتى أغمي عليها حيث بدأت تغثي وتتقلب من الألم، كانت حرارتها جد مرتفعة، ردّدت عبارات كثيرة لم أميّز منها سوى جملة " لا تتركني " التي كرّرتها عدة مرات، وعلى الرغم من معاناتها الشديدة من الحمى، فإنه وطوال تلك المدة لم تطلق أبدًا يدي إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة حيث استقرّت مستوية داخل تلك الأغطية، نظرت إلى وجهها، فإذا بي أرى الابتسامة مازالت مرتسمة على شفتيها الرقيقتين، كان يخيّل إليّ أنها لم تمت بل كانت نائمة فقط. وكانت رفيقتي بجانبي. قمت واتجهت إلى ديموفون، الذي فهم مباشرة ما حدث، فقلت له حائرا: إننا لا نستطيع الخروج لدفنها فما العمل؟ فقال بكآبة: يستحسن أن نضعها في طرف من أطراف المغارة ونضع عليها الثلج، وإذا ما تحسن الطقس سنقوم بدفنها في الخارج، فقلت له والذهول ومظاهر التعب بادية على محيّاي: أين تنصحني بوضعها؟ فردّ قائلا: في إحدى القاعات الثلاث. فكرت مليّا في الأمر ثمّ طلبت من أورفيوس أن يأتي معنا ليساعدنا، حيث حملناها إلى قاعة الصندوق أين غطينا جسدها بقطع الجليد .

كنت منهك القوى حيث أحسست بالدوار، وظنّنت أنه العياء الناجم عن طول السهر مع سيليني، إلا أنه اتضح لي فيما بعد أنني أصبت بالحمى التي بدأت تنهش عظامي، كانت بدايتها بالسعال ثمّ أخذت أحسّ بالبرد يفتك

بجسمي شيئاً فشيئاً. كنت أرتعش كثيرًا، فتمددت داخل الجلود التي كانت سيليني تنام فيها أثناء مرضها، حيث أحاطني الجميع. لاحظت على وجوههم علامات الحيرة والقلق، فأردت أن أطمئنهم قائلا: إنها مجرد حمى بسيطة لن تستطيع أن تفتك بي، فأنا أقوى منها، ثمّ قلت لداناي وإيوس: لا تخافا فإنني لن أترككما. كان ذلك المشهد الأخير الذي كنت أتذكره، إذ لمّا استفقت لم أجد سوى إيوس بجانبي، وبمجرد رؤيتها لي وأنا أفتح عيني حتى قالت لي مندهشة وعلامات الفرح بادية على وجهها: أخيرًا استفقت! لاحظت العياء الشديد باد على ملامح وجهها، فسألتها حائرا: أين هي داناي؟ فقالت مشيرة بيدها: هناك، إنها مع فيليس، فقاطعتها بارتباك: وماذا تفعل معها، هل هي مريضة؟ لِمَ لم تساعدك؟ فقالت بنبرة خاصة: أتعلم المدة التي بقيت فيها مغميا عليك؟ لم أجبها لأنني لم أفهم قصدها، فواصلت كلامها قائلة: لقد مضى أكثر من أسبوع وأنت لم تستفق. اندهشت للأمر إذ كنت أعتقد أنها مجرد ساعات فقط، فنظرت من حولي حيث أحاط بي الجميع، فقلت لهم: هل الكل بخير؟ فأجابتني هيلينا: نعم وأنت كيف تشعر الآن؟ فقلت: قليل من العياء فقط، فمسّت إيوس جبيني وقالت مبتسمة: لقد زالت أخيرًا الحمى، أعدت النظر من جديد حولي، ثمّ سألتهم: والعواصف هل توقفت أم لا؟ فقال أورفيوس بحسرة: إنها على نفس الحال، طلبت من داناي أن تساعدني للاتكاء على ظهري لأنني كنت مستلقيا،ولمّا اتخذت وضعية الجلوس جدّدت النظر حولي ولم أشاهد بينهم ديموفون، فقلت لداناي مستغربا: هل ديموفون مع فيليس؟ إلا أنها وعوض أن تجيبني نظرت إلى إيوس، ولاحظت الآخرين ينظرون إلى بعضهم البعض، لم أكن بحاجة إلى ردّهم لأدرك ما حدث، فملامحهم تنبئ بالأمر، قالت أمفتريت بصوت حزين: إنها الحمى، وقالت أرتيميس متحسرة: لم يستطع أن يقاومها مثلك، إذ بعد ثلاثة أيام من المعاناة تمكّنت من القضاء عليه، فقلت باكتئاب: يا للمسكين، وفيليس هل هي الأخرى مريضة؟ فقالت إيوس: كلا إنها متعبة فقط لم ترتح طيلة أيام مرض رفيقها. طلبت منها البقاء مع فيليس، فنفذت على الفور ما أمرتها به، ثمّ قلت لداناي: ساعديني على القيام، فقالت

مندهشة: إنك ما تزال متعبا استرح قليلاً، لكنني قلت لها بإصرار: كلا، فأنا أفضل المشي قليلاً. أمسكتني من ذراعي وأمسكني أورفيوس من الذراع الآخر ومشيت بضع خطوات متكئا عليهما، واتجهت في الأول إلى فيليس التي كانت مستلقية في الطرف الآخر من القاعة كانت مغطاة بالجلود لا يتراءى سوى رأسها ويدها التي كانت تمسك بها إيوس الجالسة بجانبها، فقلت لها بحسرة وإشفاق: عليك بالصبر يا فيليس، لا أحد منّا يستطيع أن يقاوم الطبيعة، فهي التي تفرض قوتها علينا. فقالت باكتئاب وعلامات الدهشة واضحة على وجهها: لقد كان قويا، لا أعرف كيف تمكّنت منه بهذه السرعة؟ ثمّ رأيت الدموع تنهمر من عينها. واصلت بعد ذلك خطاي قائلا لأورفيوس: وهل وضعتموه في قاعة الصندوق؟ فقال بصوت حزين: نعم، إنه بجانب سيليني. لم يمض وقت طويل حتى استعدت قوتي، كان البرد شديدا جدا، فطلبت من الجميع أن يضاعفوا من حصص اللحم المخصصة لهم حتى يتمكّنوا من صدّ ذلك البرد القارس.

***

مرّت الأيام ودخلنا في الشهر التاسع والعواصف لم تهدأ بعد كنّا نحسّ جميعا بأنها النهاية، لكننا لم نتحدث إطلاقا في الموضوع بل كنّا نعمل على تناسيه محاولين إضفاء البهجة على نفوسنا، لم نرد أن نستسلم للواقع مفضلين الانفصال عنه وذلك بمحاولة الابتعاد عن مختلف الظروف المحيطة بنا والمؤثرة علينا. كنّا نسترجع أيامنا مع بروميثيوس وهايمون وغيرهم حيث كنّا نضحك لمختلف المواقف التي صادفتنا، كما كان أورفيوس يتحفنا ببعض المقطوعات الموسيقية من كنارته التي كنت أحتار في طريقة صيانته لها، فالبرد كان يؤثر عليها وعلى أوتارها إلا أنه يتمكّن في كلّ مرة من إصلاحها بحيث تعود تنغمنا من جديد بأصواتها الرائعة. أعلننا صراحة عدم مبالاتنا بما يدور في الخارج من عواصف وثلوج، وكنا ننتظر فقط اليوم الذي ينتهي فيه مخزون الحطب لنودّع هذا العالم، لكن، وقبل وصول ذلك اليوم حدث أمر آخر لم نكن ننتظره على الإطلاق، فواجهة المغارة التي يوجد بها الباب قد تحطمت بفعل الرياح وثقل الجليد المتراص فوقها، وتحطم معها الرواق المؤدي إلى القاعة الكبيرة حيث أصبحت مغطاة بالثلوج. كان الأمر مروعا لكننا لم نفقد أعصابنا بل أسرعنا جاهدين إلى إخراج كتل الثلج التي تهاوت إلى الداخل حيث كدّسناها أمام باب القاعة لسد المنفذ. كنّا نرتعد من شدة البرد، وبعد انتهائنا من تنظيف القاعة قمنا بوضع الجلود المبللة بمحاذاة النار، ثمّ بدأنا نتزع القفازات التي نرتديها، فلاحظت يدي إيوس داميتين، إذ أثّر فيهما البرد كثيرًا. أمسكتهما بين يداي وقرّبتهما من فمي حيث وضعت قبلة على كلّ واحدة منهما. فالمسكينة كانت تتألم ولم تخبر أحدا منّا. قمت بلفهما في قطعتي قماش ثمّ طلبت منها أن تقترب أكثر من النار وأن تدفئ نفسها وألا تقوم بأيّ شيء .

لم نكن نعلم هل نحن في النهار أم الليل، فكلاهما كانا متشابهان، وصلت برودة القاعة إلى درجة لا تتصور فنظرت إلى المقياس ولاحظت أنها قد تجاوزت -46°، فتحدثت مع أورفيوس حول ضرورة إشعال المزيد من الحطب لتخفيض نسبة البرودة، حيث اتجهنا إلى أحد جدران القاعة وحملنا معا بعض القطع التي رميناها في النار ثمّ شكلنا حلقة حولها. قلت لإيوس برقة: هل تتألمين؟ فقالت محاولة إظهار عدم ألمها: كلا، ثمّ ابتسمت لي وكأنها تشكرني على اهتمامي بها. كنت خائفا عليها إذ من الممكن أن تسبب لها الجروح الحمى، وكلما كان الإنسان ضعيفا كلّما كان تأثير البرد عليه أشد، فقلت لها راسما ابتسامة عريضة على شفتي: اقتربي. فدنت مني ثمّ اتكأت على كتفي، فأحطت خصرها بذراعي وضممتها إليّ. كنّا جالسين حول النار، فقلت لهم وأنا أضحك محاولا رفع معنوياتهم: إنّ الطبيعة تريدنا أن نستسلم حتى تقضي علينا لكننا نحن لها بالمرصاد، فقال أورفيوس بحماس: نعم إننا لن نغادرها بهذه السهولة، يجب عليها أن تلعب جميع أوراقها إذا ما أرادت القضاء علينا .

مرّ أسبوع على تلك الحادثة وبدأ الجميع يشعر بصعوبة في التنفس، لأن الفتحة التي تركناها في باب القاعة لا تكفي لإخراج كلّ غازات الحطب المشتعل وإدخال الكمية اللازمة من الأكسيجين، لذلك قمنا بتوسيعها قليلاً، فكان البرد يتسلّل منها إلى القاعة، لكن ليس لدينا خيار آخر غيره. كانت هيلينا أشدنا تأثّرا بنقص الأكسيجين إذ كانت تجد صعوبة كبيرة في التنفس الأمر الذي جعلها تقترب من حين لآخر من الفتحة لتستنشق الهواء. ولمّا لاحظت ذلك قلت لها منبّها: يجب أن تأخذي حذرك، فالتيارات الباردة خطيرة، لكنها لم تستمع لتحذيري إذ استمرت في وقوفها هناك بين الفينة والأخرى إلى أن سقطت مغشيا عليها. أسرعنا لمساعدتها، فوجدناها تعاني من ضيق شديد في التنفس، قرّبناها من النار ثمّ قمنا بنزع ثيابها والكشف عن صدرها لكي تجد متسعا للتنفس، وأسرعت داناي من جهتها لتحضر قطعة قماش مبللة لتمسح بها وجهها، لكنها لمّا عادت قلت لها بصوت حزين وخافت: لا داعي لذلك، فلقد ماتت. لمّا سمعت أمفتريت بالخبر صرخت في ذهول: ماذا تقول؟ ماتت؟ لقد

أغمي عليها فقط. وأخذتها بعد ذلك نوبة من الهستيريا حيث كانت تصرخ وتبكي، فأسرعت أرتيميس إليها، ثمّ انتفضت رودوب وصرخت بدورها قائلة: ترى سيكون دور من المرّة المقبلة؟ وأدهشت بالبكاء حيث احتضنها أورفيوس محاولا تهدئتها وهو يهمس في أذنها قائلا: لا تخافي يا رودوب، فأنا معك. ثمّ طلبت من داناي البقاء معها حيث ساعدني أورفيوس على حمل هيلينا إلى قاعة الصندوق، أين وضعناها هناك ووضعنا الثلج عليها، فقال لي بصوت حزين: إن استمر الوضع على حاله، فإننا لن نجد متسعا هنا، لم أردّ عليه لأنني كنت أفكر في الشيء نفسه.

استمرّت العواصف الثلجية الهوجاء، وأحسست بأننا مثل المسجونين الذين حكم عليهم بالإعدام والذين ينتظرون دورهم لتنفيذ الحكم، لم يكن بوسعنا القيام بأيّ شيء سوى الانتظار، انتظار دورنا كما قالت رودوب، لقد وصلت الفترة التي أخشاها، كنت على علم بأنه سيصل اليوم الذي لن تتوقف فيه العواصف، وبالتالي ستقضي علينا جميعا. كنت آمل أن يتأخر قليلاً لكن الطبيعة رأت غير ذلك، سمعت داناي تسعل، فأسرعت إليها قائلا بارتباك: هل أنت مريضة؟ فقالت مبتسمة: أظنّ أنه قاد حان دوري، فقاطعتها محتجا: ماذا تقولين، إنك قوية، إنّ حرارتك غير مرتفعة يكفي أن تستلقي قليلاً وتأخذي قسطا من الراحة، سأحضر قليلاً من الثلج لأضعه على جبينك. كانت تسعل بقوة، مدّدتها على الأغطية قرب النار، وطلبت من إيوس أن تبقى معها ثمّ أسرعت إلى الباب حيث أخذت بعضا من قطع الجليد ولمّا عدت نظرت إليّ إيوس قائلة في ذهول: لقد ماتت. لم أصدق ما سمعته، أبهذه السرعة؟ لم تمنح لي حتى فرصة توديعها، كنت جامدا أنظر إلى وجه داناي الجميل والجليد يذوب ويتساقط كالدموع بين أصابعي، كنت أستعيد أيامي معها حتى أيقظني أورفيوس قائلا: هيا نحملها إلى القاعة الأخرى، نفضت يدي ممّا تبقى من جليد ثمّ نفّذت ما أمرني به من غير تفكير وكأنني غير موجود أصلا معهم، وفي اليوم نفسه لمّا كنّا مستلقين اقتربت مني أمفتريت وهي هلعة حيث قالت: إنّ حرارتها مرتفعة جدا، فعلمت أنها تتحدث عن أرتيميس فأسرعت معها إلى المكان الذي

ترقد فيه، ولمست جبينها فإذا به ملتهب جدا، قمت بمناداتها بارتباك: أرتيميس، أرتيميس هل تسمعينني؟ لكنها لم تجبني، فقلت لأمفتريت بقلق: لقد أغمي عليها، أسرعي وناوليني الثلج، فجرت إلى الباب حيث أخذت كمية من الجليد، بينما أحضرت أنا قطعة قماش لففته فيه ووضعته على جبينها، ثمّ ذهبت وأحضرت معي إناءا ممتلئا بالدهون وقلت لأمفتريت: حاولي أن تدلكي صدرها وعنقها به، فبدأت تمسح جسمها. أمضيت الوقت بجانبها أغيّر من حين لآخر قطع القماش حتى استفاقت أرتيميس، لمّا شاهدتها أمفتريت وهي تفتح عينيها أذرفت الدموع قائلة: لقد ظنّنت أنك ستتركينني لوحدي، فابتسمت أرتيميس من دون أن تتحدث، كانت متعبة جدا والحمى لم تزل عنها بعد، فقلت لأمفتريت مبتسما: أظن أنها قد خرجت من المرحلة الصعبة .

***

أخيرًا أحسسنا اليوم بهدوء نسبي للعاصفة، فالرياح التي كان صوتها الهائج ثابتا قد أصبح متقطعا ممّا يدل على أن العواصف ستزول أخيرًا، عمّ الفرح جميع أفراد القبيلة، حيث عاودنا الأمل من جديد، طلبت من أورفيوس أن يوسّع من فتحة المغارة حتى يتمكّن من الوصول إلى الخارج، فقام بالحفر خطوات قليلة إلى الأعلى وتمكّن من مشاهدة الفضاء من جديد، كانت الثلوج لا تزال تتساقط، وكان المشهد جميلا ببياضه. فقلت مبتهجا: إننا حتمًا في الصباح، فأنا أرى خيالا للشمس هناك، وقالت إيوس بفضول: دعني أشاهد الشمس، أين هي؟ فقلت لها: انظري في هذا الاتجاه، حيث أشرت إليها بإصبعي، فقالت وهي تصرخ من الفرح: نعم إنني أراها، إنها موجودة دائمًا .

كان الجميع يتناوب إلى الفتحة لرؤية خيال الشمس، وعلى الرغم من النسمات الباردة التي كانت تدخل إلا أنهم تحمّلوها، لقد مضى وقت طويل لم نشاهد فيه سوى جدران المغارة. كنّا فعلا مشتاقين لرؤية الفضاء الخارجي، قالت أمفتريت وهي تضحك: الآن وقد رأيت الشمس، يمكن لي أن أموت وأنا سعيدة، لقد كنت خائفة من أن أموت بداخل هذا القبر، فساندتها رودوب الرأي حيث قالت: نعم إنّ عدم رؤيتنا للفضاء الفسيح طوال هذه المدة جعلنا أشبه بالأموات، فقال لها أورفيوس مازحا: يا حبيبتي، إنّ الأموات لا يسمعون الأغاني بينما أنا أسمعكم إياها، فابتسمنا جميعا، أحسسنا بعد ذلك بالبرد فعدنا إلى أغطيتنا بعد أن قمنا بإنقاص حجم الفتحة حتى نقلّل من دخول البرودة إلى القاعة، ولمّا اجتمعنا حول النار قال أورفيوس: يستحسن أن نترك هذا المكان عندما يتحسن الطقس، ونبحث عن مكان آخر أكثر أمانا، فأنا أخاف أن تسقط هذه المغارة يوما على رؤوسنا، فأيّده الجميع، لكن ما لبثنا وأن سمعنا هبوب الرياح. لقد عادت العواصف لتعكر صفونا من جديد.

***

استمرت العواصف زهاء الشهر،مرضت أثناءه رودوب وبقي أورفيوس بجانبها إلى أن لفظت أنفاسها، ثمّ تبعتها أمفتريت التي أخذتها الحمى بدورها. حزنت أرتيميس عليها كثيرًا ولولا إيوس لماتت هي الأخرى، حيث كانت بجانبها طوال الوقت، ويوم وفاة رودوب قام أورفيوس برمي كنارته في النار قائلا بحزن: أظنّ أن العرض قد انتهى. أعجبت كثيرًا بصبره إذ كان يشاركنا العمل ولم يُظهر حزنه على الإطلاق، لمّا تحدثت في هذا الأمر مع إيوس أخبرتني بأنها شاهدته يبكي لوحده ولمّا اقتربت منه تظاهر بتأثير الرياح على عينيه، فيا له من مسكين، هو المحب للمرح والضحك أكثر منّا جميعا وصل به الوقت لأن يتعذب هو الآخر، لكنه يتعذب في صمت، فهو لا يريد أن تتغير صورته في نظرنا، صورة الإنسان البشوش المرح، قام في إحدى الليالي وأسمعنا قصيدة نظّمها حول رودوب حيث بيّن فيها حبه لها ووصف جمالها وأحاسيسها وحتى خجلها لم ينساه بل ضمّنه أيضاً في قصيدته، كانت مؤثرة جدا عبّر فيها وبطريقته الخاصة عن مشاعره.

وبعد ثلاثة أسابيع من وفاة رودوب عاد الصفاء مجددا، حيث تمكّننا من الخروج بعد ارتفاع درجات الحرارة التي وصلت إلى -25° وكانت بالنسبة لنا بمثابة الصيف، حيث سرعان ما ذابت الثلوج التي كانت تغطي الفتحة، فاستطعنا رؤية الأجزاء المحطمة من المغارة. كنّا نظنّ أن الطبيعة ستمنح لنا بعضا من الوقت للتنفس قليلاً بعد الجحيم الذي عشناه، إلا أنّ العواصف ما لبثت وأن عادت من جديد. لقد تمتعنا بالصفاء ثلاثة أيام قمنا خلالها بإخراج الجثث ودفنها في مكان غير بعيد عنّا، ثمّ أدخلنا بعض الحطب الذي خبأناه في الخارج غير بعيد عن المغارة، لنعود ونحتمي فيها من جديد. كانت أرتيميس قلقة جدا من فكرة العودة إلى الداخل، ذهبت إليها لأهدأ من روعها قائلا بأنه من

الممكن أن تهدأ العواصف من جديد، لكنها ردّت عليّ قائلة بارتباك: كلا إننا سنموت جميعا هنا، لا أريد الدخول، أريد أن أموت في الخارج. لكنني قمت بمساعدة أورفيوس بإدخالها بالقوة إلى المغارة قائلا: لن أسمح لأحد من أفراد قبيلتنا بالانتحار، أتسمعين؟ يجب ألا نستسلم، أنظري إلى فيليس، إلى إيوس إلى أورفيوس، إليّ أنا، نحن جميعا قلقون لكننا مازلنا متمسكين بالحياة، يجب علينا أن نعيشها إلى آخر لحظة، يجب أن نعمل كلّ ما في وسعنا للبقاء أحياء، يجب أن نعيش للآخرين. نظرت إليّ ثمّ احتضنتني وهي تبكي، فما كان عليّ إلا أن ربتت على ظهرها قائلا برفق: يمكنك البكاء، لكن لا تفكري مطلقا في الانتحار.

***

منذ أيام نادتني فيليس قائلة في ذهول: إنني لا أستطيع التحرك، فأسرعت إليها سائلا بهلع: ما بك؟ فقالت وهي تتألم: إنني لا أستطيع تحريك رجلي ويدي اليسرى، فأمسكت بيدها قائلا: هل تحسّين بقبضتي فقالت بارتباك: لا، ماذا أصابني؟ فقلت لها محاولا طمأنتها: لا تخافي، إنه شيء بسيط، طلبت من إيوس أن تأتيني بالدهن الساخن حيث نزعت عنها ملابسها بعد تقريبها من النار ثمّ بدأت أدلك كامل جسمها، ولمّا انتهيت قامت إيوس بإعادة ملابسها، وأمضينا الليل ساهرين بجانبها، وكنّا في كلّ مرة نسألها بارتباك: هل بدأت تحسين بيدك أو رجلك؟ وفي كلّ مرة تقوم إيوس بالضغط على يدها أو رجلها إلا أنها لم تكن تحس بهما. تمكّنت فيليس من النوم قليلاً ولمّا استيقظت قمت بالضغط على يدها بقوة، فصرخت قائلة: إنك تؤلمني، فسررت وابتسم كلّ من أورفيوس وإيوس، حيث قمنا بمساعدتها في تحريك يدها ورجلها لمدة ثلاثة أيام إلى أن استطاعت لوحدها القيام بذلك وشيئاً فشيئاً تماثلت للشفاء وأصبحت تؤدي وظيفتها داخل المغارة مثلما كانت تقوم به في السابق. أما العواصف، فلم تتوقف منذ مدة طويلة .

***

كنّا في حالة تلهف للخروج من سجننا عندما هدأت العواصف، إذ أسرعنا بفتح الباب من جديد ثمّ خرجنا جميعا للتمتع بالطقس، كانت فيليس بجانب إيوس لمّا صرخت قائلة: لقد سقطت! نظرنا باتجاههما فوجدنا فيليس لوحدها، عندئذ قفزت بسرعة إلى الأسفل حيث تدحرجت وانقلبت عدة مرات لأصل إلى المكان الذي وقعت فيه إيوس، فوجدتها ملقاة على الأرض والدم يسيل من رأسها، ولمّا رفعته وجدت أنه قد ارتطم بنتوءات جليدية. كان من حظها التعس أن تسقط عليها. لم تفارق الحياة بعد بل لفظت أنفاسها بين يدي، ولمّا وصل كلّ من أورفيوس وفيليس وأرتيميس، قلت لهم بصوت كئيب: لقد قضي الأمر. فصرخت فيليس قائلة: كلا، ساعدها على الوقوف، أيقظها يا أورفيوس، لكنه أمسكها من كتفيها وضمها إلى صدره أين أدهشت بالبكاء وهي تقول متحسرة: لِمَ تركتها تسقط؟ أنا لم أمسك بها ولم أساعدها! لقد قامت بكل شيء من أجلي وأنا لم أفعل شيئاً من أجلها، لماذا تركتني يا إيوس؟ أنا السبب، أنا من قتلك، فلو كنت مهتمة بك لما وقعت، كنت مهتمة فقط بنفسي أنا، لقد قتلك، لقد قتلتك، فقاطعتها صارخا: لم تقتلها، لا دخل لك في موتها، أتسمعين ، لقد آن أوان رحيلها فقط، ثمّ طلبت من أورفيوس أن يرافقها إلى داخل المغارة بينما أخذت الخنجر وقمت بحفر القبر في الموضع الذي ماتت فيه، ثمّ دفنتها به وأقفلت عائدا إلى المغارة. كان الصفاء يعمّ المنطقة واستمر الطقس على تلك الحالة يومين آخرين لكننا لم نخرج فيهما، إذ لم تكن لدينا الرغبة في ذلك. لقد بدأنا نشعر بعدم الضرورة في الاستمرار في الحياة، ولمّا عادت العواصف من جديد قمنا بإغلاق الباب. كانت أرتيميس أشدنا تأثرا بما حدث لإيوس، حيث وجدناها ميتة في صبيحة اليوم الموالي لبداية العواصف، وفي الليل تبعتها فيليس، فبقيت مع أورفيوس، الذي نظر إليّ بوجهه الشاحب

وقال: يا ترى من سيموت الأول، أنا أم أنت؟ وأضاف: أتمنى أن أكون أنا الذي سأموت أولا. فقلت متعجبا: ولماذا؟ فردّ قائلا وهو يبتسم: حتى تدفنني، لا أعرف كيف خرجت الضحكة من فمي في ذلك الوقت بالذات، لقد كانت ضحكة حقيقية خرجت عن لحظة سعادة حقيقية، حتى وإن كانت قصيرة، فقلت له مازحا: يستحسن أن نموت معا، فقال مندهشا: أتقصد أن ننتحر؟ فقلت: كلا إنني أرفض هذه الفكرة، بل أريد أن أقول بأن موتنا سيأتي في اللحظة نفسها، فقال متعجبا: إنك لا تؤمن بالمعجزات، وهذا أمر يمكن أن نصنفه ضمنها، لذلك أنا واثق من استحالة وقوعه. وكان على حق حيث أمضينا قرابة الشهر معا نستردّ فيه ذكرياتنا، حيث قرأت عليه بعضا من مذكراتي التي أعجب بها كثيرًا، وفي صبيحة أحد الأيام عندما ذهبت لأوقظه، وجدته ميتا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عجيبة.

***

سنة واحدة كانت كافية للقضاء على جميع أفراد قبيلتي، سنة واحدة جعلتني يتيما، إنني أحسّ الآن معنى اليتم الحقيقي، كان فقداني لأمي وأنا صغير يعتبر أمرا عاديا، فجميع الأطفال كانوا لا يولون أهميّة كبرى للعلاقات الأسرية، فالمهم عندهم القبيلة. وأيّ مصيبة ستلحق بأحد أفراد القبيلة سيؤثر على الباقي وكأنهم هم الذين تعرضوا لتلك المحنة كنّا كعائلة كبيرة، لذلك لم أحسّ على الإطلاق بنقص ما، ومن الممكن أن يعود ذلك لكون أفروديت هي الأخرى قد فقدت أمها، فكان الأمر بالنسبة لي عاديا، أما حزني على فقدان أبي، فجاء لكونه لم يمت جراء فعل الطبيعة عليه وإنما نتيجة غدر عمي،أما الآن، فإنني عندما أنظر إلى جدران هذه المغارة، فإنني أشعر بالوحدة، أشعر بالقلق، أشعر بالانهيار، إنه أمر لم أراهن عليه كثيرا حتى وإن تصورت حدوثه، لماذا أنا؟ ماذا فعلت حتى تتركني هذه الطبيعة ولا تقضي عليّ مثلما قضت على الآخرين؟ كان عليّ أن أرتب الأمور في ذهني لأنني أحسست بانفصال تام، انفصال عن الحياة الحقيقية، إنّ الحياة بالنسبة لي تتمثل في العيش مع أناس أتمكن من التفاهم معهم، أشاركهم أحزانهم وأفراحهم، همومهم وانشغالاتهم، أحلامهم وآلامهم، لكنني الآن لوحدي، فما الداعي لأن أستمر في الحياة؟ ما الفائدة التي سأجنيها الآن؟ هل أعتبر نفسي الآن على قيد الحياة؟.

من الأمور الأولى التي قمت بها عندما توقفت العاصفة هو قيامي ببناء باب القاعة الكبيرة حيث لم أترك فيه إلا فتحة صغيرة أدخل وأخرج منها، كان من السهل عليّ إغلاقها ببعض الألواح الخشبية، ثمّ قمت بجمع كلّ الجلود المتواجدة بالمغارة وصنعت منها خيمة صغيرة نصبتها داخل القاعة بالقرب من النار وافترشت الأرضية بما تبقى منها، كنت أشعر بالدفء على الرغم من انخفاض درجات الحرارة في الليل، كما قمت باستخراج حزم الحطب التي

خبأناها خارج المغارة، كان أمرا صعبا للغاية لأن الجليد كان صلبا جدا، لكنني تمكّنت من الوصول إلى ثلاثة مخابئ لها حيث قمت بإحضارها إلى القاعة، ثمّ قمت بعد ذلك بتفحص ما تبقى من المؤونة، فلاحظت توفر العديد من الحيوانات، حيث أننا وطوال تسعة أشهر الماضية لم تكن لدينا رغبة حقيقية في الأكل بحيث أننا لم نتناول إلا النصف من الحصص المحددة لنا، وعلى الرغم من زيادة الحصص إلا أنّ الجميع كان يرفض تناولها إذ لم تكن لدينا الشهية لذلك، فقد كنّا منشغلين جدا. مما يعني أنني أتوفر على مؤونة ما يكفي عاما أو أكثر، والشيء نفسه بالنسبة للحطب الذي سيكفي الفترة نفسها لو قمت بالاقتصاد قليلاً أو إن تحسن الطقس لشهر أو شهرين .

دخلت إلى خيمتي حيث استلقيت على الجلود وتغطيت ببعض منها، ثمّ بدأت أفكر في وضعي، ما عساني أن أفعل الآن؟ هل أظل قابعا في هذه المغارة إلى أن تتوقف العواصف التي عادت؟ وإن توقفت من جديد هل سأقوم بالبحث عن المؤونة والحطب؟ أخذت أبحث المسألة جيدا حيث رأيت بوجوب دراسة كلّ الاحتمالات حتى أصل إلى هدفي، لقد أصبحت بدون هدف! إنني لا أملك أية رغبة، ليس لديّ أيّ حلم، لا أتمنى أيّ شيء، كيف لي أن أحقق السعادة؟ هل أستطيع أن أصل إليها على الرغم من كلّ ما حدث؟ فكرت جليا فيما قالته أرتيميس، حيث راودتني فكرة الانتحار، لماذا لا أنتحر وأستريح؟ إذ لا يوجد من يعاتبني، إنني لوحدي، لا أحد يمكن له أن يلومني على ما سأقوم به، أستطيع فعل أيّ شيء، كلّ الأشياء التي تتبادر إلى ذهني باستطاعتي القيام بها، فلا أحد يرفض أو يلوم أو ينهر، لماذا إذن لا أنتحر؟ أمسكت الخنجر بين يدي ورأيت صفحته تتلألأ تحت ضوء النار ووضعته على صدري في الجهة التي يوجد بها قلبي وهممت بإدخاله، بقيت على ذلك الوضع لمدة طويلة لم أطلق الخنجر من يدي ولم أبعده عن صدري حتى خارت قواي، حيث أنني لمّا استفقت وجدت الخنجر بجانبي، لقد نمت، لا أعرف الوقت الذي قضيته وأنا نائم. عاودتني الفكرة من جديد، لماذا أنا متمسك بالحياة؟ فأنا الآن لست سعيدا، لماذا لا أوقف إذن هذا العذاب؟ أخذت من جديد الخنجر بيد واحدة حيث

أبعدته قليلاً عن جسدي لأقدّم ضربة واحدة اقطع بها هذا القلب التعس، ولمّا هممت بإدخاله خارت قواي وأطلقته يدي، فأخذت أخاطبها قائلا: أيتها اليد اللعينة لِمَ لم تقومي بما أمرتك؟ ألا تريدين أن ترتاحي؟ لماذا في السابق قبلت بقتل عمي وقتل هاديس؟ لماذا تقبلين قتل الغير ولا تقبلين قتلي أنا؟ وبدأت الدموع تنهمر على خدي بغزارة لا أتذكر على الإطلاق بأنها قد سقطت بتلك الكمية أو بتلك الحرارة، فأنا أتذكر جميع اللحظات التي بكيت فيها في حياتي لكنني لم أبك بهذه الطريقة، ثمّ خاطبت نفسي قائلا: بما أنني لا أريد أن أموت، فيجب أن أضع أمام عيني هدفا أحاول بلوغه، إنّ الحياة لا تكفي لأن تكون هدفا بعينه، فالإنسان إن عاش بدون هدف، فيستحسن له أن يموت، لأنّ حياته تلك لا تعتبر حقيقية بل هي إحدى صور الموت لا أكثر، فهو يعيش وراء قناع يتيح له إمكانية رؤية العالم من دون أن يملك موضعا فيه. أنا أرفض هذه الحياة، بل أمقتها، كان لزاما عليّ أن أبحث عن الوجهة الجديدة التي سأتخذها. فكّرت جليا في أفروديت، لقد مضى وقت طويل لا أعرف فيه هل هي على قيد الحياة أم لا؟ هل تمكّنت من الحفاظ على أفراد قبيلتها أم أنها مثلي؟ لم تكن لديّ الجرأة اللازمة للذهاب إلى مغارتها لمعرفة الحقيقة، حقيقة إن كانت حيّة أم لا! لأنني أعتبر فكرة بقائها على الحياة كسبب رئيسي لبقائي أنا حي، فلو علمت بموتها عندئذ يستحسن لي أنا أيضاً أن أغادر هذا العالم، لذلك قرّرت أن أجعل ذهابي إليها بمثابة آخر حلّ لي، آخر حلّ قبل رحيلي النهائي عن هذه الطبيعة القاسية .

***

استمرّت العواصف زهاء الشهرين لم تتوقف فيها، أمضيتها في المغارة من دون أن أفعل شيئاً. لقد ذهبت عنّي تلك الرغبة في قراءة الكتب، ولم أكن في حقيقة الأمر راغبا في شيء. أنا أمقت هذه المغارة التي سجنتنا، والتي سهّلت للطبيعة القضاء علينا وهاهي الآن تسجنني مجددا وتريد القضاء عليّ، لذلك قرّرت الرحيل عنها، لكن إلى أين؟ إننا نمثل آخر جيل على الأرض، ولم أشاهد أيّ غريب منذ أن كنت صغيرا، منذ أن جاء ذلك الرجل مع زوجته، كانا آخر غريبين يحلان بقريتنا، ومما سمعت عنهما أنهما قدما من الجنوب، قالا بأنهما آخر من تبقى من قبيلتهما، فقد مات الجميع من البرد والجوع، ولم يجدا سوى هذا المكان الذي يمنح لهما فرصة العيش دون أن يؤثّر الطقس عليهما، كنّا نرحب بكل الغرباء، ولم نرفض أيًّا منهم، كنّا نشترط عليهم فقط ألا يضرّوا الآخرين، لديهم الحرية المطلقة لبناء منازلهم في أيّ مكان، إنهم يستطيعون الاندماج داخل المجتمع من دون أن نفرض عليهم أيّ نوع من التقاليد، فلكل شخص تقاليده التي لا نولي لها اهتماما مادامت لا تضرّ أحدا منّا، ومهما كانت غرابتها، فهي من اختيار ذلك الشخص، وبالتالي له الحرية في التمسك بها، إننا لسنا مجبرين على إتباع طريقة هذا أو ذاك في الحديث أو التصرف أو المشي، كما لا نجبره نحن في إتباع أيّ منّا، فالشيء الوحيد الذي كنّا نحثهم عليه هو وجوب مراعاة المصلحة العامة، وأوضحنا لهم بأننا لا نفرض عليهم الأعمال، لكنه يستحسن القيام بها لأنها تضمن للجميع السعادة والاستقرار. فكل الأشياء التي يرى فيها خيرا له أو لغيره من الأفضل أداؤها من دون استشارة أحد، نحن نؤمن بأنّ أيّ شخص يبلغ من العمر ثلاثة عشر سنة يستطيع أن يتدبّر أحواله ويمكن لنا أن نضع فيه الثقة، لأنه في نظرنا إنسان بالغ. لقد التحق الكثير من الناس بقريتنا لكن وصولهم بدأ يتناقص إلى أن جاء ذلك

الرجل وزوجته لينتهي بذلك موسم الهجرة، إنّ ترحيبنا للجميع وعدم رفض أيّ منهم جعل كلّ المهاجرين يندمجون معنا وكأنهم ولدوا في القرية، لقد شكّلنا مزيجا من الأجناس والألوان من سمر وبيض وسود وصفر. قال أبي يوما في إحدى الاجتماعات: أظنّ أنّ قبيلتنا تملك كلّ الأجناس وبالتالي أنا فخور بذلك لأن العالم أصبح منحصرا في هذه البقعة، أنا فخور لأننا حققنا السلم بين الجميع، أنا فخور لقضائنا على العداوة. لكن المسكين لم يتوقع بأنّ العداوة التي يتحدث عنها تكمن في أخيه وليس في الآخرين، لقد سبق لي وأن قرأت عن هذا الأمر، وأدركت أن التاريخ حافل بتلك الأحداث: الصراع وسقوط المدن والحروب وغيرها من المآسي كان سببها الرئيسي العداوة الموجودة بين الإخوة. لكنني الآن سعيد لكون أفراد قبيلتي قد غادروا هذا العالم من دون أن تكون بينهم أدنى عداوة، بل على العكس كانوا متحابين أكثر من الإخوة، لو سمح لنا أن نعيش في زمن غير هذا الزمن لاستطعنا أن نبرهن للعالم بأسره عن إمكانية العيش من دون حروب أو صراعات .

***

أنا أدرك الآن بأنّ أيامي قد أصبحت معدودة، وأنا متيقن من ذلك، بدأت أفكر في الماضي واستحضرت ذكريات الأحداث التي عايشتها منذ قبوعي داخل هذه المغارة رغبة منيّ في تقييم مساري في هذه الحياة، فهل أنا نادم على شيء ما، وهل أنا نادم على عدم قيامي بشيء ما؟ اتجه تفكيري مباشرة إلى مشهد قتلي لعمي، فلحدّ الآن لم أصل إلى نتيجة مقنعة بخصوص ضرورة قيامي بذلك من عدمه، فمن جهة أفكار السلم والمحبة التي كنت أدعو إليها وآمن بها، ومن جهة أخرى الغدر والخيانة التي يجب أن يعاقب عليها، فأنا أرى أنّ الإنسان في عصرنا يملك الحرية المطلقة في أفعاله إذ لا يوجد أيّ مانع يحدّه من القيام بشيء ما، لكنّ الثقة التي يضعها المجتمع فيه لا يجب عليه خيانتها، وبالتالي عدم معاقبة ذلك المخطئ تجعلنا في وضع شبيه بأوضاع الأجيال السابقة أين تفرض نفسها سيطرة القوي على الضعيف ثمّ يأتي حرمان الجميع من الحقوق وبالتالي تتولد الدكتاتورية، فأنا أرى أنّ جوهر المعادلة هو الحفاظ على سلامة الأفراد ومعاقبة كلّ خارج عن الاتفاق المبرم، فكلّ من يضرّ الآخرين يعتبر خارجا عن الطريق وسينال مقابل فعله عقابا مثيلا لما قام به، أنا مجبر للأسف على إتباع هذا النمط من التفكير، لأنه يجعلنا أكثر أمانا، فالخوف الذي كان يكنّه الناس لخالقهم أو لرؤسائهم أو ملوكهم لا وجود له في عصري، فالمجتمع لوحده هو الذي يحدد مصيره، فإما أن يقرّر عقابه أو العفو عنه، وكان كلّ شيء يحدث علانية أمام الملأ. من الممكن أن نذهب بقراراتنا إلى عدم التعامل مع شخص مذنب بحيث يصبح منبوذا من طرف الجميع، كما يمكن أن تصل العقوبة إلى حد القتل إذا ما زهق روح شخص بريء، لكننا لم نبلغ ذلك الحد إلا بعد ارتكاب عمي لحماقته وارتكاب هاديس لمجزرته. مهما

حاول الإنسان إخفاء حيوانيته، فسيأتي اليوم الذي يرفع فيه الستار عنها، لتظهر حقيقته بيّنة أمام الغير، نعم، لقد رفعت الستار عن حيوانيتي يوم اتخذت قرار قتل عمي، بل وقتل هاديس أيضاً. لم أرتكب في حياتي خطأ يجعلني أعيش في حسرة، إلا ما اقترفته في حق عمي وهاديس. لقد كنّا ثلاثة جناة في جيلنا والجيل الذي سبقنا: عمي، هاديس وأنا، إنه لمن الغرابة أن أضع نفسي بينهم ولكنها الحقيقة، أنا قاتل مثلهم، لقد قضيت على حياتهما، فأنا مجرم، وأنا لا أنكر ذلك، وإنه لشيء مؤسف حقا، آخر جيل على هذه الأرض مازال يسفك دماء إخوته! لكن ما العمل، لذلك وكخلاصة لهذا الأمر أرى نفسي مذنبا حقا، أنا لست نادما على ما اقترفته، لكنني متحسر على ما قمت به.

إذا ما فكرت في كيفية التصرف مع القبيلة الأخرى أجد نفسي غير راض على ما فعلته، أو بالأحرى ما لم أفعله إذ لم أقم بالجمع بين القبيلتين ولم أحاول حتى القيام بذلك، فبصفتي حكيما للقبيلة كان بإمكاني أن أفرض على أفراد قبيلتي أمر الالتحام من جديد، إلا أنني لم أقم بذلك. ربما لعدم امتلاكي القدرة على تحمل مسؤوليتهم جميعا، أو لأنني أخاف من أفروديت أن تنتقم لأبيها منيّ، أو حتى لأنّ المؤونة كانت غير كافية لنا جميعا، ومغارتنا لا تتسع لهم، أو لأنني متخوف من أن يفهم إصراري على الجمع بين القبيلتين إلى وجود مصلحة خاصة بي، فالجميع يعلم بحبنا المتبادل، لذلك سيكون تفكيرهم منصبًّا مباشرة نحو هذا الموضوع. لكن ما أدراني بتفكيرهم، بل من قال بأن أفروديت مازالت متعلقة بي؟ بالإضافة إلى أنني لا أعير أدنى اهتمام لتعليقات الغير، لذلك أجدني محتارا لعدم تمكّني من الجمع بينهم، ربما أحد الأسباب التي عرضتها في الأول صحيحة، المهم أنني نادم على عدم توفيقي في الجمع بين القبيلتين .

بصفتي الحكيم سبق لي وأن اتخذت العديد من القرارات الحاسمة، ولحدّ الآن لم أكن صاحب أيّ قرار سيئ في نظري، فالجميع كان راض ومقتنع بكل ما كنت أقوله لهم أو أنصحهم به، الآن وأنا أستعرض بعضا من القرارات

التي اتخذتها أجد أنني أحسنت التصرف، فقد كنت أحسّ دائمًا بمصدر المشاكل، أو أدرك بذكائي كيفية تجنب المصائب، لذلك فإن أغلب الحوادث التي جرت لنا كان من المستحيل تجنبها، إذ كان من المستحيل التكهن بها، وهذا ما يجعلني غير نادم لتحمّلي مسؤوليتهم، لكن يبقى أن أشير إلى أنّ وجود بروميثيوس معي سهّل عليّ الكثير، فقد كان ذكيا جدا، بل أذكى مني بكثير، أنا أعترف له بالجميل، وأنا ممتن له بكل ما قام به من أجلي ومن أجل القبيلة .

كانت إذن هذه حياتي، فهل عشت فيها حياة سعيدة؟ نعم، أغلب مراحل حياتي. كنت سعيدا في كلّ تلك الفترات، لقد تمكّنت من تحقيق هدفي في السعادة، وأظنّ أنني مكّنت غيري من تحقيق سعادتهم إلى حد ما، إنه لشيء جميل ألا تنحصر ذكرياتي على مرحلة واحدة دون سواها، صحيح أنني تمكّنت من بلوغ ذروة السعادة مع فينوس لكن ذلك لا يمكن له أن يمحي على الإطلاق الفترات الأخرى التي قضيتها مع هستيا وستيروب وأرتيميس وداناي وإيوس وسيليني، كما لا يمكن أن أنسى الفترات التي قضيتها مع أصدقائي ورفيقاتهم، والآن وأنا أرى صورهم أمامي أشعر بالحزن، أشعر بمرارة الفراق، كيف لي أن أحقق من جديد السعادة، إنني لا أبحث عن قمة السعادة بل أبحث فقط عن السعادة التي تمنح للنفس الهدوء والطمأنينة، السعادة التي تجعل الإنسان في وئام مع جسده، وفي وئام مع محيطه، كيف لي أن أصل إليها، عاودتني فكرة الرحيل من جديد، يجب أن أخرج من هذه المغارة لكي أذهب إلى مكان آخر، ثمّ تبادرت إلى ذهني قمة الجبل العالي التي تظهر من بعيد، إنها أعلى قمّة تتراءى لنا ولطالما حلمت بتسلقها لمّا كنت صبيا، إذن عليّ بالتوجه إليها وفي طريقي سأبحث عن أناس آخرين غيري، فلربما أجد بعضا منهم متشبثين بالحياة هناك، فأنا أريد أن أكون معهم، لديّ أمل كبير في العثور عليهم، ربما وجدوا مكانا يحقّق لهم الراحة والدفء والأمان، فلِم لا أكون بينهم!؟ سأذهب مهما كانت الظروف، يجب أن تتوقف العواصف فقط، لقد أصبح لديّ في الأخير هدف! لذلك يجب أن أعمل على تحقيقه .

***

العواصف الثلجية لم تهدأ، بدأت أفقد الأمل، لقد سئمت من حياتي داخل المغارة وسئمت من هذا البرد ومن دخان هذه النار الذي يخنق أنفاسي إنه يتصاعد أسودا كثيفا ويشكل غيوما داكنة وكأنه لا تكفيني غيوم العواصف الثلجية لأن يزيد ضغطه عليّ، أحسّ بأنّ أنفاسي تختنق، فأنا أجد صعوبة كبيرة في القيام بذلك، ودقات قلبي لا تتوقف عن التسارع، كما بدأت الوساوس تشغل أفكاري، فماذا لو مرضت الآن؟ لا أحد يوجد بجانبي، سأموت حتمًا، وسأموت وحيدا! لن أجد من يدفنني! هل هذه هي نهايتي؟ أبهذا الشكل سأفارق الحياة؟ إنني لم أقم بشيء ضد الطبيعة، فلماذا هي ساخطة عليّ بهذا الشكل؟ يجب ألا أمرض، كان هذا هو همّي الوحيد، خرجت من الأغطية ومن الخيمة التي صنعتها، وأخذت بعض الشحم حيث سخّنته على النار ثمّ قمت بنزع ثيابي كاملة، بدأت بعدها بتدليك جسدي، فكّرت في سيليني وفي رفيقاتي عندما كنّ يدلكن لي ظهري، أما الآن فلا أستطيع القيام بذلك. قمت بارتداء ثيابي وعدت إلى الانبطاح داخل الخيمة تحت كومة >الأغطية. لقد مضى وقت طويل لم أتلفظ فيه بكلمة، كانت جلّ أحاديثي داخلية أخاطب فيها نفسي، لذلك آثرت أن أتلفظ بأول الكلمات منذ موت أورفيوس، فقلت صارخا بصوت عال: أنا موجود، ثمّ سكتت، كنت سعيدا، حيث أحسست بالفرح وكأنها المرة الأولى التي أنطق فيها. خرجت من جديد من الخيمة وأحضرت بعض الأخشاب حيث وضعتها بجانب النار، ثمّ أخذت بعض معاطف أفراد قبيلتي، اخترت لكل فرد المعطف الذي يميّزه، بعدها ربطت الأخشاب مع بعضها البعض ووضعت المعاطف بصفة منتظمة بحيث كلّما أنظر إليها يخيل لي أن شخصا يلبسها وهو جالس أمام النار، كان ذلك شيئاً رائعا، حيث كان معطف سليني ورفيقاتي على

يميني ويساري، ثمّ معطف بروميثيوس ورفيقته ومعطف بوسيدون ورفيقته ومعطف أورفيوس ورفيقته ومعطف هايمون ورفيقته ومعطف ديموفون ورفيقته وأخيرًا معطف مينيلاوس ورفيقته، كانوا جميعا هنا لا ينقص منهم أحد، كان ذلك أمرا عظيما، أخيرًا اجتمعنا مع بعض من جديد ! قلت لفينوس التي كانت بعيدة قليلا عنّي: أحبك، فردّت: أسكت إنّ بروميثيوس معي، فخجلت من نفسي حيث نظرت إلى بروميثيوس وقلت له في شيء من الضيق: لقد غبت طويلا، أأنت الآن بخير؟ فردّ مبتسما: نعم، وأنت؟ فقلت له: أنا بخير، شكرا لك، ثمّ نظرت إلى أورفيوس وسألته: هل تغنيّ لنا يا أورفيوس أغنية من أغانيك؟ فنظر يمينا ثم شمالا وقال حائرا: أين هي كنارتي يا رودوب؟ فردّت قائلة بارتباك: أنا لم أشاهدها، فقال لي مندهشا: وأنت ألا تعرف أين تتواجد؟ فكّرت قليلاً ثمّ قلت له: أنا آسف لم أشاهدها، ثمّ انتقلت إلى مينيلاوس وبوسيدون وخاطبتهما بفرح: لقد كنّا خائفين عليكما، حتى أننا حسبناكما ميّتين، هل أنتما الآن بخير؟ فقال مينيلاوس مبتسما: نعم شكرا لك، اتكأت عليه هيلينا وهي تضحك، فقلت لفينوس برقة: هل تتفضلين علينا بقراءة إحدى قصص ألف ليلة وليلة؟ فقالت وهي تضحك: على الرحب والسرور، لكن أين هو الكتاب؟ فقلت مندهشا: أظنّه في الصندوق، هل تتفضلين بإحضاره؟ لكنها لم تقم، فأعدت طلبي برجاء: هل يمكن لك أن تحضري الكتاب يا فينوس؟ إلا أنها لم تردّ، نظرت إليها جيدا ووجدت أنها لا تتحرك، بل لا تتنفس أيضاً، أمسكت يدها لأرى ما بها، فإذا بالمعطف يسقط أرضا، ولا أحد يوجد بداخله، فصرخت بحسرة: فينوس أين أنت؟ وإذا بي أستفيق من هذياني، لقد كانت الأمور أشبه بالحقيقة عندي، كنت آمل أن يستمر هذياني أطول من ذلك، آه لو كنت مجنونا على الأقل لا أكون واع بما يحدث لي، تحسّست جيدا، فإذا بالعواصف ما تزال قوية، ترى متى تتوقف؟ بل هل ستتوقف أصلا .

***

لم يكن لي وقت للنوم ووقت للاستيقاظ، فأنا لم أعر أدنى اهتمام لمراحل اليوم، وفقدت بذلك تقسيم الأيام إلى ليل و نهار، فالمهم عندي هو أنه عندما أتعب أنام وعندما أتعب من النوم أستيقظ، كنت أقوم بدورات داخل القاعة الكبيرة حيث كنت ملزما بالقيام بها منذ أن دخلت فكرة الرحلة إلى ذهني، فأنا أريد أن أحافظ على لياقة جسمي، كنت أقوي عضلاتي برفع الأحجار أو سحبها على الأرضية، وقلت في نفسي مشجعا: يجب أن أكون قويا وأبرهن للطبيعة بأنّ وجودي الآن ليس بمحض الصدفة، وإنما لأنني قوي، إنك أمام خصم لدود، فلن أنهزم بهذه السهولة، كنت ألتهم الكثير من اللحم إذ عادت إليّ الشهية من جديد، لاحظت تغيرا في جسمي إذ بدأت عضلاتي تتصلب، وأصبحت لا أحسّ بالبرد مثل السابق كنت أظنّ أن درجات الحرارة هي التي ارتفعت لكن المقياس كان يشير إلى -29°، كنت مهوسا بفكرة الخروج، فقد مضى الآن أكثر من ثمانية أشهر على ما أظنّ لم أر فيها الخارج، قرّرت نزع اللحية التي تغطي وجهي والتي لم أحلقها منذ موت إيوس، أحسست بالانتعاش وبدأ الأمل في توقف العواصف يعود إليّ، حيث بدأت أحسّ بأنّ هذا السجن لن يطول وكنت على حق، إذ أنني لمّا استيقظت اليوم على عادتي، أحسست بنقص شيء لم أتبيّنه في الأول، بدأت أنظر يمينا وشمالا لأدرك هذا الاختلاف إلا أنني لم أتعرف عليه، قمت بتسخين الماء كعادتي ثمّ ذهبت لأقتطع شريحة لحم من القاعة الأخرى ولمّا عدت لاحظت أنّ الثلج الذي كنت أستعمله لتغطية الحيوانات والذي آخذه من الفتحة التي قمت بها لم تنسد، فمن عادتي أن أنزع دائمًا الثلج الذي يدخل إلى القاعة لكن هذه المرة لم يدخل، فاحترت للأمر، لم أدرك في الأول السبب، لذلك لم أعره أدنى اهتمام، إلا في اللحظة التي هممت فيها بأكل

الطعام، وكأنّ شخصا صفعني، إذ تركت قطعة اللحم تسقط أرضا بينما كنت لا أتحرك، خيّم صمت رائع في القاعة، إنني لا أسمع أيّ صوت سوى اصطكاك الحطب المحترق، هرولت إلى موضع الفأس حيث أخذته ثمّ اتجهت صوب الفتحة وبدأت أحفر بسرعة كبيرة أسقطت على إثرها بعض الأحجار التي بنيت بها الباب، كان الثلج كثيفا، حفرت عدة خطوات إلى الأمام إلا أنني لم أخرج منه، فبدأت أحفر في الاتجاه المتصاعد، كلّما أتقدم خطوة إلا ودقات قلبي تتصاعد، كان نفقا طويلا لكنّني في النهاية تمكّنت من الخروج .

كان أمرا عظيما، منظرا رائعا، لأول مرة أحببت صورة الثلج التي كانت أمامي، إنني لا أرى سوى بياض الثلج، إنه جميل، بدأت أجري وأقفز وأصرخ وأتدحرج، كنت كالطفل الصغير الذي يشاهد الثلج لأول مرة في حياته، نظرت إلى الشمس التي كانت تقرب إلى المغيب ووجدتها هي الأخرى في غاية الروعة، ثمّ نظرت مباشرة إلى الجهة الشرقية أين تتراءى لي قمة الجبل العالية، إنها بعيدة، فصرخت في وجهها قائلا: انتظريني، فأنا قادم إليك، ثمّ بدأت أشعر بالبرد، حيث لاحظت بأنني لم ألبس لا قفازاتي ولا قبعتي، فأسرعت بالعودة عبر ذلك النفق إلى أن دخلت المغارة وأنا أقول في نفسي محذرا: يجب أن آخذ احتياطاتي، لا يجب أن أمرض وأنا قريب من الهدف .

لم أنم طوال هذه الليلة حيث كنت من وقت لآخر أتحسس الأصوات إن كانت العواصف هي التي عادت من جديد أم لا، إلا أنّ الهدوء كان ممتعا، كنت أضحك لوحدي وأبتسم وأخاطب نفسي قائلا: لقد هدأت، بإمكانك الآن القيام بما تريده، يجب أن تسرع وإلا عادت من جديد، لكنني فكرت جيدا في الأمر، ثمّ وصلت إلى نتيجة مفادها عدم المغامرة، يجب عليّ أولا أن أتأكد من أنّ العواصف لن تعود بسرعة، إذ يلزم لي على الأقل خمسة أيام للوصول إلى الجبل الأول، وخمسة أيام أخرى للوصول إلى الجبل الذي أقصده، ومن الممكن شهر على الأقل لصعوده، وعلى الرغم من ثقتي باستحالة إنجاز المغامرة إلا أنني أصررت على القيام بها، فهذا هو هدفي، الصعود إلى قمته وتحقيق حلمي

الطفولي والنظر في الوقت نفسه في إمكانية تواجد أشخاص غيري على هذه الأرض .

***

بقيت مدة أسبوع وأنا أترقب تغيرا في الطقس، حيث كنت أسجل كلّ ارتفاع أو انخفاض في درجات الحرارة وتوصلت إلى أنها كانت ترتفع، وهذا مؤشر جيد بالنسبة لي، كان الجو صافيا تماما طيلة ذلك الأسبوع، فقررت أن أبدأ رحلتي، وليحدث ما يحدث، إنّ هلاكي هناك لن يغيّر من الوضع شيئاً، فأنا أفضّل الموت على أن أبقى تسعة أشهر أخرى لوحدي داخل المغارة، لقد خلقت هدفا لنفسي ويجب عليّ تجسيده، إنني من جديد في صراع مع الطبيعة، من سيفوز منّا على الآخر؟ إنّ هذه المغامرة ليست من أجل التنزه أو لإثبات الذات، إذ لا وجود لطرف آخر يقدّر الجهد سأبذله من مجهود، فأنا وحيدا!. يعتبر الذهاب إلى تلك القمة حلما كان يراودني في صغري، وكانت تتراءى لي قمته الشامخة من بعيد. تحدثت مع بروميثيوس عنها معبرا له عن رغبتي في الذهاب إليها، فقال لي بأنها بعيدة وصعبة، وكل من يقصدها لا يعود. وخلقت القمة آنذاك في ذهني وأنا طفل صغير صورا كثيرة عن أسباب عدم عودة قاصديها وساهمت القصص الخرافية التي كنت أسمعها في رسم معالم حياتية أخرى أكثر إيجابية من المعالم التي كنت أحيا فيها، إذ كنت أتصوّر أنّ عدم عودة هؤلاء الأشخاص يعود حتمًا إلى توصّلهم إلى مكان رائع ينعمون فيه بالدفء والراحة، إنّ بقاءهم هناك لا يعود إلى نتائج سلبية لرحلتهم، بل لما يوفره ذلك الفضاء من هناء وسعادة! أنا الآن أعتبر بقائي في المغارة بمثابة استسلام وخضوع، لذلك اعتبرت الوصول إليها هدفا سطّرته لنفسي حتى وإن بدا لي أمر تحقيقه مستحيلا، ففرص العودة من مغامرتي سالما تعتبر شبه منعدمة في نظري، فأنا أرغب فقط في الوصول إلى قمته، لا أكثر ولا أقل. ولكي أجعل الحظ

يميل إلى جانبي حضّرت للرحلة زلاجة متوسطة الحجم، وضعت فيها ملابس وأغطية جلدية وحبال، بالإضافة إلى بعض المؤونة التي تكفي لمدة شهرين، وأخذت معي الحطب، والخنجر، ومقياس الحرارة وولاعتين، بالإضافة إلى المنظار، وحملت معي أيضاً دفتر مذكراتي لأصف فيه رحلتي، وفي الصباح أمسكت بحبل الزلاجة وانطلقت إلى الجهة الشرقية وأنا أتمنى في قرارة نفسي أن يبقى الجو صافيا إلى غاية نهاية الرحلة أي إلى غاية وصولي إلى الهدف.

مشيت طوال اليوم ولم أتوقف فيه إلا عندما قرب الليل، حيث قمت بحفر نفق عميق ودخلت إليه مع أغطيتي، ثمّ تناولت بعضا من قطع اللحم، بعدها لففت نفسي داخل الجلود لدرجة أنني لم أستطع الحركة بداخلها، فأمضيت ليلتي الأولى دون أن أشعر بالبرد، وفي الصباح الباكر واصلت رحلتي، وأنا أنظر إلى السماء وأتفحصها، كانت تظهر لي صافية، ممّا يدلّ على جمال ذلك اليوم حيث لم أتوقف فيه إلا عند الغروب، فدفنت نفسي من جديد تحت الثلج إلى غاية الصبح، أين واصلت سيري. لم أكن أشعر لا بالبرد ولا بالتعب، بل كنت نشيطا جدا وكلّي أمل في أن أصل القمة في أسرع وقت ممكن.

***

مضى على سيري أكثر من أسبوعين، لم تعترضني أية صعوبة، فالطقس كان جميلا، والطريق سهلة، ودرجات الحرارة لم تنخفض في النهار تحت 28°، تعرّضت لعاصفة ثلجية واحدة لكنها ما لبثت وأن تركت المكان فاسحة المجال للصفاء في الانتشار، ووصلت اليوم إلى السلسلة الأولى، أخذت المنظار للبحث عن الطريق الذي أسلكه، فوجدت بأنّ هناك خمس سلاسل جبلية متوازية تفصلني عن سلسلة الجبل الكبير ممّا يعني أنه عليّ اجتيازها جميعا، كانت كلّ سلسلة أصغر من السلسلة التي تليها وهكذا إلى غاية الجبل الأخير الذي يظهر أمامي بعظمته وجبروته. أمسكت جيدا حبل الزلاجة وبدأت أصعد السلسلة الأولى، استغرق صعودي واجتيازي لها يوما كاملا، حيث حفرت في أسفل السلسلة الثانية نفقا بت فيه الليلة .

***

أمسكت في الصباح بحبل الزلاجة وبدأت صعود السلسلة الثانية، كان صعودها صعبا نوعاً ما حيث اضطررت في بعض الأحيان إلى ربط الزلاجة بحبل طويل وسحبها بين الصخور التي بدأت تظهر على عكس السلسلة الأولى التي كانت مغطاة تماما بالثلوج، ولمّا وصلت إلى المكان الذي أستطيع فيه اجتيازها كان الليل قد قرب أن يحل، نظرت حولي عساني أعثر على مغارة لكنني لم أوفق في بحثي، فقررت الحفر، كانت الحفرة الأولى التي قمت بها غير عميقة بحيث أنني وصلت إلى الصخور بسرعة، ثمّ حفرت في مكان آخر، لكنني اصطدمت من جديد بالصخور. كان البرد شديدا جدا والرؤية أصبحت شبه منعدمة بسبب الظلام، فقررت النزول إلى الأسفل حيث كانت طبقات الثلج كثيفة. لقد كانت المغامرة خطيرة حيث لم أكن أرى شيئاً، كنت أتحسس الثلج برجلي، ولمّا نزلت لمسافة معتبرة قررت الحفر فيها، لم يكن لديّ حلّ آخر، فتلك الحفرة يجب أن تنفع لقضاء الليلة مهما كلف الثمن. تمكّنت بعد جهد كبير من حفر نفق يغطي كامل جسمي. كنت أرتعد من البرد، فقمت بلف جسدي بالجلود، ولم أتناول طيلة ذلك اليوم أيّ طعام، أمضيت الليلة وأنا أرتعش، لم أكن أظنّ أني سأنجو بنفسي، وأن يحلّ الصباح عليّ، لكنني لمّا فتحت منفذ تلك الحفرة ورأيت صفاء السماء عاودني الأمل من جديد، فقمت بإيقاد النار لأول مرة حيث جففت الأغطية وتدفأت قليلاً، ثمّ تناولت قطعتين كبيرتين من اللحم لأستعيد بهما نشاطي. تمدّدت بعدها قليلاً لأستريح وأتأمل المناظر عن طريق المنظار، وقبيل منتصف النهار بقليل بدأت النزول لأجد نفسي بسرعة أمام السلسلة الثالثة التي بدأت في تسلقها، وقبل حلول الليل بحثت عن المكان الذي أحفر فيه نفقي، فإذا بي أرى مغارة في ذلك الجبل، اتجهت

إليها علّني أستطيع قضاء الليل فيها، ولمّا دخلتها وجدتها تحتوي على قاعة واحدة واسعة لكنها باردة جدا، قمت بإيقاد النار ودخلت بين الجلود بحيث لا يظهر سوى رأسي ويدي، ثمّ تناولت الأكل ونمت نوما عميقا، أحسست بأنني في مغارتي التي تركتها، تذكّرت المؤونة التي تركتها وتبادر إلى ذهني إمكانية فسادها إذا ما طالت رحلتي، على الرغم من أنني قمت قبل رحلتي بملء القاعة بالجليد علّه يبقى طويلا، وفكرت أيضاً في إمكانية قدوم أفروديت وجنودها إلى المغارة، فعندما لا يجدون أحدا، فإنهم سيظنّون بأننا قد متنا جميعا وبالتالي سيستولون على كلّ المؤونة والحطب الذي جمعناه، لكنني قلت في نفسي: على الأقل سيستفيدون منه، فأنا غير واثق من العودة سالما وأعلم مقدار الصعوبة التي تنتظرني في الطريق والتي لا يمكن أن تقارن أبدًا مع ما لاقيته في مساري إلى غاية الآن .

***

جمعت أمتعتي في الصباح داخل الزلاجة وواصلت الصعود إلى غاية المكان الذي أستطيع فيه اجتياز السلسلة ثمّ بدأت في النزول، لكنني اصطدمت بوجود طبقة غير سميكة من الثلج، كدت أسقط إلى الأسفل وأدفن بداخلها لولا يقظتي حيث عدت أدراجي إلى غاية المكان الذي عرّجت فيه، وقمت من جديد بالتسلق إلى غاية وصولي إلى مكان آخر بدأت فيه بالنزول، كان ذلك صعبا للغاية لأنه يشكل منحدرا حادا، فأيّ خطأ مني إلا وأجد نفسي أرتطم بالصخور، قذفت بالزلاجة إلى الأمام وبدأت أنزل معها، وكلما أدرك بأنها ستصطدم بالصخور، أقوم بجذبها إليّ لأقذفها من جديد إلى وجهة أخرى، كنت أراقب طوال الوقت الشمس حيث كنت آمل أن أصل إلى الأسفل قبل غروبها، وهذا ما حدث، إذ أسرعت في حفر النفق الذي أمضيت فيه الليلة وأنا ملتف بأغطيتي، لكن لم يمض وقت طويل حتى سقط سقف النفق عليّ لأجد نفسي مدفونا تحت الثلج، فأسرعت في فكّ نفسي من الجلود التي لففت بها، كان ذلك أمرا صعبا إذ كدت أن أختنق، ولم أخلّص نفسي منها إلا بعد عناء. كنت أحفر في الثلج بيدي وأنا مغمض العينين إلى أن أحسست بأنّ يدي تحفر في الفراغ، عندئذ أرسلت نفسا طويلا. قمت من مكاني وأخرجت الجلود الموجودة تحت الثلج وأنا أنفّضها. حلّ الليل بسرعة وحلّت معه برودة شديدة جدا، كانت ثيابي مبللة ولم يكن بوسعي أن أشعل النار لأنّ ذلك سيستغرق وقتا طويلا، فقمت مباشرة بحفر نفق ثان غير بعيد عن النفق الأول، واتخذت حيطتي من عدم لف نفسي بالأغطية الجلدية بل وضعت البعض منها على الأرض والبعض الآخر تغطّيت بها، كانت باردة، لكن مع مرور الوقت بدأت أشعر

بالدفء، ثمّ أخذت أضحك إذ تذكرت أنني لم أتناول الأكل بعد، فقمت بالبحث في جيوبي عن بعض قطع اللحم وبدأت أقضمها بنهمٍ.

عندما حلّ الصبح أشعلت النار وجففت الجلود ثمّ سخنت الماء وشربته، فأحسست بالحرارة تسري أخيرا في جسمي. تدفأت قليلاً وبعدها واصلت رحلتي وأنا سعيد باستمرار الصفاء، كانت الأرض مستوية والمسافة التي تفصلني عن السلسلة الرابعة قصيرة لكنني عرجت يمينا حيث رأيت منفذا يمكّنني من اجتياز تلك السلسلة دون تسلقها، كان بعيدا نوعاً ما لكنني تمكّنت من الوصول إليه قبل حلول الليل، حيث قمت كعادتي بحفر النفق والنوم فيه، وفي الصباح واصلت سيري، لم يكن المكان الذي أستطيع المرور منه عاليا لكنه كان مليئا بالنتوءات بحيث لا يمكن للزلاجة العبور منه، فقمت بحمل الزلاجة على ظهري بما فيها من متاع، كنت أخاطب نفسي في سخرية قائلا: لو أحرقت الحطب اليوم لكانت الزلاجة خفيفة الآن ! ثمّ بدأت أشجّع نفسي قائلا: لقد اقتربت من هدفك، فلم تبق سوى سلسلة واحدة لتصل أخيرا إلى الجبل، اصبر فأنت قريب جدا.

تمكّنت من صعود تلك النتوءات بعد جهد كبير، فقدت فيه الكثير من قواي، جلست على الصخور لآخذ جانبا من الراحة تناولت فيها على غير عادتي القليل من اللحم، ثمّ استعدت أنفاسي وبدأت في النزول، كانت الصخور خطيرة لكنّ نزولي كان سهلا، لم أحسّ بثقل الزلاجة إلا وأنا أرميها على الأرض عندما وصلت إلى الأسفل، إذ أحسست بأنّ ظهري يكاد ينفجر من الألم، فقرّرت إمضاء الليلة هناك إذ بقي لي متسع كبير من الوقت قبل الغروب. قمت بحفر النفق ثمّ إشعال النار، سخنت بها الجلود ثمّ أطفأتها ودخلت النفق وأنا أمضغ اللحم، لأول مرة لم أحسّ ببرودة الجلود، كانت رائعة، خيل لي أن امرأة كانت تنام بجانبي، فتذكرت رفيقاتي التي فقدتهن، فأرسلت تنهيدة طويلة، ثمّ أغمضت عيني .

في الصباح جمعت الجلود وقطع الحطب غير المحترقة، ثمّ شددت حبل الزلاجة واتجهت صوب السلسلة الخامسة، توقفت في منتصف الطريق حيث أخذت المنظار وبدأت أبحث عن الطريق الذي يمكنني من اجتيازها، كانت كبيرة جدا وملتحمة، وأظنّها مرتبطة مباشرة بالسلسلة التي يوجد بها جبلي، فاخترت بذلك التوجّه إلى المكان الذي يقابل مباشرة قمة الجبل المقصودة، وبدأت في الصعود، كنت أسحب ورائي الزلاجة التي أنهكت قواي نظرا لثقلها، لم أبلغ بعد منتصف الطريق لما أحسست بالتعب الشديد، فقررت التوقف، كان الليل غير بعيد. قمت بحفر نفق بجانب صخرة كبيرة، أشعلت بعض قطع الحطب، ثمّ تناولت الأكل واتجهت بعد ذلك مباشرة إلى النفق، لم أقم بتدفئة الجلود، فقد كنت متعبا لدرجة أنني لمّا وضعت رأسي عليها دخلت في سبات عميق .

واصلت في الصباح تسلقي للسلسة الخامسة، كنت على حق في تخميني فقد كانت ملتحمة مع السلسلة السادسة، أحسست بالسعادة لمّا رأيت الجبل العظيم يقابلني مباشرة، فأخيرًا وصلت إليه! تأملته مدة من الزمن ثمّ بدأت مباشرة بتسلقه، فقد كنت متلهفا للوصول إلى قمته، تلك القمة التي طالما شاهدتها من بعيد وأنا طفل صغير، تلك القمة التي أثارت فضولي وها أنا الآن أحقّق حلمي لوحدي على الرغم من صعوبة الطقس، وخطورة المسالك، كان الطريق سهلا في الأول إذ لا يوجد أيّ عائق أمامي. استمر الأمر على ما عليه يوما كاملا، لم ألاحظ تواجد المغارات في تلك الناحية لذلك قمت كعادتي بحفر نفق وإشعال النار، كانت البرودة أشدّ ممّا كانت عليه في الأيام السابقة حيث أنني لمّا نظرت إلى المقياس لاحظت أنها قد بلغت -41°. كنت أرتعد من البرد، دخلت النفق لأنام، وفي الليل كانت المفاجأة، حيث بدأت أسمع في البداية صوت الرياح التي ما لبثت وأن تحولت إلى عواصف هوجاء، فأخذني الخوف وحدّثت نفسي قائلا: هل ستموت الآن وأنت على أطراف هذا الجبل؟ هل وصلت نهايتك؟ إنك لم تحقق حلمك بعد، يجب أن تقاوم! ثمّ بدأت أخاطب الطبيعة قائلا لها بتودد: اصبري قليلاً دعيني على الأقل أصل إلى القمة وافعلي بعد ذلك

ما تريدينه، فأنا سأكون راض تمام الرضى بكل ما ستقومين به ضدي، أرجوك أن تهدئي. لم أنم طيلة تلك الليلة، فالعاصفة كانت قوية جدا، كان من الضروري عليّ الخروج من النفق لأنني تركت الزلاجة في الخارج وعليها جميع الأشياء التي أحتاج إليها من لحم وحطب، فخفت أن أفقدها لذلك قمت بإحاطة جسمي بالجلود ثمّ خرجت من النفق لأجد الزلاجة مغطاة تماما بالثلوج كانت الرياح باردة جدا لا أعرف المنفذ الذي تدخل عن طريقه إلى جسمي. بدأت أحسّ بيدي ورجلي تتجمدان، أزحت الثلوج عنها ثمّ أخذت منها بعضا من قطع اللحم بعد ذلك قربتها قليلاً من النفق حيث قمت بإدخال الحبل إلى الداخل ثمّ أغلقت ورائي المنفذ. كان النفق ضيّقا لا يتسع لنا معا لذلك آثرت الاحتفاظ بالحبل، هكذا على الأقل أضمن بقاء الزلاجة معي. كان البرد شديدا طوال الليل. حاولت أن أحيط جسمي كله بالجلود لكنّ شعوري بالبرد لم يتوقف، قمت بأكل قطعة لحم، ثمّ حاولت النوم، فلم أستطع، وفي الصباح لاحظت أنّ العاصفة لم تتوقف بعد، فآثرت البقاء داخل النفق حيث ظللت قابعا فيه وأنا أرتعد من البرد، استمر تساقط الثلوج طوال النهار والليل بأكمله، وكانت تلك الليلة البيضاء الثانية التي أمضيها في المكان نفسه، تبادرت إلى ذهني مختلف الأفكار السوداء، تذكّرت الأشهر التسع التي أمضيتها من دون أن تتوقف العواصف، فقلت لنفسي بارتباك: وإن لم تتوقف، فماذا سأفعل؟ سوف أموت هنا مدفونا داخل هذا النفق، ماذا جنيت؟ لا شيء، فأنا لم أبلغ القمة ولم أبق في مغارتي على الأقل أعيش فيها مدة أطول، ماذا أفعل هنا؟ لماذا سمحت لنفسي بالمغامرة؟ ألا يكفيني العذاب الذي ألاقيه هناك لأجلب لنفسي متاعب أخرى؟ أنا حتمًا أبحث عن موتي بنفسي، كان عليّ أن أموت في ذلك اليوم الذي حاولت فيه الانتحار، لو فعلت ذلك لكنت الآن مستريحا. لُمت نفسي كثيرًا على هذه المجازفة التي قمت بها، حيث فكّرت في أفروديت، ماذا لو جاءت لوحدها إلى المغارة وأنا موجود فيها لكنت الآن من أسعد الناس على الأرض بل أسعدهم جميعا لأنّ أفراد قبيلتها لن يصلوا إلى مستوى السعادة التي سأحققها، وعوضا عن ذلك أُوجد داخل هذا القبر البارد وتحت هذه العواصف

الهوجاء. لم أرد أن أفكر في المستقبل، كان همي الوحيد هو توقف العواصف لذلك كانت أذناي تصغيان جيدا لأيّ تغير يمكن أن يحدث .

في الصباح تواصل عصف الرياح لكنني لمست أنها أقل حدة، لذلك حاولت الخروج لأستطلع الأمر، فإذا بي أجد نفسي مدفونا تحت أكوام هائلة من الثلوج، كان عليّ التخلص منها للخروج، بدأت عملية الحفر التي كانت مجهدة ثمّ أخذت أتتبع الحبل الذي ربطته إلى رجلي لأصل في الأخير إلى الزلاجة، كانت الرياح باردة لكن تساقط الثلوج قد توقف، قررت البحث عن مغارة، فهي الوسيلة الوحيدة لنجاتي، فالغيوم الكثيفة والضباب يشكلان خطورة كبيرة ويؤذنان باستمرار العواصف، لذلك بدأت في الصعود لكن بصعوبة كبيرة حيث كانت الرياح تدفعني إلى الأسفل بينما كنت أحاول التقدّم إلى الأعلى، لم أكن أرى إلا خطوات قليلة أمامي، كانت مجازفة حقيقية لكن ليس بيدي حيلة أخرى، كنت أتمعن النظر من حين لآخر عساني أرى مغارة إلا أنني لم أشاهد سوى الثلوج البيضاء وهي تحيط المنطقة، تابعت التسلق وأنا أحسّ بألم شديد في يدي ورجلي، لكنني تشجعت وتقدمت لأرى في الأخير شيئاً أسود، اتجهت نحوه فإذا به عبارة عن مغارة لكنها كانت عالية عن الأرض إذ كان عليّ أن أتسلق عددا من الصخور تحت تلك الرياح والثلوج التي بدأت بدورها في التهاطل، استخرجت الحبال من الزلاجة ثمّ ربطتها مع بعض وربطت طرفها بالزلاجة وأحطت الطرف الأخر حول خصري وبدأت تسلق المرتفع. كلّما أضع خطوة إلا وأحسّ برجلي تنزلق، لم أستطع الصعود ولو لخطوة واحدة، فالصخور كانت زلجة جدا بفعل الجليد المتواضع عليها، قمت بإخراج خنجري وبدأت أحفر الأماكن التي أمسك فيها بيدي، وكنت أضع رجلي في المواضع ذاتها، لم أكن أعير للرياح والثلوج أدنى أهميّة لأنني كنت على علم بأنّ حياتي مرتبطة بالوصول إلى تلك المغارة، لذلك كان عليّ تحمّل كلّ شيء وإلا فإنني سأفقد حياتي في هذا المكان بعيدا عن مغارتي وقريتي. لمّا رأيت فتحة المغارة أمامي ازددت حزما وشجاعة حيث واصلت تسلق المسافة المتبقية وأنا أشجّع نفسي على بذل جهد أكبر إلى أن وصلت إليها أخيرا حيث دفعت بجسمي إلى الداخل

وأنا ألهث من التعب، لم يكن لديّ متسع من الوقت لتفحصها بل قمت مباشرة بسحب الزلاجة التي كانت مغطاة بالثلوج حيث شكّلت لي ثقلا إضافيا، وكان ذلك أمرا مضنيا للغاية. كدت أفقد الأمل في أن تصل إليّ حيث أنها كثيرا ما تعثرت بين نتوءات الصخور، ووصل بي اليأس إلى درجة أنني فكرت في تركها تسقط أرضا، على أن أستعيدها بعد تحسّن الطقس، لكنني تذكرت اللحم والحطب الموجودين بداخلها، فقلت في نفسي مشجعا: إن أردت أن تقضي ليلتك في نعيم، فما عليك إلا أن تواصل عملية السحب! فأخرجت كلّ ما في حوزتي من قوة إلى أن أدخلتها إلى المغارة. قمت عندئذ بسحبها إلى الوسط. ثمّ أشعلت الولاعة لرؤية ما يحيط بي إذ كان المكان مظلما، لاحظت وجود نفق يؤدي إلى الداخل، فقمت من جديد بسحب الزلاجة متبعا ذلك المسار إلى أن وصلت إلى مكان لا أحسّ فيه بوصول الرياح الباردة، أنزلت بسرعة الحطب من فوق الزلاجة وقمت بإشعال النار، ونزعت القفازات من يديّ، فإذا بهما حمراوتين متجمدتين تماما، قمت بفك وسار أحذيتي بصعوبة، كان منظر رجليّ مشابها تماما لمنظر يديّ، قربتهما من النار لتدفئتهما وشيئاً فشيئاً بدأت أشعر بهما، ثمّ قمت وأحضرت الجلود ووضعتها بجانب النار وتمددت عليها، أحسست أخيرًا بالراحة والدفء، وعاودني الأمل من جديد، بقي معي مقدار شهر آخر من المؤونة، لو أسرع الخطى سيكون كافيا إلى غاية عودتي. لم أهتم بهذا الأمر، كان أملي الوحيد يتمثل في هدوء العاصفة. لمّا استعدت أنفاسي وأحسست من جديد بالدم يسري في عروقي أخذت أنظر يمينا وشمالا في المكان الذي كنت أتواجد فيه ورأيت بأنّ ذلك النفق يستمر في توغّله داخل المغارة، فأخذت معي قطعة من الحطب المحترقة لأستعملها كمشعل، وذهبت لاستكشافه، لم يستمر النفق طويلا، حيث وجدت نفسي داخل قاعة كبيرة توجد بها العديد من حزم الحطب، كانت موضوعة بطريقة منظمة، فأدركت بأنّ هذه المغارة مسكونة أو أنها كانت مسكونة في السابق، تسارعت دقات قلبي وبدأت الكثير من الأفكار تحوم بخاطري، قمت بإشعال بعض الحطب فيها ولاحظت بعض الرسومات على جدران القاعة وشاهدت فتحة تؤدي إلى قاعة أخرى، اتجهت

صوبها واضطررت إلى الانحناء قليلاً لبلوغها، ولمّا تمكّنت من الدخول نظرت حولي فوجدت حزما أخرى من الحطب مكدّسة بالطريقة نفسها، ثمّ نظرت من جديد إلى اليمين، فالشمال حتى شاهدت فتحة جانبية دخلت منها لأجد نفسي من جديد داخل قاعة ثالثة تتواجد بها العديد من الأواني والجلود والأسلحة، فأدركت بأنّ هذه القاعة هي قاعتهم الرئيسية، نظرت مجددا إلى أطراف القاعة فلم أشاهد فتحات أخرى. قمت بتفحص الجلود لرؤية طريقة صنعها وصلاحيتها لأختبر على الأقل المدة التي بقيت فيها بهذه المغارة، وبينما كنت أقلّبها بيد وأقرب المشعل للنظر إليها باليد الأخرى، فإذا بشيء يسقط منها، أطلقت المعطف من يدي واتجهت بمشعلي صوب الشيء الذي سقط لأتبيّنه، فوجدت أنه عبارة عن جمجمة إنسان! تجمّد الدم الذي يسيل في عروقي وبدأت أسناني تصطك، كنت معتادا على رؤية الجثث، إذ كثيرًا ما نعثر عليها أثناء بحثنا عن المؤونة، وكنا نجد منها المتجمدة والمحتفظة بجلدها ولحمها أو التي تحتفظ فقط بجلدها، كما وجدنا أيضاً هياكل عظمية فقط، لكن رؤيتي لتلك الجمجمة وفي ذلك المكان وفي تلك اللحظة بالذات كان شيئاً آخر، لم أكن أنتظر ذلك على الإطلاق، إذ ظنّنت أنّ سكان المغارة قد تركوها لسبب أو لآخر، نظرت مجددا إلى الجلود، فلمحت بقايا قفصه الصدري وأطراف يديه ورجليه .

عدت بسرعة إلى الموضع الذي أشعلت فيه النار في المرة الأولى وأنا أرتجف، ثمّ قمت مجددا وعدت إلى القاعة الأولى حيث أحضرت حزمتين من الحطب رميتهما دفعة واحدة في النار لتقدّم لي حرارة لم يسبق لي الإحساس بها على الإطلاق لدرجة أنّ العرق بدأ يتصبب من جبيني، ثمّ عاودتني من جديد صورة تلك الجمجمة، فقلت في نفسي بحسرة: يا للمسكين مات لوحده، أظنّ أنه قد دفن جميع أصدقائه، ولمّا نفذت مؤونته مات من الجوع، فتراكم الحطب في القاعات دليل على أنّ النقص يكمن في المؤونة. ثمّ بدأت أقارن وضعه بوضعي قائلا بأسف: إنه المصير نفسه الذي ينتظرك، ستموت لوحدك سواء من البرد أو الجوع ولن تجد من يدفنك، إنّ مصيركما هو نفسه. لقد

خيّل لي بأنّ تلك الجمجمة هي جمجمتي وأنّ تلك الأطراف هي أطرافي أنا، فعزمت على العودة إلى ذلك المسكين والقيام بدفنه، على الأقل سيجد هو من يدفنه، بينما لم أعر اهتماما بمصيري، فأنا أستبعد أن تجدني أفروديت وجنودها لأنهم لن يغامروا أبدًا إلى هذا المكان، فهم ليسوا أغبياء مثلي .

كان نومي مليئا بالكوابيس، رأيت فيها تلك الجمجمة تناديني من بعيد، ثمّ رأيت صورة بروميثيوس وأصدقائي ينادونني، وحتى فينوس حضرت هي الأخرى في حلمي، وهي تدعوني للالتحاق بهم، لكنني كنت أجيبهم قائلا بتودد: إنني أريد رؤية القمة، سأرى القمة وسأتبعكم بعدها.

***

أول شيء قمت به عندما استيقظت في الصباح، هو اتجاهي نحو باب المغارة لاستطلاع أحوال الطقس، فإذا بي أرى الجوّ صافيا تماما، لقد هدأت العاصفة وتلاشت الغيوم، نفّذت أولا فكرتي السابقة حيث جمعت عظام ذلك الشخص في معطفه الجلدي ونزلت بها من المغارة، حيث قمت بحفر حفرة في الثلج ودفنته فيها، وعلى إثر ذلك العمل تبادر إلى ذهني تساؤل حول جدوى قيامي به، فعملية الدفن التي كنّا نقوم بها كانت بسبب الإزعاج الذي تحدثه رائحة الجثث أثناء تحللها، فهذا الشخص لم يتبق منه إلا العظام، وفوق ذلك لا يوجد من يزعج على هذه الأرض سواي أنا وبالتالي لم أر جدوى من عملي، فقلت في نفسي: إنها مسألة عادات، تبًّا لها لقد التصقت بسلوكي وأفعالي بحيث أصبحت مسيّرا بتصرفات خلقها أشخاص مثلي في السابق وعليّ بإتباعها من جديد. فكّرت في إعادة هيكل ذلك الشخص إلى داخل المغارة لكنني أعرضت عن ذلك قائلا: ليكن هذا الأمر آخر عادة أقوم بها في حياتي، ثمّ عدت إلى المغارة أين وضعت بعضا من الأخشاب الإضافية في الزلاجة، وجمعت أشيائي، ثمّ اتجهت من جديد إلى باب المغارة، حيث قذفت بالزلاجة إلى الأسفل ونزلت بدوري، وواصلت الصعود وأنا أسحبها بثبات.

كان الطريق خطيرا جدا، إذ يحتوي على ثغرات في بعض الأماكن ممّا يجعلني أضطر للتسلق أولا ثمّ القيام بسحب الزلاجة الثقيلة ورائي، وفي بعض الأماكن كنت أقفز حتى أتجنب الحفر والفراغات التي يحدثها نزول الثلوج إلى مستويات أسفل، وكنت في كلّ مرة أسحب فيها الزلاجة إلا وأتوقع انقطاع الحبل الذي يمثّل بالنسبة لي حبل النجاة، فلو أفقد زلاجتي سأفقد معها حتمًا

حياتي، لذلك كنت شديد الحرص على سلامتهما. وفي أثناء صعودي، وبين الحين والآخر، أنظر إلى الأعلى لأرى إن كنت قريبا من القمة أم لا، لكن رغم كلّ ما بذلته من جهد، فإنّ القمة تبدو لي في كلّ مرة أبعد ممّا كنت أتصوره، ولمّا انتصف النهار بدأت أبحث عن مغارة تظهر لي حتى أتمكّن من قضاء الليل فيها، فالبرد كان شديدا جدا على الرغم من صفاء الجو، وفوق ذلك بدأت أشعر قليلا بضيق في التنفس، الشيء الذي أثّر بصورة مباشرة على قواي، إذ لم أستطع سحب الزلاجة بالقوة التي كنت عليها في الأول .

لاحت لي من بعيد فتحة صغيرة، فأخذت المنظار لأرى إن كان بالإمكان الوصول إليها، وتوصّلت إلى تحديد الطريق الذي يجب عليّ اتخاذه حيث اتبعته إلى أن وجدت نفسي مع زلاجتي بداخل المغارة، كانت صغيرة جدا، فهي أقل من المغارة الأولى، لكنها كانت تنفع للمبيت، فأنا أستطيع سد فتحتها حتى لا تدخل إليها النسمات الباردة، وسأتحمل قليلاً دخان الحطب المشتعل، وسيساعد بدوره في تدفئة المغارة بسرعة. قمت إذن بإشعال النار وتناول بعض من اللحم ثمّ تمددت لأستريح، لم يمض وقت طويل حتى حلّ الليل، فقلت في نفسي وأنا أحسّ بالسعادة: أظنّ أنّ الحظ كان حليفي، فما هي إلا مسألة يومين على الأكثر حتى أتمكّن من الوصول إلى القمة إن استمر الطقس على حاله .

وفي الصباح عندما استيقظت وجدت الضباب يغطي كلّ شيء، خرجت من المغارة وبدأت من جديد تسلّقي. كان من الصعب عليّ الاستمرار في الصعود في مثل تلك الظروف، لأنني لم أستطع الاهتداء إلى الوجهة التي أريدها، الأمر الذي جعلني أعود أدراجي عدة مرات لكون الطريق الذي اتبعته ينتهي إما بهوة أو بصخور يصعب علي تسلقها. مشيت طوال اليوم، وأكثر ما عانيت فيه هو صعوبة التنفس، فعلى الرغم من قساوة البرد استطعت تحمّله، وتمكّنت من التغلب على الصعوبات الأخرى إلا صعوبة التنفس. وعندما اقترب حلول الليل، بدأت أبحث عن مغارة للمبيت فيها، لكنني لم أعثر على ضالتي! إذ من المستحيل الاهتداء إلى مغارة حتى وإن كان لها وجود، فالضباب الكثيف قد غطى كلّ

شيء. لمّا أدركت استحالة وصولي إلى نتيجة قرّرت حفر نفق في الثلج حتى لا يقضي عليّ البرد. فقمت كعادتي بحفره ثمّ ربطت حبل الزلاجة إلى رجلي. تناولت بالداخل بعضا من قطع اللحم ثمّ غرقت مباشرة في نوم عميق. لم أتأثّر بالبرد، بل لم أشعر به أصلا لأنني كنت مرهقا للغاية. لكن وبعد مدة حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ سمعت فجأة دويا مرعبا أحسست على إثره بأنّ الأرض تهتزّ لأجد نفسي في الأخير داخل الثلوج التي أخذتني بعيدا نحو الهاوية، فدخلني شعور غريب بأنّ تلك اللحظات قد تمثّل آخر ما يمكن أن أحياه على الأرض.

لمّا استفقت من إغمائي أخذت أتساءل إن كنت ما أزال حيًّا أم لا، ثمّ قمت بمحاولة تحريك يداي ورجلاي إلا أنني لم أستطع تحريك سوى يد واحدة، بدأت أبعد بها الثلوج ثمّ استعنت بالخنجر الذي كنت أحمله بجيبي إلى أن استطعت تحرير اليد الأخرى، وهذا ما ساعدني على إزاحة الثلوج المتراكمة على جسدي. تمكّنت أولا من إخراج رأسي، ثمّ إحدى رجلاي، بينما لم أستطع تحرير الرجل الأخرى لكونها عالقة بشيء ما، وأدركت فيما بعد أنّ ذلك الشيء ما هو إلا الحبل الذي يربطني بالزلاجة، فقمت بقطعه وتخليص الرجل الأخرى. ثمّ بدأت أتحسس أطراف جسمي إن كنت مصابا أم لا، ولمّا رأيت بأنني لا أعاني من أيّة إصابة قمت واقفًا ومشيت قليلاً، فأيقنت بأنني نجوت فعلا، حيث صرخت بأعلى صوتي بفرح: إنني حيّ، ما زلت حيًّا، الحظ دائمًا بجانبي! ثمّ نظرت إلى المكان الذي كنت متواجدا فيه لأجد نفسي قد تدحرجت مع الثلج من الأعلى إلى غاية المنحدر، قمت بتتبّع الحبل حتى وصلت إلى الزلاجة التي وجدتها سالمة حيث لم تسقط منها سوى بعض الأخشاب، فقلت في نفسي بحماس: لقد أحسنت الفعل وإلا فكيف لي أن أصل إليها تحت هذه الأكوام الكبيرة من الثلج. لمّا استعدت أنفاسي أمسكت بالحبل وبدأت الصعود من جديد، كنت سعيدا لبقائي حيًّا، لم أكن أفكر في المسافة التي سأجتازها من جديد ولا في الثياب المبللة التي كنت أرتديها، ففكرة قربي الشديد من الموت ونجاتي منه قد أنشأت فيّ عزيمة إضافية على مواصلة المشوار حتى نيل الهدف

المنشود. كنت أنظر إلى القمة التي تتراءى أمامي شامخة وعالية، فخاطبتها قائلا: إنني قادم إليك .

إنّ المسافة لا تزال طويلة، لذلك أسرعت الخطى محاولا استرجاع الوقت الضائع، لكن العياء وصعوبة التنفس جعلاني أرتبك، فإذا كنت في ذلك الموقع لا أستطيع التنفس جيدا فكيف لي أن أفعل ذلك في القمة! لكن القلق زال عنّي لماّ تذكرت بأنّ الضباب الذي أعاقني بالأمس قد زال نهائيا وأنّ الصفاء قد عاد مجددا. تعبت يدي اليمنى من الجذب فأخذت أمسك الحبل بيدي اليسرى وأنا أتابع تسلقي. كانت رجلاي تغوصان أحيانا حتى الركبتين ممّا يجعل خطواتي بطيئة، فكنت لا أنتقل من مكان لآخر إلا بعد جهد، بينما تَسهُل حركتي في المواضع التي يتواجد بها الثلج فوق الجليد مباشرة حيث أجد متعة في سحب الزلاجة عليها من دون أدنى صعوبة.

لاحت لي من بعيد عدة بقع سوداء في الجبل، فاستعنت بالمنظار وظهرت لي على شكل مغارات، فقلت في نفسي: يبدو أنّني سأقضي هذه الليلة في الدفء!. أسرعت الخطى على أمل أن أصل إليها قبل حلول الظلام، لكنني لم أتمكّن من ذلك إذ أصبح كلّ شيء أسود لا ألمح فيه شيئاً أمامي، ورافق الظلام اشتداد قسوة البرد، لكنني رفضت التوقف وفضّلت السير إلى أن أصل إلى إحدى المغارات، وفي الأخير استسلمت إذ خارت قواي، ولم أستطع مواصلة السير وسط ذلك الظلام الحالك. أعدت النظر في برنامجي حيث قمت بحفر نفق داخل الثلج، لم أتمكّن من إنهائه إلا بعد جهد كبير. لم أعد أحسّ بأطراف أصابعي، وحتى محاولتي لأخذ القليل من اللحم لم أستطع القيام بها لذلك سحبت الجلود إلى داخل النفق ودفعت برجلي الثلج حتى غطى الفتحة ونمت وأنا أرتعد من البرد، وفي الصباح لم يتحسّن وضع أصابعي إذ انتفخت بشكل لم يسبق وأن حدث لها من قبل، لم يكن بإمكاني مواصلة السير لأنني لم أستطع سحب الزلاجة، لذلك آثرت الاستراحة في ذلك اليوم ومتابعة السير في الغد.

قمت بربط حبل الزلاجة إلى جبهتي، واتجهت إلى أقرب مغارة. كانت تتراءى أمامي واسعة وسهلة الوصول، لكن الطريق إليها في الحقيقة كان صعبا، فالزلاجة تتعثر في كلّ مرة لأعود إليها وأبعدها عن صخرة أو أن أعيد توازنها، إلى أن وصلت في الأخير إلى المغارة، حيث صعدت إليها من دون عناء ثمّ سحبت الزلاجة بكل ما تبقى فيّ من قوة، كانت أصابعي تؤلمني كثيرًا. قمت بإشعال النار وأخذت آكل قطع اللحم بنهم، ثمّ قمت بتسخين الدهون حيث طليت بها يدي، بعدها افترشت الجلود، ونمت مباشرة. بعد منتصف النهار استيقظت وأنا أشعر مجددا بالجوع، فقمت بتقطيع قطع أخرى من اللحم التهمتها بسرعة، فأحسست بعدها بتحسن طفيف، إذ خفّ الألم على الرغم من أنّ أصابعي ما تزال منتفخة بعض الشيء، نظرت إلى أطراف المغارة التي أوجد بها، فرأيت أنها تملك عدة فتحات أخرى تؤدي إلى الداخل، دخلت إحداها وصادفت درجا مؤديا إلى الأعلى. تأملت جيدا في الدرج، ولاحظت أنه مصقول من قبل الإنسان ولا دخل للطبيعة في إنشائه، ممّا يعني أنّ هذه المغارة كانت هي الأخرى مسكونة، صعدت إلى الأعلى، ووجدت نفسي في مغارة أخرى لديها فتحة إلى الخارج وفتحة إلى الداخل، تابعت سيري مستكشفا إياها حيث دخلت إلى أعماق الجبل لكنني لم أستطع رؤية أيّ شيء بسبب الظلام، فعدت أدراجي لأحمل مشعلا ثمّ عدت إلى نفس النقطة التي توقفت فيها ولمّا نظرت تحت نور المشعل الباهت شاهدت شيئاً جميلا، كانت القاعة التي أتواجد بها مصقولة بشكل رائع بحيث أن جدرانها كانت ملساء ومسطحة، وفي وسط القاعة تتواجد طاولة من الحجر مصقولة بالطريقة نفسها وبجانبها مقعدين من الخشب، كان أحد الجدران ممتلئا بالرفوف، وكل رف كان يحمل عدة أوان للطبخ، وعلى الجدار المقابل علّقت الرماح والحبال وأشياء أخرى كثيرة، اتجهت إلى الحبال ووجدت أنها بالية سهلة الانقطاع، فأدركت أن سكان هذه المغارة قد هاجروها منذ مدة طويلة. اتجهت إلى الفتحة الأخرى المؤدية إلى الداخل فاصطدمت بمشهد رهيب: العديد من الهياكل العظمية المنتشرة هنا وهناك كانوا عشرة أو أكثر، لم أفهم سرّ تواجدهم معًا في ذلك الموضع، فلا وجود لثياب هناك ولا

لأي شيء آخر، فاستنتجت أن ذلك يمكن أن يكون قبرا لهم اختاروا الموت فيه، عدت أدراجي إلى المغارة الأولى وصعدت درجا آخر لأجد نفسي في مغارة أخرى تشبه تقريبا المغارة الثانية من حيث الصقل ومن حيث الرفوف، لكن طاولتها لا تتوفر على المقاعد، دخلت عبر فتحتها الداخلية لأصل إلى قاعة أخرى ممتلئة بالأغطية والثياب، فقلت مندهشا: إذن أنتِ هنا، فماذا تفعلين في هذا المكان بدأت أتفحص الثياب حتى شاهدت من جديد هيكلا عظميا تحت إحداها، فأدركت بأنّ ذلك الشخص هو آخرهم جميعا، لا أظنّ بأنّ موتهم ناجم عن البرد لأنّ المقاعد الخشبية كانت متواجدة في الأسفل، فالجوع حتمًا كان علّة فنائهم. شعرت بالعياء، فقرّرت العودة إلى المغارة السفلى دون النظر في باقي المغارات. كان الليل قد حلّ لمّا جلست قرب النار. تناولت قطع اللحم ثمّ لففت نفسي داخل الجلود ونمت إلى غاية الصبح.

قررت البقاء في المغارة والاستراحة فيها يوما آخر، حتى أتمكّن من استعادة قواي، فلم أتحرك من أمام النار طيلة اليوم، وفي الليل كانت أصابعي قد عادت أخيرا إلى حالتها الطبيعية، ممّا جعلني أشعر بالارتياح، فتمكّنت من النوم بهناء. لم أستفق منه إلا في الصباح حيث كنت مفعما بالقوة والأمل في الوصول إلى القمة. لبست قفازي ووضعت الأغراض فوق الزلاجة وأحكمت ربطها ثمّ قذفت بها إلى الخارج، متابعا طريقي وأنا أسحب برأسي الزلاجة حتى لا أضرّ من جديد أصابعي. كنت كلّما أتقدم خطوات إلا وتتضح لي القمة أكثر، ظنّنت أنني سأصل إليها بسرعة لكنني لم ألتحق بها ولم تلمسها قدماي بعد، فقلت في نفسي: اصبر، إنها مسيرة يوم لا أكثر، المهم يجب على الطبيعة أن تستمر في صداقتها معك.

واصلت سيري نحوها إلى غاية منتصف النهار، لكن الضباب عاد من جديد ليعكّر سعادتي، لكنني صممت على المضي قدما إلى الأمام غير آبه به كنت ألمح فقط الموضع الذي أضع فيه قدمي، خاصة وأنّ الرياح لم تكن قوية، فلا مدعاة إذن للخوف ولا للتأخر، المهم أخذ الحيطة لا أكثر!. شعرت بالقوة

تعود من جديد إلى يدي، فقمت بنزع حبل الزلاجة المشدود إلى رأسي وبدأت أسحبها بيدي. كانت خطاي أسرع من السابق، وخيّل لي أنني وصلت أخيرًا إلى القمة حيث نظرت من حولي، فلم أشاهد سوى أرض مستوية، وبما أنّ الليل قد قرب حلوله، قمت بحفر نفق أين أمضيت فيه ليلتي. وجدت صعوبة في التنفس بالإضافة إلى البرد الشديد الذي كنت أشعر به، لكنني لم أيأس إذ قلت في نفسي: مهما كانت أحوال الطقس في الغد وحتى وإن هبت العواصف، فأنا سأخرج وسأتأمل المكان ولو لرؤية بعض خطوات فقط.

***

كانت صبيحة اليوم رائعة، فالسماء صافية ولا أثر للضباب، تأملت حولي، فإذا بي لم أصل بعد إلى القمة، إنها مسيرة نصف يوم لا أكثر، فقررت الصعود إليها من دون تناول الأكل، جمعت الجلود على الزلاجة وبدأت بسحبها وعيناي لا تنفصلان عن القمة. كانت دقات قلبي تتسارع كلّما اقتربت منها أكثر إلى أن وصلت إليها أخيرًا .

كانت القمة عبارة عن ساحة بنفس مساحة القاعة الكبيرة التي تتواجد في مغارتي، والطرف المقابل للطريق الذي سلكته كان يشكل منحدرا كبيرا لا أستطيع تمييز نهايته بحيث أنني شعرت بالدوار لمّا نظرت باتجاهه وكدت أفقد توازني وأسقط فيه. اتخذت وسط القمة كمكان آمن حيث وضعت الزلاجة هناك. كان أول شيء قمت به هو الصراخ، حيث أخذت أصرخ بأعلى صوتي: أنا موجود، أنا هنا، أنا حيّ، لقد وصلت، لقد تغلبت على كلّ شيء، أنا الأقوى. كان الصدى يردّد كلّ عباراتي، إنها المرة الأولى التي أسمع فيها صوتا إنسانيا بعد موت أصدقائي، ثمّ ناديت جميع رفيقاتي وأصدقائي بأسمائهم الواحد تلو الآخر من دون أن أنسى حبيبتي أفروديت حيث ناديت باسمها بصوت عال، ثمّ تبادرت إلى ذهني عبارة (أنا أحبك)، فصرخت بها عدة مرات لأجد الصدى يقول بدوره: أنا أحبك، أنا أحبك! شعرت بسعادة كبيرة لا يمكن أن توصف. بعد ذلك عدت إلى رشدي حيث أشعلت النار وافترشت الأغطية ثمّ جلست عليها محاولا حماية ألسنة النار من الرياح الباردة التي كانت تهبّ، فكانت تقوم فقط بدغدغتها يمينا وشمالا، أكلت قطعة كبيرة من اللحم ثمّ وقفت أتأمل المناظر الطبيعية: يظهر كلّ شيء بلون أبيض وكل الجبال المجاورة تظهر لي كأنها عبارة

عن تلال صغيرة، حاولت أن أتعرف على مكان مغارتي بالمنظار إلا أنني لم أوفّق. كان منظر السلاسل الجبلية التي اجتزتها رائعا، كأنها عبارة عن أصداف بحرية مرتسمة على الأرض، حاولت أن أرى أيّ مخلوق يمشي على الثلج لكنني لم أشاهد سوى الثلوج فقط، فلا أثر لا للوديان ولا للأشجار أو المدن والقرى ولا للدخان أو لأي شيء آخر، جبال وثلوج وأراض مسطحة مغطاة بدورها بالثلوج. عندما قرب قرص الشمس الصغير من المغيب لجأت إلى حفر نفق على القمة ثمّ دخلته وأنا أقول في نفسي: سأمضي الليلة في أعلى منطقة، إنني أعيش حقيقة هذه اللحظات، لقد حققت أخيرًا هدفي!.

***

جمعت أمتعتي في الصباح وألقيت نظرة على كلّ المناطق التي يمكن مشاهدتها وأنا أقول في قلبي: الوداع، إنها آخر مرة آتي فيها إلى هنا، إنها آخر مرة أرى فيها هذا الجمال، نزلت قطرة من الدموع على خدي، أحسست بحرارتها، لا أعرف لماذا أتألم من مغادرة هذا المكان وكأنني قضيت فيه كلّ أيام عمري، كان الفراق صعبا للغاية. بدأت في النزول، وكان ذلك أمرا سهلا للغاية، بحيث استغرق يومين فقط، لقد كان بإمكاني النزول أسرع ممّا قمت به لولا الضباب الذي حدّ من سرعتي في اليوم الثاني، أما السلاسل الجبلية الأخرى، فقد تمكّنت من عبورها في المدة نفسها المستغرقة أثناء قدومي، كنت أراقب المؤونة التي بقيت معي وكانت قليلة جدا، فكنت خائفا من أن تنفذ مثلما نفذ الحطب منذ أكثر من أسبوع، لقد أصبحت أتحمل البرودة، لم أرد أن آخذ من المغارة التي توجد بها الحزم لأن الزلاجة ستصبح ثقيلة وبالتالي ستعرقل سيري أثناء الطريق، لكن، وعلى الرغم من إسراعي للخطى، فإنّ المؤونة قد نفذت قبل أن أصل إلى مغارتي بيومين إلا أنني لم أعر لذلك شأنا، فأنا قريب منها بالإضافة إلى اعتيادي على الصبر لكن الوضع في الحقيقة كان مختلفا، فأنا كنت منهك القوى بسبب السرعة التي عدت بها. ولمّا لاحت لي مغارتي من بعيد عاد إليّ السرور من جديد، لكن فجأة شعرت بالخوف والقلق، إذ لاحظت حدوث عدة تغيرات في محيط مغارتي، فالثلج قد نقص مستواه كثيرًا بحيث أصبح بالإمكان رؤية الصخور التي سقطت أثناء انهيار واجهة المغارة، وكان الوصول إلى الفتحة أمرا صعبا نظرا لبعدها عن مستوى الأرض، فكان عليّ بالتسلق .

تمكّنت من فتح المنفذ الذي أغلقته بالحطب يوم ذهابي، فقابلتني رائحة كريهة أدركت على إثرها تعفّن اللحم، لكنني لمّآ تفحصته، وجدت أنه من حسن حظي لم يتعفن منه سوى حيوان واحد فقط وذلك بسبب ذوبان قطع الجليد الموضوعة عليه. قمت بإخراجه ووضعه بعيدا عن المغارة ثمّ عدت إليها حيث أشعلت النار وأنا ألتهم قطعا من اللحم، ثمّ وضعت المقياس والمنظار والجلود في مواضعها، واستلقيت وأنا أشعر وكأنني قد أنجزت عملاً عظيما .

***

بعد عودتي من الرحلة قضيت أزيد من شهر في المغارة، في راحة تامة حيث كنت أستعيد أنفاسي من الشهرين الذين غبت فيهما، كنت أحسّ بتعب شديد، لكنني ما لبثت وأن استعدت قواي، فبدأت في البحث عن الأنفاق التي سبق لنا وأن بدأنا في حفرها، وعثرت على البعض منها إلا أنها لم تكن كلها صالحة لمتابعة الحفر، نظرا لكونها ممتلئة بالثلوج والجليد. أما الأنفاق السليمة، فإنني واصلت حفرها وتمكّنت من العثور على ثلاثة حيوانات متوسطة الحجم، لمّا قمت بحساب المؤونة الموجود عندي لاحظت بأنها ستكفيني لمدة سنة على أقل تقدير، قمت أيضاً باستخراج الحطب المخبأ بجانب المغارة، وكانت تمثل آخر الحزم التي جمعتها مع أصدقائي، ممّا يعني أنه عليّ بالبحث مجددا عن الحطب. تبادرت إلى ذهني الحزم الكثيرة التي وجدتها في المغارة وتمنيت لو أنها كانت قريبة .

أمضيت أكثر من شهرين والصفاء لم يغب، إلا أنّ درجات الحرارة كانت منخفضة جدا حيث كانت تصل إلى -38° في النهار بينما في الليل لم أخرج لقياسها خوفا من البرد لكنها حتمًا تتجاوز -49° بما أنّ الحرارة داخل المغارة كانت تصل إلى -34°، وهذا ما جعلني أفكّر في الخطر الذي يحدق بي لأن المشكلة لن تكون المؤونة وإنما البرودة التي ستؤثر عليّ، فأنا ملزم بحرق نسب معينة لضمان درجة الحرارة التي أستطيع عن طريقها التمسك بالحياة وإلا فإنني سأجد نفسي بين عشية وضحاها متجمدا مثل الحيوانات التي أستخرجها، ثمّ عادت من جديد العواصف الثلجية والرياح الهوجاء، فقلت في نفسي بسخرية: هذه العواصف هي التي ستقضي عليك ! إذ لو استمرت على

النحو الذي أخذته السنة الماضية، فإنني سوف أموت حتمًا، فالبرودة كانت أشدّ من سابقاتها، بحيث أنني مهما ارتديت من معاطف أشعر دائمًا بالبرد. وعلى الرغم من غلقي للمنفذ إلا أنني كنت أحسّ وكأن الرياح تتمكّن من التسلل لا إلى داخل المغارة فحسب، بل حتى إلى داخل الجلود والملابس التي أرتديها، أمضيت الأسبوع الأول وأنا مستلق أمام النار لا أفعل شيئاً، فعاودني الملل من جديد، وبدأت أسأل نفسي: والآن؟ ماذا بقي لي أن أقوم به؟ ماذا أنتظر؟ ألا يستحسن لي أن أموت الآن؟ ألم يصل بعد الأوان لأفارق هذا العالم؟ كان لديّ هدف وحيد وحقّقته، فماذا أنتظر؟ إنّ الخروج من المغارة أمر مستحيل، لذلك أجد نفسي مجبرا على المكوث لوحدي بالمغارة. أخذ الإحباط واليأس يدبّان في نفسي من جديد إلى أن جاءتني فكرة الصندوق فقلت بابتهاج: صحيح، لديّ الصندوق، ولديّ العديد من الكتب التي لم أقرأها بعد، إنها أحسن وسيلة لنسيان همومي، سأتمكّن من الخروج مجددا إلى عوالم أخرى، فقمت حاملاً المشعل إلى القاعة الصغيرة حيث فتحت الصندوق الذي أفرغته من الهواء منذ مدة طويلة، وأمسكت بحزمة من الكتب واتجهت بها إلى خيمتي الصغيرة حيث تمدّدت على بطني وأخرجت رأسي ويدي من الخيمة بينما باقي جسمي كله كان محميا بالداخل تحت الأغطية، ثمّ بدأت أتصفح الكتب لأتبيّن ما قرأته منها وما لم أقرأه بعد، وأول كتاب وقع بين يدي هو كتاب روبنسن كروزوي، نظرت إليه جيدا ثمّ بدأت أضحك، حيث قلت في نفسي ساخرا: لو قارنت بين الحياة التي أعيشها الآن وحياته التي عاشها في تلك الجزيرة، ولو طلبت منه أن نغيّر من مواقعنا، فإنه لن يرض حتمًا بل سيقول بإلحاح: كلا! أنا مرتاح هنا ولا ينقصني أيّ شيء، تبًّا للتحضر وتبًّا للمجتمع، فمادمت أعيش بين هذه الظروف الرائعة، فإنني لن أترك أبدا هذه الجزيرة! طبعا لا يوجد أيّ إنسان في هذا العالم يقبل أن يعيش في مثل ظروفي، أنا أعلم بأنني أتعس مخلوق على وجه الأرض، إنّ روبنسون لديه على الأقل الأمل في رؤية عالم آخر وأناس آخرين أو حتى العودة إلى أسرته، بينما أنا لا يوجد أمامي سوى هذا العالم أرضيت بذلك أم أبيت، أما بالنسبة للمجتمع فلا يوجد أحد،

ربما أفروديت وقبيلتها، لكنني أظنّ أنهم ماتوا جميعا، لأنني لم أشاهد أيّ أثر على الأرض في الأيام السابقة، لكن يستحسن ألا أفكر في هذا الأمر وإلا فإنني سأُقلق نفسي، إنّ أفروديت وقبيلتها مازالوا على قيد الحياة !.

وضعت كتاب روبنسون جانبا وأنا أقول مبتسما: لو سمع بحكايتي سيموت حتمًا من الحزن عليّ، وبدأت أضحك، ثمّ أخذت الكتاب الثاني، العجوز والبحر وقلت بحسرة: أين أنت أيها العجوز بمغامراتك؟ آه لو كنت تعيش معي، على الأقل سأكتسب منك روح المقاومة. ثمّ وضعت الكتاب جانبا. بدأت أبحث عن الكتب التي لم أقرأها: هذا الكتاب قرأته، وهذا أيضاً، وهذا الآخر قرأته، ثمّ عثرت على كتاب تأويل الأحلام لفرويد لقد استغرقت قراءتي له أسبوعا كاملا، أحدث فيّ شعورا خاصا لا أستطيع التعبير عنه، إنه عبقري، فالإنسان حرّ في نظرياته، أظنّ أنه قد عان الكثير وإلا لما شبّه نفسه بكوبرنيك وداروين، لكنني أظنّ أنّ نظرياته لا يمكن أن تطبق عليّ بحكم أنني وحيد، وأعيش وحيدا، أنا إنسان من طراز خاص، لن يستطع أحد أن يدرس لا جانبي النفسي ولا جانبي الاجتماعي، لكن ماذا أقول؟ أنا أنتمي إلى آخر جيل، فمن بإمكانه أن يدرسني ؟!.

***

...إنّ يدي ترتعشان ودقّات قلبي تتسارع وكل كلمة أخطها الآن إلا وتحدث في جسدي رعشات، العرق يتصبّب من جبيني، إنني أحاول أن أمسك بزمام الأمور لكنني لا أستطيع، يستحسن أن أتوقف !.

***

أظنّ أنني استعدت أخيرًا أنفاسي، رغم أنّ يدي ما تزالان ترتجفان، بل كلّ جسمي يرتعش، لكنني سأحاول أن أنسى، يجب عليّ تناسي كلّ شيء والاستمرار في الحياة وكأنّ شيئاً لم يكن، نعم هذا هو عين الصواب، ما الداعي للحيرة؟ ما الداعي للقلق؟ إنني سأموت حتمًا، فلا مدعاة للخوف، فلو كنت أعيش حياة عادية، وفي زمن عادي، فمن الطبيعي أن آمل في البقاء حتى أعيش جميع مراحل عمري حتى الشيخوخة، لكنني أعيش في زمن أرى فيه أيامي محدودة جدا لا تمتد كثيرًا، فالموت غير بعيدة عني، لذلك ما الجدوى من القلق والخوف؟ يكفي ألا أعير أدنى اهتمام لما وجدته، نعم سأعيده إلى الصندوق وأضعه تحت الكتب جميعا، بحيث لا تراه عيني، يجب ألا أخرجه على الإطلاق، يجب أن أنسى بأنني وجدته أصلا هذا ما يجب أن أفعله، لأعتبر أنه لم يحدث أيّ شيء، وأنا لم أجد سوى هذه الكتب المنتشرة أمامي، نعم هذا هو عين الصواب، وأحسن خيار بالنسبة لي، يجب أن أواصل سرد مذكراتي بالطريقة نفسها التي كنت أسردها قبل عثوري عليه، لكن أين توقفت؟ ....نعم !.

أرجعت إذن الكتب التي أخرجتها في المرة الأولى لآخذ كتبا أخرى، كان من بينها كتاب ألف ليلة وليلة وبعض القواميس والبؤساء وغيرها من الكتب، لكنني لاحظت وجود دفتر بينها، كان شبيها جدًا بالدفتر الذي أدوّن فيه مذكراتي. اعتقدت في البداية أنه دفتر إضافي حيث تملّكني الضحك وأنا أقول في نفسي مخاطبا صاحب الصندوق: هل تظنّ يا صديقي أنه لديّ متسع من الوقت لأملأ هذا الدفتر حتى أكون بحاجة إلى دفتر آخر؟ فوضعته جانبا. ولمّا أنهيت قراءة الكتابين الذين لم أطلع عليهما من قبل هممت بإرجاعها إلى الصندوق، فإذا بالدفتر يسقط على الأرض وينفتح! لم تصدق عيناي ما شاهدته! إنه دفتر مدون، اعتقدت في الأول أنّ صديقي هو الذي دوّن فيه

أفكاره، وضعت الكتب جانبا وأخذته من الأرض بلهفة لأتصفّحه وأنا متشوق إلى معرفة مذكرات صديقي، ثمّ تبادرت إلى ذهني فكرة أخرى، ربما فينوس هي التي كانت تدوّن مذكراتها خفية، فتزايدت دقات قلبي: سأستطيع معرفة أفكارها، لكنني لمّا فتحته اصطدمت بهول ما رأيته! إنه خط يشبه خطّي تماما، قرأت بعض الأسطر منه، فتجمّد الدم في عروقي بل تجمّدت كاملا حيث سقط الدفتر من يدي، كنت أحسّ بأنّ قلبي سينفجر وأنّ عروق وجهي قد انتفخت لدرجة أنها ستنفجر هي الأخرى، أيعقل هذا الأمر؟ أخذته من جديد من الأرض وفتحته في إحدى الصفحات لأقرأ: "***فالمهم أنه يحس بالعظمة، إنه لمن التفاهة أن يبرّر المرء أفعاله مدعيا بأنه يقوم بكل ذلك من أجل أبنائه أو عشيرته، فما يهمّه في الحقيقة هو نفسه لا أكثر ولا أقل. فقلت لها: ولكن حياته قصيرة على هذه الأرض، فلماذا لا يحاول أن يحياها في فرح وسعادة بدل القلق والرعب؟ فكّرَت قليلاً ثمّ قالت: من يضمن له أن يكون الغد سعيدا؟ تلك هي المشكلة! فالإنسان لا يستطيع أن يعرف إن كان المستقبل له أو عليه، لذلك يحاول بقدر الإمكان شراء تلك السعادة***". لم أنته من قراءة هذه الجمل حتى أغمي عليّ. لمّا استيقظت كنت أظنّ أنه مجرد كابوس سبّبه لي البرد، لكنني لاحظت تواجد الدفتر الثاني بجانبي. فقدت الجرأة على أخذه من جديد، لكنني تشجعت ورفعته لأفتحه على صفحة أخرى ... نعم إنها عباراتي، فكيف وصل إليّ هذا الدفتر؟ كيف ومتى كتبت عليه؟ ماذا يفعل هنا؟ كيف حدث ذلك؟ المئات من الأسئلة التي كانت تتدافع في ذهني دفعة واحدة، ثمّ أعدت النظر في الدفتر ووجدته ممتلئا عن آخره، ثمّ نظرت إلى دفتري لأرى أنّ العديد من الصفحات لا تزال بيضاء!. وضعت الدفتر أرضا وبدأت أدور حول النار، وأنا أحدّث نفسي كالمجنون، وجسمي يرتعد بأكمله، حاولت أن أجد تفسيرا منطقيا لما حدث لكنني لم أصل إليه، أنا الذي لا أؤمن إلا بالعلم وبالأشياء المعقولة المنطقية أصل في نهاية حياتي لأصطدم بشيء لا معقول ولا منطقي! كنت في كلّ مرة أنظر إلى الدفترين، إنهما موجودان أمامي وهذه هي الحقيقة، فماذا سأفعل الآن؟ جلست داخل خيمتي وأغلقت بابها حتى لا يدخل

أيّ نور وبدأت أحدّث نفسي في الظلام بصوت خافت: إنّ جانبا من حياتي مدون في الدفترين، والجانب الثاني مدون في الدفتر الآخر، إنه يمثّل مستقبلي، لديّ الماضي والمستقبل، بإمكاني معرفة الماضي وبإمكاني أيضاً معرفة مستقبلي، لكن إذا قرأت الآن مستقبلي هل بإمكاني تغييره؟ إن كان مستقبلا لم أستطع فيه تحقيق السعادة هل عليّ بتغييره؟ وهل سيتغير فعلا؟ وإن لم أستطع تغييره، فكيف يمكن لي أن أعيشه وأنا على علم بأنه لن يحقّق لي سوى الحزن والتعاسة؟ لكن من الممكن أن يكون مستقبلا سعيدا عندئذ سأنتظره وأنا فرح وسعيد، لكن معرفتي المسبقة به تجعل سعادتي نسبية لأنّ الأمور المنتظرة التي ستحدث ستكون حتمية. كانت تتبادر إلى ذهني أفكار جنونية، نادرا ما أمسك فيها بخيط منطقي. فجأة تبادرت إلى ذهني فكرة أخرى حيث تسارعت دقات قلبي من جديد، وبدأت أرتجف حيث قلت بارتباك: بما أنّ ما دوّنته إلى غاية الآن عبارة عن ماض، لكن أغلب أحداثه تشكل حاضر ذلك الوقت ممّا يعني أنني كنت أملك هذا الدفتر منذ عثوري على الصندوق مع بروميثيوس والآخرين، أي في فترة تواجدهم معي، فالأشياء المدونة فيه تمثل حاضر ومستقبل تلك الفترة! إذن كان بإمكاني تفادي العديد من الأشياء، سأكون على علم مثلا بأحوال الطقس ووقت العواصف، سأكون على علم بمكان المؤونة، كان بالإمكان عدم فقدان هايمون، وعدم موت بروميثيوس والآخرين كنت سأغير حتمًا من حياتنا، كنت سأطلب فينوس مباشرة بعد موت بروميثيوس، لكن بروميثيوس لن يكون ميتا! ثمّ بدأت أهذي من جديد. كنت أرتجف بشدة وأحسست بأنّ الحمى قد بدأت تعمل عملها، لكنني أعلم بأنني لن أموت الآن، فأنا لم أملأ بعد هذا الدفتر إذن سأشفى لا محالة، وهذا ما حدث إذ بعد يومين من مرضي تمكّنت أخيرًا من الوقوف وبدأت أفكر بجدّية في وضعي: هل سأقرأ مستقبلي أم لا؟ كان ذلك أمرا محيّرا فعلا، إنّ أيّ إنسان على هذه الأرض يتمنى أن يعرف ما سيحدث له، هناك طبعا من سيرفض الأمر وأنا من بينهم لأنني أعيش دائمًا فترات حياتي لحظة بلحظة، فلا يهمني المستقبل، كلّ ما يهمني هو كيفية تحقيق السعادة في الفترة الراهنة، لكن الآن، أنا أملك

مستقبلي بين يدي، فهل سأطّلع عليه، هل سيدفعني فضولي إلى قراءته على الرغم من المخاطر التي يمكن أن تقع لي؟ كنت مترددا ثمّ تشجعت وقلت سأقرأ الصفحة التي توقفت فيها في الدفتر ولمّا هممت بفتحه أخذت يديّ ترتعشان، لا أظنّ بأنني أقوى على القيام بذلك، ثمّ حاولت فتحه مجددا، أمسكته بكلتا يديّ وحاولت فتحه إلا أنني لم أستطع، إنه من الصعب على الإنسان أن يشاهد مستقبله أمامه، إنه لمن الصعب عليّ أن أراه، أن أتقبّله كمستقبل حتى وإن كنت على علم بأنه يحمل في نهايته فنائي، أنا الذي كنت قبل أشهر أحاول قتل نفسي، كنت غير آبه بالحياة، غير آبه بأيّ شيء ... والآن! وأنا وحدي لا أستطيع القيام بذلك، كان من الممكن بل من الأكيد أن أقوم به لمّا كنت مع أصدقائي لأنني سأجعلهم يتفادون العديد من الكوارث، كنّا سنعلم بسقوط جانب المغارة، وسنعلم أيضاً بنقصان الحطب ... العديد من الأشياء كنت سأغيّرها حتى أتمكّن من إبقائهم أحياء معي، لكن الآن وأنا لوحدي ما الفائدة من ذلك؟ بالنظر إلى حجم الأوراق المتبقيّة أعلم بأنّ وقتي لن يكون طويلا، لكن هناك احتمال آخر، من الممكن أن يكون سبب توقفي عن الكتابة ناجم عن نفاذ أوراق الدفتر، ممّا يعني أنّ هناك إمكانية بقائي حيًّا حتى بعد الأحداث الأخيرة المدونة عليه، نعم، فالمستقبل إذن يمكن أن يكون دائمًا محجوبا عنّي، لكن يبقى أنّ الاحتمال الثاني يظل واردا، فمن الممكن أن يكون موتي هو سبب توقفي عن الكتابة، إنه باستطاعتي معرفة أيّ الأمرين أصح، إذ يكفي أن أفتح الدفتر على آخر صفحة فيه لأستقر على الرأي الصحيح. أمسكت الدفتر من جديد أغمضت عيني وفتحته على آخر صفحة، كان العرق يتصبّب من جبيني سيولا ويدي ترتعشان، فتحت عيني وإذا بالصفحة بيضاء لم يخط عليها أيّ سطر، فقلت بحسرة: إذن سأموت قبل بلوغ هذه الصفحة ثمّ أدرتها وأنا أرتعش لأجدها هي الأخرى فارغة من أيّة كتابة، فقلت بارتباك: إذا استمر الوضع على ما عليه، فذلك يعني أنني سأموت بسرعة، إذ لم يتبق الوقت الكثير بالنسبة لي، ثمّ أدرت الصفحة الأخرى ثمّ التي قبلها، كانت كلها بيضاء وكانت دقات قلبي تتسارع إلى درجة أنني ظنّنت أنه سيتوقف حتمًا، فدخلني

شعور بأنّ سبب عدم كتابتي لتلك الأوراق كان بسبب موتي بالسكتة القلبية التي ستحدث لي الآن، لكنني لمّا نظرت إلى حجم الصفحات غير المكتوبة خيّل لي أنه في المرة الأولى التي فتحته فيه كانت أقل حجما، فهل محيت الآن؟ أم أنها لا تريد أن أطلع على مستقبلي؟! لم أجد سببا مقنعا، ثمّ نظرت بجانبي إلى دفتري الموجود على الأرض، ونظرت إلى الدفتر الذي بيدي، علمت مباشرة بخطئي، فعندما أمعنت النظر في آخر صفحة خططتها فيه، وجدت أنني قد توقفت فيه أثناء سردي حول كتاب فرويد وحديثي عن الجانب النفسي، إنني الآن متأكد من أنّ الدفتر الثاني المتواجد على الأرض هو الذي يحمل مستقبلي، فتحته في الوسط وشاهدت وجود كتابة وفتحته في الصفحات الأخيرة ووجدت أنها تحمل بدورها كتابة، وراعيت إبعاده عن عيني حتى لا أتمكّن من قراءة ما به. والآن وأنا متأكد من أنه دفتر الماضي والمستقبل: هل سأفتحه أم لا؟ عدت من جديد إلى طرح السؤال نفسه، وبدأت دقات قلبي تتسارع، كنت خائفا من أن أشعر مرة أخرى بالخوف نفسه الذي تملّكني منذ لحظات والذي سيقضي عليّ حتمًا لذلك وضعت الدفتر مجددا على الأرض وأخذت دفتري لأخط عليه مذكراتي لكن يدي بدأت ترتجف، فقد تبادرت إلى ذهني فكرة أنّ كلّ ما سأدونه الآن في هذا الدفتر هو موجود مسبقا في الدفتر الآخر لذلك لم أستطع في الأول تدوين أيّ شيء!.

قمت بوضع الدفتر الآخر داخل الصندوق مع الكتب التي أخرجتها وأحكمت غلقه جيدا حيث أخرجت كامل الهواء الموجود فيه، وعدت إلى خيمتي وأنا أفكر مجددا في الموضوع، أمضيت أسبوعا كاملا لم أنم خلاله فقد شغل بالي ذلك الدفتر وكانت رغبتي شديدة في قراءة مستقبلي والإطلاع عليه لدرجة أنني لم أحسّ بأنّ العواصف قد توقفت منذ مدة طويلة، من الممكن أن تكون لأيام عدة وأنا لم أخرج من مغارتي، لذلك نظرت من الفتحة، كان الظلام حالكا، فاتجهت إلى خيمتي حيث تمددت بداخلها.

***

لم أحسّ طوال الأسبوعين الماضيين لا بالبرد ولا بالجوع كنت أتناول قطعا صغيرة من اللحم لكنها قليلة جدا مقارنة بما كنت آكله عادة، لذلك تعجّبت من التغيّر المفاجئ الذي طرأ على حياتي طيلة تلك الأيام، وفي صبيحة اليوم قررت الخروج للتفسح قليلاً، ثمّ فكرت في الذهاب إلى مغارة أفروديت، لأتأكد إن كانت حية أم لا. أخذت احتياطاتي حتى لا يتمكّن جنودها من مشاهدتي وأنا أقترب منهم، ولمّا وصلت إلى مكان غير بعيد عنها، بدأت أراقب فتحة المغارة منتظرا خروج أيّ شخص منها، كنت قابعا في مكاني إلى غاية قرب مغيب الشمس، فأسرعت خطاي عائدا، حيث كان البرد قارسا جدا لدرجة أنني بدأت أحسّ بأنّ قدمي قد تجمدتا، لكنني تشجعت وواصلت عدوي إلى أن وصلت إلى مغارتي. فجأة تبادرت إلى ذهني صورة عدوي وأنا شاب عندما قتلت عمي، حيث ساعدني بروميثيوس في الوصول إلى القرية. تمكّنت أخيرًا من دخول المغارة وأحكمت غلق المنفذ ثمّ اتجهت مباشرة نحو النار وأنا ألهث، قذفت إليها بأخشاب إضافية إلى أن اشتعلت جيدا ثم قمت بنزع قفازي وحذائي وغيّرت ملابسي، ولمّا أحسست بالدفء تمددت على فراشي ونمت مباشرة.

***

عندما استيقظت اليوم أحسست بالجوع، فالتهمت عدة قطع من اللحم، ثمّ عاودتني صورة أفروديت، أمازالت حيّة أم لا؟ هل أفراد قبيلتها أحياء أم هم الآن في عداد الأموات؟ أمضيت النهار كاملا وأنا أحاول أن أقنع نفسي بعدم ضرورة معرفة الحقيقة، فماذا لو أجدها بحالة الأشخاص الذين وجدتهم بالمغارات التي دخلت إليها أثناء رحلتي؟ كيف لي أن أعيش وحيدا في هذا العالم؟ هل أستطيع أن أتلاءم مع هذا الوضع؟ أن أكون آخر إنسان على الأرض؟ من الأفضل لي أن أعيش في الآمال على الأقل أستطيع أن أخفف بها عن نفسي، وأقنعها بأنّ أفروديت ما تزال على قيد الحياة، وأنني لست وحيدا في هذا العالم، حتى وإن كان ذلك مجرد أكذوبة، أكذوبة أخرى أصطنعها لأزرع في قلبي قليلاً من الأمل. لكن كيف لي أن أرضى بذلك؟ من أين لي الصبر والسكوت عن معرفة الحقيقة؟ مهما تكن مرارة تلك الحقيقة، فأنا مستعد لمواجهتها الآن! مهما تكن المعاناة التي ستسبّبها لي تلك الحقيقة، فتبًّا لهذه النفس التي لا ترغب في الاستقرار! وكأنّ وجودها في الحياة مرهون بدافع البحث المستمر والدائم عن الهموم، وكأنّ حياتي الآن في نعيم دائم، ألا يكفي ما أعانيه يوميا من قساوة الطبيعة عليّ حتى أضيف إلى معاناتي مشاكل أخرى؟ فمنذ نعومة أظافري إلى هذه اللحظة لم أتوقف عن تنفيذ ما يأمرني به عقلي، لِمَ لا يصغي هو إليّ ولو مرة في حياتي؟ ألا يشفق على حالتي؟ أليس من حقي الآن أن أرتاح؟ أن أجلس أمام هذه النار وأتمتع بدفئها وأمضي ما تبقى لي من أيام هنا في راحة إلى أن أنسحب من الوجود نهائيا؟ لِمَ أدفع بنفسي دائمًا للخروج؟ ما الجدوى من ذلك بما أنني أعلم أنّ راحتي مرهونة بوجودي بهذه المغارة! فلماذا ذهبت إذن إلى مغارتهم؟ هل أبحث عن موتي أم ماذا؟ كفاني تجسسا على أفروديت وقبيلتها!.

لكن كيف لي أن أتغلب على هذا الصراع الذي أعيشه بداخلي؟ لقد مرّ وقت طويل وأنا لم أر فيه أفروديت أو أيّ شخص آخر، وأخاف أن أجدها ميتة، فكرت في العودة إلى الدفتر لكنني عدلت عن الأمر، خرجت من المغارة، وبدأت أسير على الثلج الناعم حيث كانت بعض النسمات الباردة تقوم برفع حبيبات الثلج مغيرة من مكانها، كنت أسير دون أن تكون لديّ وجهة محددة، حتى وصلت إلى مكان أستطيع فيه رؤية القمة العالية، فأخذت أحدّث نفسي قائلا: تلك القمة تمكّنتَ من بلوغها، بينما معرفة خبر أفروديت لم تصل إليه لحد الآن، تذكّر ما قاله لك بروميثيوس، تذكّر حبّها لك، يجب أن تذهب وتطمئن عليها. لكن صوتا آخر أخذ يحدثني ويحذرني قائلا: لا تستمع إليه، فلو كانت تحبك لكانت قد أتت إليك، إن ذهبت إليها، فستعتبر ذلك استسلاما منك، سوف يقتلك جنودها، أو ستقتلك هي بنفسها، ألا تتذكر أباها؟ لقد قتلته! لذلك فإنها ستثأر منك. أمسكت رأسي بين يدي وضغطت عليه بكامل قوتي وأنا أصرخ: كفى، لا أريد أن أسمع شيئاً، ثمّ عدت إلى المغارة لأستلقي داخل خيمتي.

***

أيقظتني اليوم أصوات الرياح معلنة عن عودة العواصف من جديد، لم أنم جيدا الليلة الماضية بسبب البرد والأحلام المزعجة، كنت أظنّ بأنّ هذه العواصف قد حسمت المسألة بحيث سأبقى في مغارتي ولن أخرج، وربما عندما تتوقف سأكون قد نسيت أصلا فكرة الذهاب إلى أفروديت. لكن العواصف ما لبثت وأن هدأت في المساء، لقد قضيت ليلة مليئة بالكوابيس رأيت فيها أفروديت وهي تمسك بخنجري وتحاول أن تغرزه في جسدي، كنت أصرخ في وجهها متوسلا: إنني أحبك، لكنها كانت غير آبهة بما أقوله، وكانت بجانبها فينوس، حيث خاطبتُها بتودد: قولي لها بأنني أحبها، فابتسمت وقالت: إنك تحبنا جميعا، شاهدت بعد ذلك السكين وهو ينغرز في قلبي، فاستيقظت مفزوعا والعرق يتصبّب سيولا على جبيني.

***

أعدت التفكير مليا في الأمر ثمّ تساءلت: هل أعتبر نفسي الآن من الذين يعيشون؟ وهل نمطي في الحياة الآن يجسّد وجودي على الأرض؟ إنّ انحسار حياتي على الأكل والشرب والنوم يعادل في نظري اللاوجود، فبقائي حيًّا مماثل لعدمه! لذلك يجب أن أتشبث على الأقل بأمل يمكن له أن يتحقق أو ألا يتحقق، فقررت إذن معاودة المراقبة من جديد عساني أشاهد أفروديت وجنودها، فاتجهت مباشرة إلى المكان الذي راقبتهم فيه في الأول وأنا آخذ حيطتي من عدم تمكّن جنودها من مشاهدتي، وأمضيت يوما كاملا هناك إلا أنني لم أشاهد أحدا، فلا أفروديت ولا أيّ شخص آخر، أردت الاقتراب من باب المغارة لكنني كنت خائفا من رد فعل جنودها لذلك عدلت عن فكرتي وعدت إلى المغارة وأنا أفكر في كيفية التصرف، ثمّ رأيت أنه يستحسن قبل اتخاذ أيّ قرار التأكد أولا من عدم خروجهم من المغارة، لذلك ظللت أراقبها لأكثر من أسبوع لكنني لم أشاهد أحدا، ثمّ اتخذت بعد ذلك قرار الاقتراب من باب المغارة عساني أسمع أصواتا أو حركة وهذا ما قمت به حيث اقتربت من دون أن أحدث أيّ صوت ولمّا وصلت بالقرب من فتحتها شممت رائحة الدخان، فعلمت أنهم بالداخل، فعدت أدراجي وأنا سعيد.

لمّا وصلت إلى مغارتي عادت شهيتي من جديد حيث أكلت قطعتين كبيرتين من اللحم، لكن وبمجرد تمددي على الفراش بدأت الأفكار السوداء تحوم فوق رأسي من جديد، حيث قلت بحنق: ما أدراني بأنها على قيد الحياة؟ ربما أفراد قبيلتها هم الذين يشعلون النار بينما من الممكن أن تكون هي قد ماتت منذ فترة بعيدة، لذلك لا أعرف سبب هذا الفرح السريع الذي انتابني والذي تحول فجأة إلى حسرة وألم، إنني أصبحت لا أتحكم في عواطفي، أحسست بأنني أفقد من يوم لآخر القدرة على التحكم في نفسي، أظنّ أنّ الوحدة هي السبب، ومن الممكن أن يكون للبرد أيضاً دخل، نعم! فالبرد الشديد مثلما يؤثر على أجسامنا

من الممكن أن يؤثر أيضاً على أفكارنا، لذلك وحتى أزيل كلّ هذه الوساوس التي تطاردني قرّرت الذهاب إلى مغارتها لاستطلاع الأمر، لكن كان عليّ أن أبحث عن سبب مقنع أدخل به عليهم، ففكرت في إمكانية الاستسلام، سأوهمهم بأنني جئت مستسلما، إلا أنّ هذه الفكرة لم أقبلها احتراما لأفراد قبيلتي، يجب أن أصارحهم مباشرة وأقول لهم بأنني أعيش لوحدي في المغارة ولا أستطيع أن أتحمل تلك الوحدة لذلك أتمنى أن يقبلوني بينهم. لكن إذا ما وجدت أفروديت قد ماتت، فماذا سأفعل معهم؟ من الأفضل لي أن أمضي ما تبقى من أيامي لوحدي، على الأقل سأنعم بالراحة، إذن سأقول لهم فقط: إنني جئت لأتحدث مع أفروديت، فإن كانت موجودة سأعلن لها حبي وإذا أرادت قتلي فلها ذلك أما إذا كانت ما تزال ترغبني، فأنا سأكون رهن إشارتها، وفي حالة ما إذا وجدتها قد ماتت، فسأعود أدراجي معتذرا لهم عن إزعاجي، لقد آن الأوان لأن أفصل في آخر قضية لي.

***

لم أستطع النوم طوال الليل، فالتفكير في أفروديت وقبيلتها بدأ يؤرقني لقد مضى وقت طويل لم أشاهد فيه سوى الهياكل العظمية، لم أتحدث إلى أيّ إنسان سوى مع نفسي، لذلك جاء أمر عودتي من جديد إلى المجتمع صعبا ومقلقا في الوقت نفسه، أخذت أفكر في حالتي: هل يجب أن أعيش مع المجتمع أو خارجه، هل بإمكاني الاستمرار في الحياة لوحدي أم أنه من الضروري العيش مع أفراد آخرين حتى وإن لم تكن بيننا مودة، إنني أعلم أنّ وضعي الخاص يفرض عليّ التأقلم مع كافة الأوضاع، لأن هناك احتمال في أن أكون آخر إنسان على الأرض والدخان الذي شممته ما هو إلا خدعة أوهمت بها أنفي حتى صدقتها، لذلك يجب ألا أضع نفسي من الآن وكأنني متأكد من أن أجدهم أحياء، نظرت من حولي ورأيت حزم الحطب الموجودة بجانب الجدران، ثمّ نظرت إلى القاعة التي توجد بها المؤونة، فقلت بحنق: لا يجب أن أكون أنانيا، كما لا يجب أن أكون بخيلا، إنّ كلّ القيم الفاضلة التي كنت أنادي بها يجب أن تستمر حتى وإن كانت على حساب حياتي، إنني الآن لوحدي، وهم ربما أكثر عددا بكثير لذلك أرى وجوب مساعدتهم، إنهم أولى منيّ بهذه المواد، فقد كنت لمدة طويلة ضالا، نعم! لم أفكر إلا في نفسي، إنهم بشر مثلي، يجب أن أساعدهم إن كانوا أحياء حتى وإن لم يقوموا بشيء من أجلي، هذا هو الطبع الذي أعرف به نفسي، كيف لي أن نسيتهم؟ بل تجاهلتهم، إنني أتحدث عن حبي لأفروديت، وهي ربما تكون قد ماتت من الجوع، بينما أنا أتوفر على أكثر من حاجتي، فتبًّا لي، لقد أخطأت في حقهم لذلك يجب أن أذهب إليهم وأطلب العفو، أتمنى فقط أن يكونوا على قيد الحياة وإلا، فإنني سأحسّ بالندم وتأنيب الضمير طوال الأيام المتبقية لي.

***

نهضت باكرا في ذلك اليوم، إذ أنني لمّا فتحت المنفذ لاحظت أنّ الصبح لم يحل بعد، عندئذ أغلقته، ثمّ أضفت بعض القطع من الخشب إلى النار، وتناولت وجبة من اللحم، بعدها بدأت أبحث عن أجمل ملابسي، إذ يجب أن أظهر في الصورة التي يحملونها عنّي: حكيم شاب وأنيق، أنا لا أولي في الغالب اهتماما بالمظاهر، ففي هذا الطقس البارد أهم شيء فيه أن يحتمي الإنسان منه وبما أننا لا نرتدي سوى الملابس الجلدية، فإنني لا أرى فرقا بين هذا المعطف أو ذاك بما أنهما يؤديان الوظيفة نفسها، وهي حماية أجسامنا، لكنني الآن أريد أن تلعب ملابسي دورا آخر، يجب أن أبدو بشكل أنيق، بل في شكل يعكس صورة حكيم القبيلة، وليس هذا فقط، فأنا سأرتديه من أجل أفروديت، لأنني أفكر فيها وأريد أن تقع من جديد في حبي، ممّا حملني إلى اختيار أجمل معطف أملكه، بني، فاتح اللون، نادرا ما ارتديته. كان معطفا ناعما بالداخل والخارج، لا أدري من أيّ حيوان انتزع، لكنه من دون شك حيوان ميت. فأنا لم أر في حياتي حيوانا حيًّا، بل لم يسبق لي أن رأيت سوى بعض الأسماك الحية، لكن سرعان ما انقرضت. لقد لعبت تلك الحيوانات المسكينة دورا في بقاءنا على قيد الحياة على الرغم من موتها، لقد وفّرت لنا الغذاء والألبسة، بل وفرت لنا الحياة. ويمكن لجلد الحيوان الذي أرتديه أن يكون عاملا كبيرا في تقريبي من أفروديت.

ارتديت أجمل ملابسي ونظرت من المنفذ حيث رأيت الشمس قد بزغت. فكّرت في حمل السلاح لكنني غيّرت من رأيي، فأنا لست ذاهبا إلى الحرب، ثمّ خطرت ببالي فكرة حمل بعض المؤونة لهم، فحضّرت الزلاجة بسرعة، ثمّ أخذت حيوانين وحزمتين من الحطب أخرجتهم من المنفذ ووضعتهم على الزلاجة ثمّ بدأت طريقي إلى مغارتهم وأنا أسحبها ورائي، كنت مرتبكا للغاية، فهي المرة الثانية التي أتوجّه فيها إلى داخل تلك المغارة تبادرت إلى ذهني مختلف

التناقضات التي من الممكن أن يقع فيها الإنسان بوعيه وتحت طائلة رغبته، فذهابي إلى مغارتهم في المرة الأولى كان على شكل غزوة قمنا بها لاسترجاع المؤونة التي نهبت منّا، بينما أصبحت الآن متجها إليهم حاملاً معي المؤونة! لكن الشيء المقلق بالنسبة لي يكمن في كوني على عتبة اللقاء الأول الذي يسمح لي - وهذا ما كنت أتمناه - بالحديث مع أفروديت بعد مرور زمن طويل جدا عن آخر حديث لي معها، ستكون أمامي وسأحدثها! إنه لأمر غريب جدا، لكن يمكن لارتباكي آنذاك أن يكون بسبب خوفي من إمكانية الاصطدام بنبأ موت أفروديت، إذ لا شيء يدلّ على أنها ما تزال حية! حاولت التمسك بالخيار الأول لأبثّ في نفسي الشجاعة التي تساعدي على المضي قدما في وجهتي. ظهر لي الطريق طويلا جدا، كنت أنظر يمينا وشمالا ربما أشاهد أحدا منهم، لكنني لم أصادف أمامي سوى الجبال والثلوج، واصلت سيري وأنا أستعيد كلّ ذكرياتي مع أفروديت، كنت أبتسم تارة وأضحك تارة أخرى تبعا للأحداث التي أستعرضها في ذهني إلى غاية تذكري لحادثة قتلي لأبيها، حيث تسمرت في مكاني وأنا أستعيد الصراخ الذي أطلقته أمامي وهي تقول: أبي!، أتمنى فقط أن تكون قد فهمت وضعي آنذاك، فوالدها هو المخطئ وهو الذي تعدى علينا، لذلك فإنني سأعتذر لها عما بدر مني بل سأعرض عليها إن أرادت الانتقام مني أن تفعل ذلك، فأنا مستعد، أصبحت أخيرا مستعدا للموت، ربما نهايتي ستكون بين يديها، ثمّ تابعت طريقي وقد عاد إليّ الارتباك من جديد.

لمّا وصلت إلى باب الغارة أخذت حيطتي من أن أطلب الإذن أولا قبل الدخول، حيث بدأت أصرخ: أفروديت، إنني جئت مسالما، وأريد الحديث معك فهل هذا ممكن، ثمّ انتظرت أن يخرج إليّ أحدهم ليقول لي بصوت حاد: اذهب من هنا، فهي لا ترغب في الحديث معك، أو أن يقول: اذهب فأفروديت قد ماتت، لكن لا أحد، لم يخرج إليّ أيّ منهم، فأعدت الصراخ من جديد بصوت عال: أفروديت، إنني أودّ الحديث معك. وانتظرت قليلاً، لكنني لم ألاحظ أيّ تغير، فالصمت يخيم على المكان، وهنا بدأت أشعر بالخوف والقلق، إذ أصبحت على دراية بأنّ مخاوفي كانت حقيقية، لقد ماتوا جميعا! وعندما

سأدخل المغارة سأجد آخرهم عبارة عن هيكل عظمي مثل الهيكلين اللذين وجدتهما في المغارات أثناء رحلتي، ثمّ تبادرت إلى ذهني رائحة الدخان التي شممتها في الأيام السابقة، وهذا يعني أنني لن أجد هياكل عظمية بل جثثا وهذا أسوء لي، ظننت أنني تأخرت كثيرًا، فقلت في نفسي: معك الحق يا بروميثيوس! لقد علمت بأنّ حياتي كلها ستكون تأخرا في تأخر، كان بإمكاني أن أعيش أحسن حالا ممّا أنا عليه الآن، لكن تأخري في اتخاذ القرارات التي تعنيني أنا بالذات تجعلني أفقد كلّ شيء.

تركت الزلاجة بحمولتها أمام الباب، ثمّ دخلت المغارة وأنا أنظر يمينا وشمالا، كانت مفاصلي ترتعد، لدرجة أنني أحسست بعدم القدرة على حمل نفسي، وجدت صعوبة كبيرة في المشي وكأن الشلل يمسّ أطرافي كلها، كانت مغارة مظلمة لم أتبيّن بدقة معالمها، في الأول دخلت نفقا توجد على يمينه قاعة يظهر أنها ليست كبيرة جدا، إنها قاعة فارغة لا يوجد بها سوى جلدين أو ثلاثة مفروشة على الأرض، واصلت طريقي في النفق لأجد على يساري قاعة أخرى أكثر ظلمة من الأولى تمعّنت النظر فيها لكنني لم أتبين فيها شيئاً، فواصلت طريقي في المغارة وأنا لا أرى أين أضع قدمي، كان الجو باردا جدا حيث أحسست بجسمي يرتعش بشدة، كنت أمشي ويدي تلامس جدار النفق ومن حين لآخر تدخل يدي لتظهر أن هناك فتحة لقاعة أو نفق فرعي، لكنني كنت أتابع طريقي، حتى لاح لي خيال ضوء يتراقص أمامي من بعيد، تسارعت دقات قلبي لذلك المنظر الذي تمسّكت به عيناي، فأسرعت الخطى وأنا أتعثر من حين لآخر على أشياء كانت في طريقي، كنت كلّما أقترب إلا والضوء يزداد إشعاعا، إنه ليس سرابا إذّ بدأت أحسّ برائحة الدخان تدخل إلى أنفي وكأنها رائحة عطر، فهي المرة الأولى التي أحسّ فيها بطيبة رائحته، واصلت سيري إلى غاية وصولي لمصدر الضوء.

كان ينبعث من قاعة توجد على اليمين لمّآ نظرت إلى الداخل ظهرت لي القاعة فسيحة وأكبر بكثير من تلك التي أوجد فيها لكنها قاعة باردة على الرغم

من النار المشتعلة في أحد أطرافها، نظرت من جديد بداخلها عساني أشاهد فيها أشخاصا لكنني لم أر سوى حزم الحطب المصطفة بجانب أحد الجدران. تقدّمت قليلاً من النار، فبدأت أميّز الجلود المفترشة على الأرض وبعض الجلود الموضوعة على شكل أكوام بالقرب من النار، فبدأت أفكر: أين الشخص الذي أشعل هذه النار، إنه حتمًا لم يمت وإلا ستكون الآن منطفئة، تقدّمت أكثر منها، فخيل لي رؤية إحدى أكوام الجلود تتحرك قليلاً، بدأت يداي ترتجفان، فناديت قائلا بارتباك: هل يوجد أحد؟ فرأيت الكومة تستدير، تسمّرت في مكاني وأنا أحاول أن أميّز الشخص القابع بداخلها لكنني لم أستطع التعرف عليه، فقلت حائرا: من أنت؟ لم يردّ عليّ ذلك الشخص بل قام من موضعه وبدأ يتجه نحوي، هممت بأخذ الخنجر الموجود في جيبي لكنني تذكرت بأنني لم أحضره معي، فخاطبت الشخص قائلا: إنني لا أحمل أسلحة معي ولم آت إليكم كعدو بل كمسالم، ثمّ سمعت ذلك الشخص يقول بصوت رقيق وهادئ لكنه يحمل في طياته كلّ معاني التعجب: أهذا أنت؟.

إنه صوت أفروديت! نعم صوت أفروديت، فأنا أستطيع أن أميّزه من بين آلاف أصوات النساء لأنني أعرفه جيدا، فقلت باندهاش: أفروديت؟ فردّت بنفس النبرة: نعم، أأنت حيّ؟ التزمت الصمت حيث لم أجد ما أقوله لها، لقد ضاعت مني الكلمات، وفقدت القدرة على التعبير، إنّ الذهول الذي اعتراني جعلني كالأبكم إذ لم أصدق ما أراه بعيني، فقطعت أفروديت الصمت وقالت بصوت يحمل معنى الجدة والاندهاش: إذن أنت حيّ! فأعدت بدوري نفس عبارتها: إذن أنتِ حية! فقالت مستغربة: وأين هم جنودك؟ فقلت متعجبا: إنه نفس السؤال الذي يتبادر إلى ذهني، أين هم أفراد قبيلتك؟ فقالت بحسرة: لقد ماتوا جميعا. لا أعرف إن كان الجواب الذي سمعته منها قد أحدث فيّ السعادة أم الحزن لكنني لم أظهر أيًّا منهما، بل قلت بصوت يحمل كلّ صور الاندهاش: أماتوا جميعا؟ فقالت: نعم، ماتوا جميعا، إنني أعترف بأنك أحسن مني، فأنت على الأقل حافظت على أفراد قبيلتك، أليس كذلك؟ لكنني طأطأت رأسي ولم أجبها، فقالت وهي مندهشة: أتريد أن تقول بأنهم ماتوا جميعا؟ فأومأت برأسي،

فقالت متعجبة: كلهم؟ لم يبق منهم إلا أنت؟ فقلت بحزن: نعم، أنا آخر فرد في قبيلتي، فقالت وعلامات الدهشة ظاهرة على صوتها: حتى بروميثيوس مات؟ فقلت: نعم، ماتوا جميعا. جلستُ على الأفرشة والتزمت الصمت. كنت أشعر بالبرد فتقدمتُ من النار ثمّ جلستُ. لم أرد أن أقطع تفكيرها لذلك لم أطلب منها الإذن بالجلوس، حيث نزعت قفازي وبدأت أدفئ يدي.

التزمنا الصمت مدة من الزمن ثمّ قطعتُه قائلا: أفروديت، أريد أن أعتذر عمّا بدر مني. ثمّ انتظرت قليلاً وواصلت بعدها حديثي بنبرة تحمل كلّ معاني الأسف: أنا أقصد عمي ... فقاطعتني برقة: لا تفكر في هذا الأمر، إنه بعيد جدا، لقد أخطأ أبي في حقّكم كثيرًا، كنت أنتظر أن يكون الانتقام من طرف شخص آخر غيرك، لقد ظننت أنك قد تغيرت، فقاطعتها بدوري قائلا: إنني لم أتغير أبدًا يا أفروديت، إنني كما تعرفينني، محب للسلم ومحب لكل ما يحقق السعادة، ومحب لك أيضاً، فقالت دهشة: ماذا تقول؟ فقلت بلهجة الواثق من نفسه: نعم أنا أحبك وكل الوقت الذي أمضيته بعيدا عنك كنت أفكر فيك، لقد كانت قبيلتي جميعا تعلم بحبي لك. فقالت متعجبة: ولماذا لم تأت من قبل لتقول لي هذا الكلام؟ لقد انتظرتك بدوري طويلا، ألا ترى أنّ الآن قد فات الأوان؟ فقلت لها بحماس: كلا، إنني أريد أن أعوض كلّ الأوقات التي ضاعت منّا، فقالت بحسرة: هل تعتقد بأنّ ذلك ممكن؟ فأجبتها: نعم، إنه يمكن لنا أن نستمتع بكل اللحظات المتبقية ما دامت قلوبنا تنبض، إنني أريد أن أستمع إليك، لقد غبت عنّي طويلا، لقد حرمت منك كثيرًا، فقالت متعجبة: لِمَ لم تأت إليّ؟ كم انتظرت قدومك وكم تمنيت رؤيتك، إنك تعلم مدى تعلقي بك، إنني أحببتك كثيرًا... أجبتها بصوت خافت يوحي بنوع من التردد: لكن أباك، فقاطعتني قائلة: لقد قتل أباك! أنا أعترف بظلمه لك، وأنا أتأسف لما اقترفه في حقك وحق قبيلتك. أتظنّ أنني لا أميّز بين الحق والباطل؟ أتذكر ما كان يحكيه لنا عمي وبروميثيوس؟ عن القيم الفاضلة، عن حب الطبيعة، عن عدم إيذاء الغير، عن السعادة وكل الأشياء الأخرى، هل تتذكرها؟. لم أتمالك نفسي عندما سمعت كلّ الأمور التي عدّدتها، إنها تتذكرها مثلي تماما، فقلت لها بصوت

حماسي: إنها راسخة في ذهني رسوخ كلّ اللحظات السعيدة التي قضيناها معا على الرغم من قصرها، فقالت مبتسمة: إذن تتذكر العهد الذي تبادلناه؟ فاحمر وجهي وقلت بحماس: نعم، أن أكون لك وأن تكوني لي !. فقالت وهي تضحك: نعم، لم أستطع طوال غيابك الارتباط برجل غيرك، أتعلم ذلك؟ لم أجد الردّ الذي سأقدمه لها، هل سأخبرها بالحقيقة وأقول لها بأنني على العكس منها كانت لديّ سبع رفيقات! ستكون الصدمة حتمًا قوية عليها، لكنها قاطعت تفكيري قائلة بابتسام: أنا أعلم بأنك كنت مرتبطا بست رفيقات أليس كذلك؟ فقلت مندهشا: بلى، كيف عرفت ذلك؟ لكنها لم تجبني بل واصلت ابتسامها، أصبحت أرى وجهها جيدا، إنّ ضوء النار الذي ينعكس على وجهها يظهر جيدا ملامحه، إنها رائعة، والابتسامة التي رسمتها شفتها قد زادت من جمالها، ثمّ قالت بنبرة تحمل نوعاً من اللّوم: لقد انتظرتك!. فقلت وعلامات الدهشة بادية على محياي: كنت تعلمين بارتباطي بهن وعلى الرغم من ذلك انتظرتني؟ فقالت برقة: إنني أوفي دائمًا بعهدي. أحسست بالمذلة والاحتقار، كيف أنها أوفت بوعدها، وأحبّتني رغم بعدي عنها، وظلّت مهتمة برجل كان يستمتع بأيامه مع رفيقاته؟ فقاطعت تفكيري من جديد قائلة: انس الموضوع الآن، ولا تفكر في الماضي! فقلت بحسرة: لكن .. إلا أنها لم تتركني أكمل عبارتي حيث قالت مبتسمة: يكفيني أنك ما تزال تحبني، فقلت بأسف: لقد أخطأت كثيرًا في حقك، هل تسامحيني؟ قامت من مكانها واقتربت منيّ حيث جلست بجانبي ثمّ أحاطت جسمي بذراعها الأيسر ووضعت رأسها على كتفي الأيمن وتنهدت قائلة بصوت رقيق وخافت: يكفيني أنك معي الآن.

لم أصدّق مجيء اليوم الذي نلتقي فيه ونجتمع مجددا، إذ كان مجرد أمل لا يعدو أن يكون محاولة منيّ للتمسك بخيط رفيع في هذه الحياة لا أكثر! فسألتها بدوري: لِمَ لم تحاولي الاقتراب منيّ كلّ هذا الوقت يا أفروديت؟ أنت تعلمين بأنني كنت خائفا من ردّ فعلك بعد مقتل عمي، ولم أكن على علم بنظرتك اتجاهي؟ فقالت: تصوّر لو كنت في مكاني! أتعتقد أنه باستطاعتي الإقدام لإعادة المياه إلى مجاريها؟ أنت تعرف هاديس، كان يكرهك كرها

شديدا، لقد أراد أن أكون رفيقته لكنني لم أتقدم إليه ولم أطلبه، كان يعلم بحبي لك، لذلك أراد قتلك، كان يمقتني ويذكّرني دائمًا بحادثة مقتل أبي. فقلت لها حائرا: لكنه مات بعد ذلك، وأصبحت الحكيمة، فلماذا لم تحاولي الاتصال بي؟ فقالت بحسرة: إنّ قيادتي للقبيلة قد جعلت تاناتوس يغير، فقد كان ينتظر أن يكون هو الحكيم إلا أن القبيلة فضلتني عليه، حاولتُ مرارا أن أقنعهم بضرورة الصلح بيننا لكنه كان يقف حجر عثرة، حيث يقوم ويذكّر الأفراد بأبي وهاديس والمؤونة التي تتوفرون عليها بينما نحن نموت من الجوع، لذلك لم أتمكّن من الجمع بيننا، إنّ قبيلتي كانت تعلم أيضاً بحبي لك، انتظروا أن أطلب واحدا منهم ليكون رفيقا لي لكنني لم أقم بذلك، فتقدّم منيّ تاناتوس كما تقدم آخرون من أفراد قبيلتي، كنت في كل مرة أرفض عرضهم لذلك كانوا جميعا يكرهونك، قال لي تاناتوس مرة بسخرية: إنك تحبّين شخصا يملك ست رفيقات، فقلت له بازدراء: أنا أحبّ قبيلتي ولا أفكّر إلا في مصلحتها. لقد كنت حانقة عليك في البداية، لم أعد أرى ضرورة الاستمرار في التضحيات التي أقوم بها أمام العداوة الشرسة والمراقبة المستمرة لأفعالي من طرف أفراد قبيلتي، وخاصة جنودي، وكدت أن أستسلم لهم، لكنني تذكرت طبعك ومواقفك، فأنا أعلم بأنك لا تستطيع رفض أيّ طلب، فأنت تحبّ أن تحقق السعادة لغيرك، كنت آمل فقط أن تبقي القليل من حبك لي وسأقتنع به، وأنا الآن متيقنة من أنني لم أخطئ. فقلت لها متعجبا: إنني لم أكن على علم إطلاقا بالوضع الذي تعيشين فيه، لأنني لو كنت أعلم بذلك لكنت قد جئت وحرّرتك من قبيلتك، فقاطعتني قائلة بابتسام: لو جئت في ذلك الوقت لن أرافقك، فتعجبت من موقفها حيث قلت: ولماذا؟ فقالت بصوتها الرقيق: إنني وبصفتي حكيمة قبيلتي كان عليّ أن أحقّق سعادتهم وراحتهم، لقد استطعت أن أهتدي إلى المواقع التي توجد بها المؤونة والمواقع التي يمكن أن تحتوي على الحطب، لذلك فإن جنودي كانوا واعين بمدى أهميتي بينهم ويفضلون أن أبقى الحكيمة حتى أساعدهم على الاستمرار في الحياة، لقد تمكّنا من جمع الكثير من المؤونة والحطب لدرجة أنّ القاعات كلها كانت مكتظة بها، لكن شيئاً فشيئاً بدأت

الأماكن التي كنّا نعثر فيها على المؤونة تنقص إلى أن أصبحنا مضطرين للمغامرة إلى أماكن بعيدة للبحث عنها، لقد فقدت العديد من جنودي في تلك الرحلات وكما تعلم، فإننا أمضينا وقتا عسيرا بسبب البرد والعواصف لدرجة أننا كنّا مضطرين لمهاجمتكم بعد علمنا بحصولكم على العديد من الحيوانات، في حين كنّا على وشك الموت من الجوع إذ أصرّ جنودي على مهاجمتكم. كنت رافضة للأمر، ولمّا رأيت أنه لا حلّ لنا سوى ذلك، فإنّني فضلت أن تهديني إلى المكان الذي وجدتم فيه المؤونة، لم أحدّث جنودي عن هذا الأمر، حيث بعثت بأحدهم لمراقبتكم على أمل أن تشاهدوه وتتخذوا حيطتكم، وهذا ما حدث، لقد علم تاناتوس بالأمر وأراد قتلي، لكنني ذكّرته بالعواقب التي ستنجر إن قام بذلك وكان حانقا، لقد قال لي بأنه سيقتلك في تلك المعركة، كنت خائفة من أن ينفّذ وعده، لكن الأمور سارت وفق الخطة التي رسمتها حيث ذهبنا إلى ذلك الموقع وأحضرنا ما تبقى من حيوانات داخل تلك المغارة، وسكت تاناتوس ولم يعد يعارضني الرأي بعد ذلك.

أحطتها بدوري بذراعي وقلت لها في رقّة: لقد عانيت كثيرًا يا أفروديت، فقالت مبتسمة: ومن منّا جميعا لم يعان؟ ألا ترى أننا نعيش كالأموات، هل تسمّي هذه المأساة حياة؟ فقلت لها: حدثيني عن أفراد قبيلتك، فقالت بحزن: لقد مرّت الأمور بسرعة، فالبرد الشديد الذي حلّ قد جعل أغلب الأفراد يموتون، كان الجميع مرضى، حاولت بقدر الإمكان أن أخفف من معاناتهم لكنني لم أستطع، كنت أمام خيارين: إما حرق جميع الحطب لرفع درجة الحرارة أو الإبقاء على نفس معدل الحطب الذي نشعله، لم تكن بيدي حيلة أخرى، كنت أراهم يموتون الواحد تلو الآخر، من دون أن أتمكّن من فعل أيّ شيء لإنقاذهم، كنت أتمنى أن أموت قبل أن أراهم جميعا يموتون أمامي. توقفت عن الحديث حيث أحسست بقطرات الدموع تسقط على معطفي، لقد أحسست بحرارتها على الرغم من الملابس الكثيرة التي كنت أرتديها، تساقطت الدموع أيضاً من عيني لأنني تذكرت ما عانيته، تذكرت أفراد قبيلتي الذين ماتوا الواحد تلو الآخر، لقد عايشت من خلال قصتها جميع المراحل التي مررت بها،

فقلت لها ومظاهر الأسى بادية على محياي: إنك تسردين عليّ قصتي أنا أيضاً، ثمّ ضممتها إليّ ولزمنا الصمت مدة طويلة.

أخذت بعض قطع الحطب ورميتها في النار حيث حركتها بقطعة من حديد، فبدأت النار تتراقص من جديد وتبعث بلهبها ليقوم بتدفئتنا، نظرت من جديد إلى وجهها، فأحسّت بنظرتي اتجاهها حيث رفعت رأسها وبدأت تنظر بدورها إليّ، كنّا نتأمل بعضنا البعض في صمت وكأننا نسجّل تعاليم وجهينا حتى لا ننساهما، إنّ الكلمات لا تملك الشحنات الكافية للتعبير عن ذلك المشهد الجميل، مشهد تواجدي مع أفروديت، كنّا جالسين ومتقابلين، كنت ممسكا بيديها، كانتا ناعمتين جدا وكأن البرد لم يؤثر فيهما على الإطلاق، أحسست بدفئهما لم أرد أن أطلقهما بل قرّبتها إلى صدري ثمّ إلى فمي حيث بدأت في تقبيلهما، أعدت النظر إلى وجهها ثمّ ابتدرتها قائلا: إنك جميلة جدا يا أفروديت، فأنت لم تتغيري، بل بقيت مثلما كنت عليه، كأنني أرى ملامح تلك الصبية التي صارحتني يوما بحبها لي، فقالت مبتسمة: وأنت أيضاً لم تتغير كثيرًا، فعدى هذا اللحية التي تغطي وجهك، فإنني أرى حاجبيك الكبيرين وعينيك الجميلتين، لقد بقيت مثلما تركتك وسيما جدا، ثمّ سكتت. لا أستطيع أن أعبّر عن السعادة التي كنت أشعر بها في ذلك الوقت، لكنني ما لبثت وأن أحسست بالبرد يدخل من الباب، فقلت لها تعالي معي يا أفروديت لنذهب إلى مغارتي، فهي الأدفء، فقالت مستغربة: الآن؟ قلت: نعم، فقالت: هل باستطاعتك السير في الليل تحت هذا البرد القارس؟ فقلت متعجبا: الليل؟ هل تعتقدين بأنّ الليل قد حلّ؟ فقالت وهي تضحك: أظنّ أنّ الصبح لن يتأخر، تعجبت من أمرها قائلا: أأنت متأكدة؟ فقالت: طبعا، فقلت مبتسما: إنّ الوقت يمرّ معك بسرعة دون أن أحسّ به، هل أنت متعبة؟ بإمكانك الاستراحة، فقالت بصوتها الرقيق: كلا، إنّ وجودك معي ينسيني كلّ شيء ثمّ تابعت: هل تتذكر ما قاله لك بروميثيوس؟ فقلت حائرا: ماذا؟ فقالت: لمّا تحدّث معك عن السرعة في اتخاذ المواقف، والجرأة في البوح بالمشاعر، أظنّ أنك تقدّمت كثيرًا، فقلت لها مازحا: أتظنّين ذلك؟ إنني على العكس أرى أنني قد أضعت من الوقت

الكثير، فقالت: لا تفكر في الماضي، ولا تلم نفسك أبدًا، لا يهم الماضي، فكّر فقط في الحاضر، فحتى المستقبل لا يهم بالنسبة لنا، علينا أن نعيش حاضرنا وكفى. كان تفكيرها مطابقا تماما لتفكيري، أحسست من جديد بالانسجام التام الذي يجمع بيننا، ليتني أعود بالزمن إلى الوراء!. قلت متنهدا: معك الحق يا أفروديت، إنني أجهل الكيفية التي ستمكّنني من تعويض كلّ ما فاتنا، إنني أودّ التعبير عن الكثير من الأشياء لكنني لا أدري من أين أبدأ كلامي، حتى أنني لا أعثر على الكلمات التي أستطيع بها تصوير مدى سعادتي بوجودي معك، فهذه اللحظات لم أكن أحلم بها على الإطلاق، لقد ظنّنت أنني قد أضعتك، هل تعلمين بأنني منذ أكثر من سنة وأنا أعيش وحيدا في المغارة؟ فقالت وعلامات الدهشة بادية على وجهها: أتقول سنة؟ إنها المدة نفسها التي أمضيتها لوحدي بعد موت صديقتي هيجي، آه لو كنت أعلم بذلك لجئتك مسرعة، فقاطعتها متحسرا: بل أنا الذي كنت سأطير إليك مسرعا، ثمّ قالت متعجبة: وماذا فعلت طوال هذا الوقت؟ فقلت لها: إنه أمر لا يمكن لك تصديقه، فقالت حائرة: لقد أثرت فضولي فتحدّث، فقلت: لقد صعدت إلى قمّة الجبل الكبير! فقالت وكأنها غير مصدقة: ماذا تقول؟ كلا؟ فقلت مؤكدا: بلى، فقالت وقد ازداد بريق عينيها: هل وصلت إلى قمته؟ فقلت لها مبتسما: نعم، وفوق ذلك بت ليلة عليها! فقالت باندهاش: ألم تخف من العواصف والبرد والانزلاقات؟ فقلت: كنت أعتقد أنني لوحدي، لذلك لم أعر لحياتي أدنى اهتمام، كان ذلك هدفي وحقّقته. فقالت مبتسمة: أنت فعلا مجنون. ثم اقتربت مني من جديد ووضعت قبلة على شفتي. أخيرًا قبّلتني أفروديت، إنني لم أصدق ما حدث، لقد أحسست أنني أصبحت خفيفا لدرجة أستطيع إثرها التحليق عاليا، كانت قبلة قصيرة لكنها حرّكت جميع حواسي، لم أعد أحسّ لا بالبرد ولا بالدخان المتباعث من النار، لقد خيّل لي أنني في غابة كثيفة مثل تلك التي شاهدتها في الكتب، فالعصافير تزقزق وتردّد أنغاما حلوة لم أسمعها من قبل، ويصل إلى مسامعي خرير مياه النهر وحفيف أوراق الأشجار، لقد تمكّنت أخيرًا من الإحساس بكلّ الخيرات التي حرمت منها. لم أستفق من ذلك العالم الجميل إلا على صوت أفروديت وهي

تقول لي بارتباك: ما بك؟ هل أنت بخير؟ فقلت لها بصوت يحمل كلّ معاني الحب: لن تستطيعي تصوّر مقدار السعادة التي أحياها الآن وأنت بجانبي، إنني لم أحسّ بها منذ وقت طويل جدا، أتعرفين يا أفروديت، إنني حائر في أمري، لا أدري الوسيلة التي أمكّنك بها من السعادة، فأنا أودّ أن أقوم بكل ما سيسمح لك ببلوغها، فأنا أريد أن أعوضك عن كلّ ما حرمتِ منه لكنني لا أعرف طريقة القيام بذلك، أحسّ بأنني قد ظلمتك كثيرًا، وأريد.. فقاطعتني قائلة وهي تبتسم: قلت لك لا تفكر في الأمر، فوجودك معي يمثّل أحسن هدية تقدمها لي، لقد تمكّنتُ أخيرًا من ملاقاتك، إنه أمر كما أخبرتك به لم يتبادر إلى ذهني مطلقا، كنت أعتقد أنني سأموت من دون أن أراك مرة أخرى، فقاطعتها قائلا: أرجوك لا تتلفظي بكلمة الموت هذه، إنني أريد أن أتمتع بكل لحظة يمكن أن أعيشها معك، لقد أصبحت متمسكا بالحياة، يجب أن آخذ كلّ احتياطاتي حتى لا يصيبنا أيّ مكروه، سأملأ المغارة بالحطب والمؤونة التي تجعلنا نعيش طويلا من دون أن تقلقنا الطبيعة، لقد مكّنَتْني من الالتقاء بك، فلا أريد أن ننفصل بعد الآن، هل تسمعين يا أفروديت؟ كنت ماسكا بيديها حيث كنت أضغط عليهما وكأنني خائف من أن تنفلت مني، فقالت مبتسمة: أنا أسمعك وأنا أوافقك الرأي لكن رجاء لا تضغط كثيرًا على يدي، ثمّ أخذت تضحك. احمر وجهي وأنا أطلق يديها بارتباك معتذرا في الوقت نفسه: آسف!، فأنا لم أكن أشعر بذلك، بل لم أكن أشعر حتى بنفسي، ثمّ بدأت أضحك بدوري. نظرتْ إلى باب القاعة ثمّ قالت: أعتقد أنّ الصبح قد حلّ، فما رأيك أن نأخذ معنا المؤونة المتبقية مع حزم الحطب؟ فقلت لها بسعادة: نعم، فلا أحد يحتاج إليها هنا.

قامت أفروديت واتجهت إلى الجدار حيث أخذت منه مشعلين، قدّمت لي أحدهما واحتفظت بالآخر. قامت بإشعال مشعلها وقمت بالأمر نفسه ثمّ قالت لي: إنّ الزلاجات موجودة في القاعة الأخرى، فهيا بنا.

خرجنا من القاعة الكبيرة وعّرجنا يمينا داخل قاعة أخرى حيث لاحظت وجود العديد من الزلاجات الخشبية، أخذت منها زلاجتين، ثمّ عدنا إلى القاعة

الكبيرة حيث حمّلنا إحدى الزلاجات بحزم الحطب، وخرجنا بعدها حيث مشينا إلى غاية القاعة التي توجد بمحاذاة القاعة الأولى التي دخلت إليها البارحة، حيث لاحظت العديد من جثث الحيوانات المكدّسة تحت الجليد، فحمّلت الزلاجة الأخرى بعضا منها، ثمّ قلت لها: سنعود غدا لنحمل الحزم والمؤونة المتبقية. وافقت على رأيي، ولمّا خرجنا لاحظت الزلاجة التي أتيت بها والمعبأة هي الأخرى بالمؤونة والحطب، فقلت لها: سنتركها بالداخل وعندما نعود سنأخذها معنا.

***

إنّ إحساسي بالسعادة لا يمكن أن أجد له وصفا، فوجودها معي قد سمح لي بالنظر إلى العالم من زاوية أخرى، إنّ هذه الطبيعة وعلى الرغم من قساوتها إلا أنها لم تعد تؤثر فيّ، لقد أصبحت لا أخاف لا من العواصف ولا من البرد، أحسست بأنني إنسان آخر مختلف، إنسان ولد من جديد، وكأنني قد دخلت في حياة أخرى غير تلك التي كنت أعيش فيها، لقد عانيت الكثير لوحدي أما الآن، فإنني مع أعزّ شخص في الدنيا، أنا أرى أنني قد بلغت مرادي، وتمكّنت من الوصول وتحقيق كلّ ما آمله في حياتي، لم تذهب معاناتي هباء، إذ أثمرت في الأخير، وقدّمت لي أجود ما يمكن أن يخطر في الحسبان. كنّا نمشي معا على الثلج ونحن نسحب ورائنا الزلاجتين وفي كلّ مرة أنظر إلى هذه الفتاة التي ملكت عقلي منذ أن كنت صغيرا، إنها هي، وأنا أمشي برفقتها، إنها الحقيقة، كنت خائفا من أن أستيقظ، وأجد كلّ ذلك مجرد حلم. قلت لها بصوت هادئ ورقيق: أفروديت! فقالت مبتسمة: نعم؟ فقلت: لا شيء! ثمّ استطردت قائلا: هل أنت متعبة؟ هل تريدين مساعدة؟ فقالت وهي تضحك: كلا، شكرا لك.

كانت السماء صافية، بحيث لم نشاهد سوى بعض السحب المبعثرة هنا وهناك، ألقيت نظرة على الجبل العظيم الذي يظهر من بعيد، كانت قمته مغطاة بالسحب، ثمّ نظرت إلى أفروديت من جديد، فقلت في نفسي: لقد حقّقت أخيرًا رغبتك، يجب أن تستمتع بأيامك، يجب أن تحافظ على سعادتك إلى آخر لحظة من حياتك، لا تترك الحزن ينال منك، حاول أن تكافح من أجل سعادتك، حطّم كلّ العقبات التي يمكن أن تعترضك، إنها معك، لا يجب أن تفرط فيها حاول أن تسعدها بشتى الطرق، لقد تعذّبت كثيرًا من أجلك، لذلك يجب أن تعوضها عن كلّ ما فاتها، إنها لم تسعد كثيرًا في حياتها، وأنت السبب في ذلك، لذا عليك أن تهتم بها، لا لأنها آخر امرأة على الأرض وإنما لأنها وجدت من أجلك، نعم وجدت من أجلك فلا تخيب ظنّها.

لمّا لاحت المغارة من بعيد لاحظت علامات الدهشة على عينها وعلمت السبب حيث قلت لها: لقد كادت العواصف الأخيرة أن تقضي علينا جميعا، حيث حطمت هذه الواجهة كلها، ولقد ساهم تحطّمها في تعقيد وضعنا أكثر، لكنها الآن آمنة فلا تخافي، أتتذكرين معالمها الداخلية؟ فقالت: إنني أحتفظ ببعض الملامح فقط في ذكرياتي، فنحن لم نكن ندخل إليها إلا نادرا، ثمّ قلت لها: إنّ لديّ مفاجأة كبيرة لك، ستعرفينها عندما ندخل .

تمكننا من إدخال المؤونة والحطب إلى المغارة، ثمّ أحكمت غلق المنفذ وقمت بإشعال النار إذ وجدنا القاعة باردة جدا. طلبت من أفروديت أن تستريح على الأغطية الجلدية حيث قلت لها مبتسما: عليّ الآن بتوسيع هذه الخيمة، فضحكت وقالت: عندما نعود إلى مغارتي سنحضر معنا الجلود الموجودة بها حتى تتمكّن من صنعها. جلست أفروديت بجانب النار بينما قمت بإحضار قطع من اللحم التهمناها بسرعة. أجالت أفروديت بصرها في القاعة الكبيرة ثم قالت: إن لم تخنني ذاكرتي فهناك قاعتين من هذه الناحية، وقاعة أخرى صغيرة بهذا الاتجاه أليس كذلك؟ لقد بدأت أسترجع قليلاً بعض التفاصيل عنها، ثمّ نظرت إلى الجدران وقالت بتعجب: ما الشيء الذي يتدلى هناك؟ وهي تشير إلى المقياس، حيث قامت لتشاهده عن قرب، ثمّ رأت المنظار وقالت مندهشة: وهذا الشيء، عبارة عن ماذا؟ فأخرجت من جيب أحد معاطفي الخنجر قائلا بابتسام: هل رأيت مثل هذا السكين من قبل؟ اقتربت مني وأمسكته وعلامات الدهشة بادية على محيّاها: يا له من سكين رائع، أين عثرت عليه؟ ثمّ قمت بإخراج إحدى الولاعات من جيبي قائلا: انظري، فأشعلت الولاعة. لم تصدّق ما رأته عيناها حيث قالت باندهاش: رجاء أعد ذلك، فأشعلت من جديد الولاعة، فقالت: شيء عجيب حقا، هل يمكن أن أقوم بذلك؟ فقلت لها مبتسما: طبعا، وأريتها الطريقة التي تشعل بها الولاعة، فقالت حائرة: أين وجدت كلّ هذه الأشياء؟ هيا تحدث، فأنا لا أطيق صبرا، فقلت لها وأنا أضحك: إنها حكاية طويلة، فاجلسي بجانبي وسأرويها لك.

لمّا انتهيت من سرد حكاية الصندوق، لاحظت علامات الدهشة والانبهار بادية على وجهها، فقلت لها: أليس أمرا غريبا ما يحصل لنا؟ ألا تظنّين أنّ هناك سرّ ما؟. لمّا استعادت أنفاسها قالت لي: هل تعرف حقا القراءة والكتابة؟ فقلت: نعم، فقالت: كتابة تلك اللغة وقراءتها؟ فقلت: طبعا، فأنا أدوّن من حين لآخر كلّ ما أقوم به وكل ما يحدث لنا، وسأقوم مثلا بتدوين قصتي معك، ثمّ أخرجت الدفتر من تحت الجلود وقلت لها: سأدون قصتي هنا مثلما دوّنت كلّ ما حدث لي خلال السنين الماضية، فقالت وهي مستغربة: لكن لمن تدونها؟ فقلت: أنا أفهم قصدك، أنت تعلمين بأننا آخر إنسانين على الأرض، وهذا صحيح، لكنني أعتبر أنّ ما قام به صديقي لي كان شيئاً عظيما، فلولاه لما تمكّنت من الصمود إلى غاية الآن، لقد ساهم بقدر كبير في حياتنا التي تغيرت كثيرًا، فقد أصبحنا أكثر التحاما مع بعضنا البعض، كنّا أكثر حيوية ونشاط، وكانت سهراتنا رائعة ملؤها السعادة والفرح. لا أستطيع أن أصّور لك الشعور الذي تملّكنا آنذاك، لذلك، وكرد للجميل، فأنا أكتب هذه المذكرات. ثمّ تذكّرت الدفتر الآخر حيث لم يكن من الواجب عليّ أن أخفي عنها ذلك، فقلت لها: إنني أحتفظ بسر أعجب من كل الأشياء التي رأيتها وهو أمر لا يمكن تصديقه! فقالت وهي تضحك: إذا كان سرا فهذا يعني أنه لا يجب عليّ أنا فقط معرفته بصفتي الشخص الوحيد المتواجد معك على هذه الأرض! فقلت لها وعلامات الجدّ بادية على محياي: كلا وإنما أريد أن أقول بأنه سيحدث فيك انفعالا لم يسبق وأن شعرت به طوال حياتك، فقالت وهي تبتسم: لقد أثرت فضولي من جديد،ر فهيّا تحدث، ما هو هذا الشيء العجيب والغريب؟ فقلت لها محذرا: إذن أمسكي بأعصابك جيدا واسمعيني، ثمّ همست في أذنها قائلا: لقد وجدت في الصندوق دفترا مماثلا لدفتري، وعندما أقول مماثلا أعني مماثلا في كلّ شيء، حتى الكتابة الموجودة بداخله، وهو ممتلئ أكثر من دفتري، أتفهمين ما أقصده؟ فأخذت تضحك من جديد، وهي تقول: أنت تمزح معي، فقلت لها بجدّ: صدقيني، إنها الحقيقة! فقالت مندهشة: حقيقة يعني حقيقة؟ فقلت: أجل، وهنا أدركت بأنني لا أمزح بل كنت جادا وواثقا من الأمور التي قدّمتها لها لذلك

تغيّرت معالم وجهها بسرعة، حيت بدا عليها الارتباك وأدركت الموقف جيدا بما أنني قد جرّبته من قبل، ثمّ قالت في ذهول: يعني أنّ ما تسجله في دفترك يوجد مسجلا من قبل على الدفتر الآخر؟ فأومأت برأسي، فقالت حائرة: كلّ شيء؟، فأعدت الإيماء برأسي، عندئذ لاحظت أصابعها ترتعد، وأخذ جسمها يرتجف، فأسرعت إليها حيث ضممتها إليّ قائلا: لا تخافي إنك معي، لن يحدث لك شيء، لكنها لم تردّ عليّ، وواصلتُ حديثي قائلا: هذا ما كنت أخاف منه، لقد أردت أن أصارحك بكل شيء، إنه مجرد دفتر فقط ! فصرخت في وجهي قائلة: ماذا تقول، دفتر فقط! إنه ليس دفترا عاديا، إنّ مستقبلي ومستقبلك فيه أليس كذلك؟ فقلت محاولا تهدئتها: نعم إنّ مستقبلنا حتمًا مسجل فيه إلا إذا أردت أن أتوقف عن كتابته. ساد الصمت لبعض اللحظات، ثمّ قالت في ارتباك: إذن كنت تعلم بوجودي لوحدي في المغارة؟ فقلت لها مبتسما: اسمعيني جيدا، ذلك الدفتر لم أكتشفه إلا منذ ثلاثة أسابيع فقط ولقد حاولت أن أقرأه لكنني لم أستطع، لقد فضّلت إعادته إلى الصندوق، فذلك أحسن لي ولك، فقالت مستغربة: إذن لم تقرأه؟ فقلت مؤكدا: سوى بعض الأسطر المتعلقة بالماضي والتي كنت قد دونتها من قبل في دفتري وذلك على سبيل المقارنة فقط، فقالت بحدّة: يستحسن أن نحرقه، فقلت بهدوء: لماذا، إنه موجود بداخل الصندوق ولا أحد منّا سيأخذه، فقالت حائرة: أتعدني بعدم الإطلاع عليه، فأنا أخاف أن يحدث لنا شيء، فقلت لها مطمئنا: لا تخافي، إنني تمكّنت من أن أعيش حياتي العادية من دون أن أعره أدنى اهتمام وهذا ما ستقومين به أليس كذلك؟ لاحظت أنها ما تزال شاردة، فقلت لها محاولا تغيير الموضوع: ما رأيك في أن أقص عليك بعض الحكايات التي لم تسمعها طوال حياتك، ستطلبين مني حتمًا المزيد، ثمّ نظرت إلى عينها الزرقاوين الجميلتين ولاحظت أنّ وجهها قد بدأ يستعيد بشاشته من جديد وبدأ ذلك الذهول يزول عنها.

أمضينا ليلتنا الأولى وأنا أحكي لها عن بروميثيوس وذكائه ثمّ كيفية موته، وأخبرتها بأنه كان يحبها كثيرًا، ولقد حدّثني عنها مرات عدة، فقد كان مشتاقا كثيرًا لرؤيتها، وكان دائمًا يلمّح لي عن جمالها حيث كان يقول لي بأنه

متأكد من أنها تحبني، كما ذكّرتها ببعض الأحداث التي وقعت لنا ونحن أطفال حيث ضحكنا كثيرًا، كانت جدّ متعبة، وكنت أعلم بأنّ قصة الدفتر وقصة الصندوق قد أثّرا عليها كثيرًا، لذلك آثرت أن ترتاح تلك الليلة عساها تنسى قليلاً هذه الأحداث الغريبة، فقمت بتقبيلها قائلا: يستحسن لك أن تنامي قليلاً، فأنت مرهقة أليس كذلك؟ فقالت مبتسمة: هذا صحيح، ثمّ عانقتني بدورها وقبّلتي بحرارة، ثمّ نامت مباشرة بجانبي، بينما أنا لم أغمض عيني طوال تلك الليلة حيث كنت أنظر إليها وهي نائمة، إنها رائعة فعلا.

***

لمّا استيقظت أفروديت في الصباح كنت لا أزال أتأمل في وجهها، فتحت عينيها ونظرت إليّ ودهشت لمّا رأتني مستيقظا، فقالت: ألم تنم الليلة؟ فقلت مبتسما: كلا، تعجّبت من الأمر وقالت: هل أمضيت الليلة على هذا الحال؟ فقلت: أجل، فقالت متعجبة: لماذا؟ نظرتُ جيدا إلى عينيها الزرقاوين، وإلى ثغرها الصغير والجميل بابتسامته الحلوة، فتنهدت، وقلت بصوت هادئ: لأنني أريد أن أتمتع بمشاهدة كلّ معالم وجهك وكل معالم جسدك، فابتسمت وقالت: إن كنت تريد أن ترى وجهي، فيستحسن أن أنزع هذه القبعة التي أرتديها، ثمّ قامت بخلعها لينسدل على وجهها ورقبتها شعر أصفر حريري رائع، لم أتمكّن من صدّ يدي عن ملامسته حيث كان ينساب بين أصابعي انسياب المياه الصافية التي تجعل الإنسان يحسّ بالدفء والراحة، كنت مندهشا للغاية، فقد ازداد جمال وجهها إلى درجة يخيّل لي أنها ليست إنسانا عاديا، كنت منبهرا إلى أقصى الدرجات، وانفلتت من فمي عبارة: أنت رائعة! حيث ابتسمت وقالت: عليّ بارتداء قبعتي وإلا فإنني سأصاب بالزكام، ثمّ تناولتها وارتدها، بينما قمت أنا بتسخين الماء، وإحضار بعض قطع اللحم التي تناولناها مع بعض، كنت أحسّ بأنّ تلك اللحظات لا تمثّل واقعا حقيقيا بل ما هي إلا حلم لذيذ لا أودّ الاستيقاظ منه، لكنها فعلا لحظات حقيقية! كانت أفروديت سعيدة جدا، فلم تفارق البسمة وجهها أبدًا، ارتسم في عيني بريق خاص إذ كنت ألتهمها بنظراتي، ثمّ قلت لها بصوت يوحي بانبهاري بها: أنت عظيمة جدا يا أفروديت، أعترف بأنك أحسن مني بكثير، فقاطعتني وهي تضحك: عن أيّ شيء تتحدث؟ كفاك مزاحا! فقلت لها بصوت جديّ: إنه ليس مزاحا بل ما أشعر به حقيقة، فأنت كرّست حياتك لخدمة أفراد قبيلتك، دون أن تهتمي بنفسك، وقد تمسكت بحبّك وإخلاصك لي طوال فترات حياتك الصعبة، بالإضافة إلى قلبك الواسع، فأنت الآن موجودة مع قاتل أبيك إلا أنك لا تعيرين لهذا الأمر أدنى اهتمام، إنك لست مثل الآخرين، بل لست مثلي، لقد كنت أظنّ بأنني إنسان ذو مبادئ، لديّ تصور خاص عن هذه الحياة، وهو التصور المنطقي

الأسلم والصحيح، وكنت أظنّ أنني الشخص الوحيد الذي يعي هدف وجود الإنسان على الأرض، والوحيد الذي يدرك معاناة هذه الطبيعة من أفعال الإنسان، الوحيد الذي لا يعترف لا بالتقاليد ولا بالعادات التي يخلقها الإنسان ويكبل بها نفسه ويخنق عن طريقها كلّ أحاسيسه لدرجة أنه أصبح مثل الصخور التي أمامنا، لا يتحدث بشيء إلا إذا فكّر في التأويلات التي قد يقدمها المجتمع إليه، ولا يقوم بشيء إلا إذا رأى استحسانا من طرف المجتمع، كان عليه أن يتجنب كلّ الأفكار والأعمال التي يمكن أن تجلب له أحكاما مسبقة من طرف المجتمع، كنت أظنّ أنني الوحيد الذي يعي هذا المنطق ويقف أمام هذه الأفكار البالية، الوحيد الذي لا يعير أدنى اهتمام بها، كان همّي الوحيد هو إسعاد الناس، وإسعاد نفسي، لقد كنت أفكّر أيضاً في نفسي، بينما أنت كنت تفكرين في سعادة غيرك، وفي سعادتي أنا، لقد رهنت سعادتك بسعادتي بينما أنا حقّقت جزء من سعادتي دون أن أفكّر في سعادتك! صحيح أنني كنت أفكر فيك دائمًا، كنت أحبك أكثر من رفيقاتي وأكثر من فينوس، لكنني لست مثلك، إنك عظيمة، لذا لا أعرف كيف يمكن لي أن أصلح ما قمت به.

كانت الدموع تتساقط من عيني وتبلل لحيتي السوداء الكثيفة، فقد كنت أشعر بالذنب لأنني حرمتها طوال تلك المدة من السعادة، أنا الإنسان الذي يحاول أن يحقق السعادة للجميع، والذي لا يؤذي أحدا، كنت أظنّ ذلك وكنت أحسب أنني لم أظلم أحدا طوال حياتي، وإذا بي أجد نفسي قد ظلمت أعز شخص لديّ، لقد حرمت شخصا من السعادة، إنه تصرف يتنافى مع كلّ القيم التي أحملها. لمّا نظرت إلى وجه أفروديت تلألأت أمامي قطرات الدموع التي كانت تتساقط على خديها الجميلين، فقلت لها بصوت هادئ ورقيق: إنني أترجاك أن تتوقفي، إذ لا أستطيع تحمل رؤية هذه الدموع الغالية تبلل وجهك الجميل، يكفيني ما قمت به في حقك، أنا أودّ أن أسعدك لا أن أبكيك، كفاك حزنا أرجوك، فقاطعتني وهي تبكي قائلة بصوت رائع: أنا لا أحمّلك أيّ ذنب، بل أنا المذنبة، لأنني لم أقم بفعل أيّ شيء للاقتراب منك، لا يجب أن تعذّب نفسك، أنسيت ما قلته لك في الأمس، دعنا نفكّر في الحاضر ولا يهمّنا لا الماضي

ولا المستقبل، فلم أجد ما أقوله لها سوى عبارة: أنت عظيمة! اقتربت منيّ أفروديت ومسحت دموعي بأناملها اللطيفة كما مسحت بدوري دموعها بنعومة، وكان وجهينا متقابلين، اقتربت منها أكثر ووضعت قبلة على شفتيها، لم أكن أريد أن أنفصل عنها، وحتى هي لم ترد الانفصال عنّي لقد دامت تلك القبلة مدة طويلة من الزمن أحسسنا فيها بطعم اللقاء من جديد، ثمّ انفصل جسد كل منّا عن الآخر في حركة رقيقة وهادئة استرجعنا فيها أنفاسنا، ثمّ قالت وفي عينيها بريق خاص: يستحسن أن نذهب إلى مغارتي لنحضر كلّ الأشياء التي نحتاج إليها، فمن الممكن للعواصف أن تعود من جديد، فقلت لها وأنا ما زلت في حقيقة الأمر لم أستعد أنفاسي بعد: معك الحق يستحسن أن نسرع. ارتدينا قفازاتنا وأحذيتنا بالإضافة إلى بعض الملابس الأخرى ، ثمّ خرجنا من المغارة واتجهنا إلى المغارة الأخرى.

كان وصولنا إليها سريعا، أخذت قطعتين من الحطب من على الزلاجة التي تركتها في المغارة، وقمت بإشعالهما ثمّ اتجهنا إلى موضع الزلاجات حيث أخذنا زلاجتين عبأناهما بما تبقى من مؤونة بينما تركنا بعض حزم الحطب في القاعة الكبيرة. قمت بجرّ الزلاجتين بينما جرّت أفروديت الزلاجة الثالثة، كانت طوال الطريق تقول لي: هذا كثير عليك، دعني أساعدك، فأنا أيضاً قوية. حاولت أن تنزع من يدي حبل إحدى الزلاجتين، لكنني منعتها قائلا بمزاح: شكرا، فأنا لست متعبا، وإن أردت أن أسحب أيضاً زلاجتك، فهذا أمر ممكن، فقالت وهي تبتسم: على شرط أن أجلس عليها، توقّفت عن السير ونظرت إليها ثمّ قلت ضاحكا: لكنك ثقيلة جدا، فقامت بضربي على كتفي وهي تقول معترضة: أيها الأحمق، أنا لا أزن شيئاً! إن هذه المعاطف التي ألبستني إيّاها أكثر مني وزنا. واصلنا الطريق وأنا أقول لها مصطنعا الجدّة: الحقيقة أنني لم أر جسدك بعد لأقول إن كنت ثقيلة أم لا! فأرسلت لي نظرة حادة وهي تقول متعجبة: إنني لم أعهدك هكذا، كنت أظنّ بأنك خجول جدا! فقلت لها وأنا أضحك: لقد علّمني بروميثيوس وأنا آخذ الآن بنصيحته.

لمّا دخلنا المغارة، قمت بإغلاق المنفذ، ووضعت المزيد من الحطب في النار، ثمّ قمنا بخلع بعض من ثيابنا وجلسنا أمام النار. بادرتني قائلة: هل قرأت كلّ الكتب الموجودة في الصندوق؟ فأجبتها بنعم، فقالت: إذن تعرف الكثير عن الأجيال السابقة، كيف كانوا يعيشون، وهل كانوا سعداء، فأجبتها قائلا وكأنني أستعيد تلك الأجواء في حسرة: لقد وهبت لهم الطبيعة كلّ شيء، فالطقس كان رائعا، والأشجار موجودة والحيوانات تعد بالملايين، لكنهم كانوا مولعين بتحطيم تلك الكنوز، لقد أبادوا الحيوانات والنباتات، كما تقاتلوا على أشياء تافهة، كانوا يتقاتلون مثلا لكونهم ليسوا من الجنس نفسه، فكل واحد يعتبر نفسه أعلى مرتبة من الآخر، كما كانوا يتقاتلون من أجل اللغة، والغريب في الأمر أنّ أيّة من تلك اللغات المستعملة آنذاك لم تتمكن من الصمود، كما أنهم تقاتلوا بسبب اختلاف الديانات، فقاطعتني قائلة: ألم يكونوا يؤمنون بدين واحد مثلما رواه لنا أجدادنا؟ فقلت: بل كانت كثيرة ومختلفة وتشترك في كونها تحمل كلّ القيم الفاضلة، لكنهم كانوا يستغلّونها ويوظفونها للقيام بالحروب، فارتكبوا مجازر رهيبة وأعمال شنيعة باسم الدين، إنهم كانوا السبب في الوضع الذي نحن عليه الآن، فقد انقرضت الغابات والحيوانات، وأصبحنا نعيش مثل تلك الحيوانات، بل أقلّ منها مرتبة لأنها كانت على الأقل تصطاد الحيوانات الحيّة، بينما نحن نكتفي بالبحث عن الجثث لأكلها. وكانوا يحبّون المال ويتنافسون على السلطة، فكانت القوة هي المسيطرة بينما تمّ تغييب الفكر والعقل، إنهم لم يفكروا أصلا في الأجيال التي ستأتي من بعدهم، فعوض أن يتركوا لهم ما يمكّنهم من العيش على هذه الأرض في أمان وسعادة، قاموا بإبادة كلّ شيء وكأنهم ينتقمون منا، لذلك، وعلى الرغم من حظنّا التعس في هذه الطبيعة، فأنا أحسّ بأننا أحسن منهم بكثير، صحيح أنّ بعض تلك العادات السيئة قد عشناها من جديد في مرحلة معينة، لكننا كنّا أكثر إنسانية منهم، لقد تمكّننا من تحقيق السعادة وبلوغها. لو أصوّر لك الحياة التي أمضيتها مع أصدقائي في هذه المغارة ستلاحظين حتمًا بأننا تمكننا على الأقل من تحقيق التلاؤم الذي يجب أن يكون بيننا وبين الطبيعة، صحيح أنها كانت لنا بالمرصاد إلا أنّ ما قام

به الإنسان ضدها لا يظهر أمام ما تقوم به الآن، والدليل هو أنها سمحت لنا باللقاء من جديد، وتحقيق السعادة، إنني أتصور الأيام التي قضيتها لوحدي في هذه المغارة، لم أكن أتوقع أنني سأجدك يوما أمامي، لذلك أنا أشكر هذه الطبيعة على حمايتها لك وإتاحتها الفرصة لأن نلتقي ونسعد من جديد .

كانت أفروديت تصغي إليّ باهتمام وتستمع إلى كلّ كلمة أتلفظ بها، ولمّا توقفت قالت وعلامات الأسف بادية على محياها: معك الحق يستحسن نسيان الماضي لقد كان أبي يشبه أفراد تلك الأجيال، لكن يجب أن نهتم الآن بحاضرنا، ثمّ ابتسمت ونظرت إليّ ثمّ اقتربت منيّ ووضعت قبلة على شفتي بعدها استلقت على ظهرها، فاستلقيت بدوري بجانبها وقمت أقبّل فمها وخديها وعنقها، بحيث لم أترك منطقة من رأسها لم تعبر شفتي عليه، ثمّ قمنا ولأول مرة بممارسة الحب، كان شيئاً رائعا، لقد مارسته معي بطريقة توحي بأنها تملك تجربة في ذلك، لكنها كانت عذراء، أمضينا الليل بأكمله نمارس الحب لمرات عدة، لم نشعر أبدا بالعياء، كنت بين الحين والآخر أحضّر بعض قطع اللحم التي نلتهمها بسرعة لتلتقي أجسامنا من جديد وتجتمع ببعضها البعض، لقد كان هناك انسجام وتلاؤم بين أجسامنا وأرواحنا، امتزجت مشاعرنا وأحاسيسنا فتمكننا من أن نكون جسدا واحدا. كانت تلك الليلة بحق أمتع ليلة عشتها على وجه الأرض، تمنيت في إحدى اللحظات أن نموت معا وبسرعة، لكنني غيّرت من رأيي فأنا أريد أن أستمتع بكل اللحظات المتبقية من حياتي على الرغم من قصرها.

***

كنا منهكي القوى في الصباح حيث آثرنا النوم إلى غاية منتصف النهار، قمنا بعدها بتناول بعض اللحم، ثمّ عرضت على أفروديت التنزه قليلاً في الخارج، فوافقت مباشرة على عرضي حيث لبسنا معاطفنا وخرجنا من المغارة، كان الطقس رائعا، أحطتها بذراعي كما أحاطتني هي بذراعها وبدأنا نسير على الثلج، تساءلت عن الوجهة التي سنتخذها، فقلت لها باسما: الثلج هو نفسه، والمناظر هي نفسها، فلنمشي حتى نتعب لنعود بعدها إلى المغارة، فابتسمت وقالت: إذن سأسبقك إلى تلك الصخرة، وبدأت تعدو نحوها، حاولت أن ألحق بها إلا أنها وصلت إليها قبلي قائلة وهي تلهث: لقد هزمتك، فأجبتها وأنا أضحك: أعترف أنك خفيفة جدا، إنني أسحب الكلام الذي قلته لك بالأمس، فأخذت تضحك بدورها ثمّ عانقتني وقبّلتني وهي ترقص أمامي، كانت تودّ أن تطير فرحا، لقد أحسّت أخيرًا بالسعادة، كان ذلك شيئاً عظيما بالنسبة لي، إذ أنني أريد أن تكون كلّ اللحظات التي تقضيها معي متميزة، بدأت تعدو من جديد وأنا أعدو خلفها سقطت على الثلج وارتميت عليها حيث تدحرجنا لمرات عدة ونحن نطلق الضحكات، كنت مستلقيا على ظهري لمّا جلست عليّ وأمسكت ذراعي قائلة: والآن، أنت في قبضتي! فقلت لها وأنا أنظر إلى عينيها الصافيتين: لقد كنت منذ صباي في قبضتك!، فأخذت تضحك ثمّ دنت رأسها مني وقبّلتني، لا أستطيع أن أصف السعادة التي كنت فيها، بل لم أتصور أبدًا في حياتي أن أحسّ بمثل تلك الدرجة من السعادة، كدت أن أبكي في تلك اللحظات، لأنني أردت أن أوقف الوقت وأعيده إلى الماضي حتى ننعم لوقت أكثر بلحظاتنا، لكنني أحجمت عن ذلك حيث أسقطتها بدوري أرضا وأمسكتها من ذراعيها قائلا: الآن أنت في قبضتي، فخرجت الكلمات من شفتيها الرقيقتين بانسياب رائع قائلة: أنا راضية بذلك! ثمّ قمت بوضع قبلة طويلة على ثغرها الجميل، وساعدتها بعد ذلك على النهوض حيث عدنا إلى المغارة، أين أمضينا ليلتنا كاملة في ممارسة الحب.

في صبيحة اليوم التالي بدأت العواصف تهب من جديد، لقد نسينا أمرها، لكن البرد كان شديدا جدا، صنعت بجميع الجلود الموجودة بالمغارة خيمة تتسع لشخصين كانت بجانب النار حيث افترشنا أرضيتها بالجلود الناعمة، ودخلنا إليها، كانت دافئة نوعاً ما، ثمّ قلت لها: انتظري قليلاً، فذهبت إلى الصندوق حيث فتحته وبحثت عن كتاب ألف ليلة وليلة، ولمّا وجدته عدت به إلى الخيمة قائلا: سأروي لك بعض الحكايات وما عليك إلا أن تبدي رأيك فيها، كنت أقرأ لنفسي أولا بداية القصة وعندما أتذكرها أغلق الكتاب لأبدأ الحكي، ولمّا أتممت القصة الأولى قصة شهرزاد وشهريار توقفت عن الحديث، فطلبت مني أفروديت وبإلحاح مواصلة الحكي، لكنني قلت لها مازحا: على شرط! فقالت وهي تضحك: أنا أقبل جميع شروطك مهما كانت! فقلت: إذن كلّ قصة بقبلة، فما رأيك؟ فقالت بابتهاج: أنا موافقة حيث ارتمت عليّ وطبعت قبلة حارة على شفتي، ثمّ واصلت الحكي، كنت ألاحظ انبهارها من جهة، ومسايرتها للأحداث من جهة أخرى، فقد كانت تعايش الأحداث وكأنها حقيقة، حيث تذكرت نفسي لمّا كنت في مثل حالتها عندما اطلعت عليها لأول مرة، كما تذكرت أيضاً فينوس المسكينة، والطريقة الرائعة التي كانت تسرد بها تلك القصص، فسقطت بعض القطرات على وجهي من دون أن تلاحظها أفروديت.

توقّفت في الليل عن الحكي، حيث أمضينا ليلتنا مثل سابقتها، وبعد استيقاظنا في منتصف النهار قامت بتحليق لحيتي، ثمّ تمعّنت في وجهي وابتسمت في ابتهاج قائلة: هكذا كنت أراك في مخيّلتي !حيث طبعت قبلة على خدي ثمّ طلبت منيّ أن أواصل لها الحكي، فقلت لها مازحا: ألم تتعبي منها بعد؟ إنها حكايات خرافية لا فائدة منها، فقالت وهي تحاول أن توحي بأنها حازمة في كلامها: إن لم تواصل، فإنني سأقتلك، فقلت بنبرة تحمل كلّ معاني الخضوع والطاعة: حسنا أنا رهن أوامر مولاتي، فانفجرت ضحكا حيث قالت: انتظر سأحضر قليلاً من الأكل.

نظرت إلى المقياس لمعرفة درجة الحرارة ووجدت أنها تجاوزت -30°، كان البرد شديدا إلا أننا لم نعد نحسّ به. لم تتوقف العواصف طوال الليل، لكننا لم نعرها أدنى اهتمام، كنّا نعتبر العالم مكوّنا فقط من المغارة، لم أعد أنظر إليها على أنها قفص سجنت فيه لمدة أعوام، بل هي بمثابة ملجأ يحمينا من أخطار الطبيعة. لقد غيّر وجود أفروديت معي الكثير من الأمور، وأصبحت أرى كلّ شيء جميل، فعجيب هذا الأمر، فأنا متواجد في المكان نفسه الذي سكنت فيه في السابق لمّا كنت لوحدي، وكنت أتمنى فيه الموت، بل حاولت مرة الانتحار، وأردت مغادرته بأي شكل! والآن، وتحت الظروف نفسها مع وجود شخص إضافي، أصبحت أحسّ بسعادة لا نظير لها، لقد كنتُ على حق عندما قلت بأنّ الإنسان يمكن له أن يحقق السعادة متى أرادها ومهما كانت الظروف، إذ يكفيه فقط أن يعرف معناها ليحسّ بها، لقد كنت أمقت هذه المغارة، وكنت لا أودّ العودة إليها، وأنا الآن ممتن لها بالجميل، لقد حمتني طوال تلك السنين التي مضت إلى أن اجتمعت بأفروديت.

بعد تناولنا الأكل، واصلت قصّ الحكايات عليها من دون أن أنسى القبلات التي تتبع نهاية كلّ قصة، ثمّ توقفت فجأة حيث غمرني إحساس غريب، إذ قلت في نفسي: إنّ الإنسان عادة ما يبحث عن السعادة في خياله، وأحيانا يلجأ إلى الأمور العجيبة والغريبة لكي يحقق سعادته، لقد كنت مثلها عندما قرأت لأول مرة هذه القصص، لكنها الآن لم تحدث فيّ أدنى شيء، كنت معجبا في السابق بالقصور وطبيعة العيش وما شابه تلك الأمور، لكن وجودي الآن مع أفروديت أعتبره أحسن بكثير من كلّ الأمور التي كانت تلك القصص تتحدث عنها، تذكّرت مسرحية روميو وجولييت وفكرت في وضعي مع أفروديت إنه يشبه كثيرًا وضعهما وأعلم بأنّ نهايتنا ستكون حتمًا مأساوية مماثلة لنهايتهما مع بعض الفروق الطفيفة، لكنّ قصتنا حقيقية وما أزال أعايشها، لذلك أحسّ بهذه السعادة الفائقة. أيقظتني أفروديت من تفكيري، حيث قالت بابتسام: فيم أنت سارح؟ لا تقل في شهرزاد وإلا فإنني سأقضي عليك، فأنا انتظرتك كثيرًا، ولن أسمح لهذه المرأة ولو كانت غير حقيقية في أن تخطف

عقلك، فقلت لها وأنا أبتسم: بل على العكس تماما يا حبيبتي، لقد كنت سارحا في جمالك الخلاب، الذي لا يضاهيه أيّ جمال. كانت سعيدة جدا بهذه الكلمات حيث عانقتني بشدة لدرجة أنها كادت تخنق أنفاسي، ثمّ أطلقتني قائلة وقد أشرقت عينيها: إنني أنتظر! فقلت لها وأنا حائر: ماذا؟ فقالت: أن تواصل الحكي أيها الغبي!.

***

أمضينا أربعة أشهر كاملة ونحن نعيش تقريبا اللحظات نفسها من دون أن نملّ منها أبدًا بل كنّا دائمًا نطلب المزيد، فكنا نمارس الحب في كلّ الأوقات، كان يكفي لأحد منّا أن يعبّر عن رغبته في ذلك إلا ونجد جسدينا يلتحمان مع بعض في حرارة مشبّعة بالنشوة. لقد قرأت عليها أغلب الروايات الموجودة في الصندوق كما حكيت لها عن طبيعة الحياة وتاريخ البشرية والديانات والأساطير، وذات مرة كنّا نتناقش حول محتوى تلك الكتب، حتى قدّمت لي فكرة لم تخطر ببالي من قبل، حيث قالت: إنّ تلك الأساطير تتحدث عن أول إنسان تواجد على الأرض وهو آدم وحواء، ونحن الآن نمثل آخر فرع يسكن على سطحها وهي حقيقة وليس خيالا، فقلت لها متعجبا: معك الحق، وكأن البشرية انتشرت طوال هذه القرون الماضية لتعود من جديد وتلتقي في شخصين. سكتتُ برهة ثمّ استطردتُ قائلا: أتلاحظين بأننا الآن نحن أصحاب هذه الأرض؟ فقالت بتعجب: صحيح، الأرض بأكملها هي لنا، يا له من موقف غريب! فقلت بحسرة: كانت الأمم والبلدان تتطاحن وتتقاتل من أجل رقع صغيرة عليها، والآن نحن الاثنين نملك الكرة الأرضية بأكملها، فما الفائدة منها؟ إنّ هذه المغارة الضيقة والباردة تكفينا لأن نعيش سعداء، إنّ أجدادنا لا يملكون القناعة، إنهم لا يعرفون كيفية تحقيق السعادة، لأنهم لو كانوا كذلك لما قاموا بتلك الحروب، ولما سفكت كلّ تلك الدماء!.

***

بدأنا أخيرا نشعر بالبرد ولم نعد قادرين على تحمّله مثل السابق، فدرجة الحرارة بداخل القاعة قد تجاوزت -44°. لم تكن للنار أدنى تأثير على القاعة إذ لم تتمكّن من رفع حرارتها، وكانت أصوات العواصف الثلجية رهيبا حيث أحسسنا وكأن المغارة بأكملها تهتزّ، لم يُظهر أحد منّا للآخر خوفه أو قلقه، كنّا نعلم بحلول ذلك الوقت، لذلك لم نأبه للأمر، شعرنا فقط بالحزن لأننا لم نتمكّن من الاستمتاع أكثر مع بعض، قلت لها يوما ونحن معا داخل الخيمة وتحت الأغطية حيث كان البرد يتسرّب بعنف إلينا: أفروديت، هل فكّرت يوما في الأطفال؟ فقالت متعجبة: ماذا تقصد؟ فقلت: هل أنت آسفة لعدم تمكّنك من الحمل؟ بمعنى هل أنت تتأسفين لأنك من هذا الجيل؟ فقالت بحسرة: الحقيقة أنني فكرت في هذا الأمر لماً كنّا أطفالا، حيث سمعتهم يتحدثون عنه، كنت آنذاك سعيدة لأنني أُعدّ من بين آخر الأطفال إن لم أكن الأخيرة، فالجميع كان مهتما بنا، أتتذكر ذلك؟ فقلت لها وأنا أسترجع تلك الأيام في ذهني: نعم، فتابعت كلامها: لكنني بعد ذلك بسنين لاحظت أنّ أفراد قبيلتنا ينقصون الواحد تلو الآخر، عندئذ أدركت أهميّة الأطفال، صحيح أنني لو كنت أعيش في غير هذا العصر لكنت أردت أن يكون لديّ ابن أو بنت أراها تكبر أمامي وأجعلها تحقّق كلّ ما لم أتمكّن من تحقيقه في حياتي، لكن الآن، وفي هذا الوقت بالذات .. ثمّ سكتت لحظة واستأنفت كلامها قائلة: إنني سعيدة لعدم الإنجاب لأنني لا أريد أن يتعذب ولدي ويعيش هذه المأساة التي نعيشها. فقلت لها وأنا ألامس وجهها بيدي: معك الحق، فمن المستحيل أن يتمكّن الطفل من الحياة في مثل هذه الظروف، لو لم تكن الطبيعة متسامحة معنا، لكنّا الآن نعيش في جحيم لرؤية أطفالنا يتعذبون. وسألتها مرّة: ما رأيك في الأجيال السابقة، فقالت وعلامات الغضب بادية على وجهها: إنهم أغبياء، فقلت مبتسما: وكيف ذلك؟ فقالت بحنق: أتتذكر الأشياء التي ذكرتها لي والتي يتقاتلون من أجلها؟ تلك الأمور كلها لم تكن في الحقيقة حججا للتقاتل، ففي نظري يمكن للإنسان أن يقتل غيره في حالة واحدة، عندما لا يجد ما يأكله، أي أنه يعمل المستحيل من

أجل البقاء حيا على الأرض، ففي تلك الحالة يكون الإنسان مجبرا على ذلك مثلما نحن عليه الآن، فإننا مثلا نتناول جثث الحيوانات، لكننا لو كنّا في جيل غير جيلنا وكانت موارد الغذاء الأخرى متوفرة مثل النباتات لكنّا نتناول هذه الأخيرة فقط، لأن الحيوانات تملك هي الأخرى أرواحا مثلنا، إنني لا أفهم كيف يمكن للإنسان أن يقتلها ويتناول لحمها وهو في الأصل يستطيع أن يعيش من موارد أخرى غير اللحم؟ فقلت لها: وإذا قلت لك بأنهم كانوا يقتلونها لأشياء أخرى! فقالت باستغراب: كيف ذلك؟ فقلت: إنهم يقتلونها للتسلية! فقالت: عجبا! أوصلت بهم الوقاحة إلى تلك الدرجة؟ فقلت بل أكثر من ذلك، الحقيقة لو خيّرت بين العيش معك ومع أفراد قبيلتي وبين العيش معهم في جيلهم لاخترت العيش في هذا العصر، إنهم وحوش بأتم معنى الكلمة، فقالت متعجبة: وتمكّنوا فوق ذلك من امتلاك العلم والمعرفة، فقاطعتها قائلا: والتي حطمتهم بدورها وجعلتهم تابعين للطبيعة بدل أن يعيشوا فيها في وئام، لقد أبادوا أنفسهم وأبادوا معهم الطبيعة. تنهدت أفروديت للحظة ثمّ دنت منيّ أكثر وعانقتني وهي تقول: لقد تخلصت الطبيعة منهم، فقلت مبتسما: معك الحق، لقد انتقمت أخيرًا منهم ومنا جميعا.

***

مضى على العواصف أكثر من ثمانية أشهر لم نميّز فيها بين الليل والنهار، كنّا نتحرك قليلاً في المغارة ونقضي أغلب أوقاتنا مستلقيين داخل الخيمة، لم تكن لديّ الجرأة لرؤية المقياس، فأنا أعلم بأننا قد وصلنا إلى درجة لا أظنّ فيها تحسّنا لأحوال الطقس، لم أتحدث مع أفروديت طوال ذلك الوقت كله عن مصيرنا إلى أن جاء اليوم الذي فاتحتني فيه حيث نظرت إليّ جيدا وقالت: أظنّ أنها النهاية، فقلت محاولا التقليل من الخطر المحدق بنا: كلّ شيء ممكن، فالطقس يمكن أن ينقلب ويعود الصفاء من جديد، لقد أمضينا أكثر من تسعة أشهر في السابق تحت طائلة العواصف ثمّ انقشعت وعاد الصفاء من جديد، لكنها قاطعتني قائلة وكأنها تدرك الوضع جيدا: لكن البرودة لم تصل إلى هذه الدرجة أليس كذلك؟ إنك كنت تملك ذلك الشيء الذي يقيس، هل بلغت البرودة هذه الدرجة؟ فقلت وقد أدركت عدم جدوى الكذب خصوصا في تلك اللحظات: داخل المغارة، أبدًا، فقالت: أرأيت! ثمّ قاطعتها محاولا تغيير الموضوع: إنك تعلمين السبب في كلّ هذا؟ فقالت: الشمس، ربما تكون الآن قد انتهت، لكنني قلت لها بصوت واثق: لا أظنّ ذلك، إنها فقط توشك على الانتهاء، هل تودّين أن تعلمي ماذا سيحدث بعد ذلك؟ فصاحت وهي مذعورة: أتستطيع أن تعرف ذلك؟ لا تقل بأنك اطلعت على الدفتر؟ فقلت لها بابتسام: هدئي من روعك، لقد أخبرتك في السابق أنني قد أحكمت غلق الصندوق جيدا ومثلما وجدته في المرة الأولى، لكنني أستطيع التكهن علميا بذلك، فقالت متعجبة: ومن أين لك هذا العلم؟ فقلت وأنا أضحك: من الكتب طبعا! اسمعي جيدا: ستتوقف الشمس أو تفقد جاذبيتها عندئذ سيحل الظلام، وستخرج الأرض عن مدارها الذي تدور فيه الآن، ثمّ هناك عدة احتمالات إذ من الممكن أن تصطدم بكوكب آخر وتنفجر فتاتا إن كان ذلك الكوكب أكبر منها حجما، أو أن تنقسم إلى أطراف إن كان أقل حجما منها، والاحتمال الآخر هو أن تدخل في مدار جديد لشمس جديدة وبالتالي يمكن للحياة أن تعود بها من جديد، فقاطعتني وكأنها حالمة: وهل سيعود الإنسان ليسكنها؟ فقلت لها وأنا أمزح: من

الممكن ذلك لكن بعد ملايين السنين إن توفرت الظروف الملائمة، لكن يمكن أن يسكنها أجناس مختلفة عنا تشبه الوحوش التي شاهدتها في الكتب، فأخذت تضحك قائلة: إنك تمزح ، أليس كذلك؟ فاتخذت صورة الإنسان الصارم حيث قلت: كلا، إنها أمور علمية، فمثلا يمكن لأناس من كواكب أخرى أن تسكنها، فقالت وهي متعجبة: أهذا صحيح؟ فبدأت أضحك وأقول إنني أمزح معك فقط، فأخرجت يدها من تحت الأغطية حيث ضربتني على رأسي قائلة: إنك تستهزئ بي لأنني لست متعلمة! فقلت لها وأنا أواصل الضحك: وهل تظنّين بأنني متعلم؟ أين هي المدرسة التي دخلتها؟ فقالت متصنّعة الجد: لقد تعلمت من الكتب! فقلت لها مبتسما: هل تصدقين كلّ ما هو موجود في الكتب؟ إنها مجرد فرضيات من وضع أناس لا أكثر، إنّ الطبيعة لم تفصح أبدًا عن أسرارها، فهي تحتفظ بالعديد من الأشياء التي لو اكتشفها الإنسان لما أحدث فيها هذا الخراب والدمار.

***

بدأنا نشعر بصعوبة كبيرة في التنفس، فالبرودة لم تنقص على الإطلاق. تجد أفروديت صعوبة كبيرة في تحريك أطرافها، إذ مضى أكثر من أسبوع لم تقم من فراشها، كنت أقوم بكل شيء من أجلها، وكانت في كلّ مرة تشكرني وتعتذر عن الإزعاج الذي تحدثه لي، بينما أنهرها عن ذلك قائلا: لا تقولي أبدًا ذلك، فمهما أخدمك طوال حياتي، فإنني لن أستطيع أن أعوّض لك الأيام التي أضعتِها من أجلي. إنني أحسّ بأنها تتألم من الداخل لكنها لم تعبّر أبدًا عن ذلك بل كانت صابرة، نظرت يوما إلى قدميها، فإذا بهما منتفختين كثيرًا، فأسرعت بتدفئتهما قائلا برقة وحسرة: لِمَ لم تقولي يا أفروديت بأنك تتألمين في رجليك، فقالت بصوت يحمل كلّ معاني اليأس: لأنني لا أحسّ بهما! فقلت بارتباك: ماذا تقولين؟ سأعتني بهما إلى غاية شفائهما، فقالت محاولة أن ترسم ابتسامة على وجهها الشاحب: لا تجهد نفسك، فأنا أعلم بأنها النهاية، فقاطعتها ناهرا: لا تقولي أبدًا هذا الكلام، إنني لا أودّ أن أسمعه منك، لا يجب أن تستسلمي، لدينا كلا من الحطب والمؤونة وسنعيش إلى غاية نفاذها، بل سنحاول أن نذهب ونأتي بالمزيد من الخارج أتسمعين؟ فقالت بصوت هادئ: يجب أن تكون قنوعاً، إنني قضيت أجمل أيامي معك، فهذه الأشهر تمثل بالنسبة لي الحياة بأكملها، إنني لم أولد إلا في اللحظة التي التقيتك فيها من جديد، فقلت لها محاولا إخفاء حزني: إذن ما تزالين صغيرة وستعيشين أكثر، فأرسلت بصعوبة ضحكة صغيرة، ثمّ قالت وكأنها غاضبة عليّ: أنا أتحدث معك بجدّ وأنت تمزح! فقلت لها والألم يعصرني: سوف تشفين وستعودين مثلما كنت عليه في السابق وسوف ترتفع درجات الحرارة وسنقوم بنزهة في الخارج على هاتين الرجلين الجميلتين ثمّ قمت بتقبيلهما وواصلت حديثي وأنا ألامس بشرة وجهها الناعمة: وسنمضي لياليا الآتية كسابقاتها، أتتذكرينها؟ فقالت مبتسمة: وهل تظنّ بأنني سأنساها؟.

قمت بدلك رجلها بالدهون وتضميدها بقطع القماش ثمّ غطيتهما بالأغطية قائلا: إن كان هناك أيّ مكان يؤلمك فعليك أن تخبريني به أتسمعين؟ فقالت مبتسمة: سمعا وطاعة يا مولاي! ثمّ غيّرت من صوتي لأتحدث بلغة الملوك قائلا: شهرزاد، إنني أريد قبلة! فقالت أفروديت بصوت خافت: اقترب يا مولاي وخذها فهي لك. عانقتها ولم أطلقها أبدًا حيث أخذنا نستعيد كلّ الأمور التي حدثت لنا، كنّا لا نود أن ننام على الإطلاق، فالبرد سيقضي علينا حتمًا لذلك بقينا ساهرين، كان يستريح أحدنا لبعض من الوقت ثمّ يوقظه الآخر وهكذا، فلا نشعر لا بالتعب ولا بالنعاس، كانت فكرتها هي. نظرت إلى عينها وخاطبتها قائلا: لقد سبق وأن قلت لك بأنك عظيمة يا أفروديت، وسأزيد فوق ذلك وأقول بأنك أذكى مني، فقالت وهي تضحك: كفاك مزاحا، ثمّ قلت لها برجاء: هل ترغبين في شيء ما؟ فقالت بجدّ: هل تريد أن أكون صريحا معك؟ فقلت متعجبا: طبعا، فقالت بخجل: إنني أراك أحيانا تكتب على دفترك، فهل أستطيع أن أطّلع عليه؟ إنني أريد أن تحكي لي ما كتبته، فهل هذا ممكن؟ فقلت لها بحرج: ولكن .. فقاطعتني قائلة بابتسام: أنا على علم بأنك قد كتبت عن رفيقاتك وحبّك لهن أليس كذلك؟ ثمّ تابعت: إنني لن أغير، بل سأكون سعيدة جدا لأنك حققت السعادة لهن. فقلت متعجبا: كما تريدين، ثمّ أخذت الدفتر ورويت لها كلّ شيء، ثمّ قلت في نفسي لمّا انتهيت من استعراض جميع مراحل عمري: معك الحق يا صديقي لقد وجدت أخيرًا لمن أقرأ عليه مذكراتي، إنني سعيد بذلك، على الأقل اطلع عليها أحد غيري!.

كانت أفروديت سعيدة جدا بما كنت أسرده عليها إذ تذكّرت كلّ الأشخاص الذين كانت تعرفهم لمّا كنّا أطفالا، وكلّما أتحدث عن موت أحدهم إلا وأرى الدموع تتساقط من عينها، لم أستطع أن أطيق ذلك حيث كنت أبكي أنا أيضاً، لكننا لمّا وصلنا إلى سرد لقائي معها كانت تضحك لدرجة أنه خيل لي بأنها قد استعادت عافيتها من جديد. وعندما انتهيت من سرد ما في الدفتر قالت لي منبهرة: بل أنت العظيم، لقد ضحكت وبكيت لما كتبته، فشكرا لك، فتعجبت وقلت لها: لِمَ تشكرينني؟ فقالت برقة: لأنك من جهة كتبته لأقرأه أنا

لأنني الإنسان الوحيد المتواجد في هذا العالم معك، ومن جهة أخرى لأنني لمست معاناتك من فراقي، فأنت تحبني بالدرجة نفسها التي أحبك، وكنتَ مشتاقا إليّ مثلما كنت مشتاقة إليك، فشكرا على كلّ شيء.

***

لمّا أيقظتني أفروديت كنت قد غفوت مدة من الزمن، فقلت لها: هل تودّين شيئاً ، لكنها قالت محاولة إخفاء ألمها: كلا بل أريدك فقط أن تكون معي في لحظاتي الأخيرة، فقلت لها بارتباك: ما هذا الكلام، دعك من هذه الأفكار، فقاطعتني قائلة بجدّ: أرجوك كفى! فأنا أدرى بمعاناتي، إنني أحسّ بالبرودة تصعد إلى صدري ولا أظنّ أنني سأبقى حيّة لمدة أطول، أحسست بأنها متأكدة من كلامها، فقلت لها بصوت رقيق والدموع تنهمر من عيني: هل تودّين أن أقوم بشيء ما، هل تريدين أن أفعل شيئاً من أجلك؟ فقالت برقّتها المعهودة: كلا، شكرا لك، إنني أريد فقط أن أسمع صوتك. لم أتمكّن من الحديث لأنّ الدموع قد حاصرتني، حاولت بكامل طاقتي أن أوقفها وأتظاهر بالشجاعة أمامها لكنني لم أتمكّن من ذلك، فقالت بصوت هادئ: أنا أعلم بأنك تبكي، لا تخف فأنا صابرة، إنّ رحيلي كان متوقعا منذ ولادتي، فلا تهتم، اقترب مني لأرى جيدا ملامح وجهك، فاقتربت منها وقمت بوضعها على حجري قائلا: ألا تؤلمك هذه الوضعية؟ فقالت مبتسمة: كلا. فقمت بتقبيل جبينها وخديها وشفتيها، كانت متكئة على ذراعي الأيسر، نظرت إلى عينيّ ثمّ قالت: أودّ أن أقول لك شيئاً، ثمّ سكتت قليلاً حتى استرجعت أنفاسها ثمّ تابعت حديثها: يجب أن تتمتع بكل لحظة من اللحظات المتبقية في حياتك أتسمع، لقد كان هذا شعارك ويجب أن تلتزم به، عدني بأنك ستعمل المستحيل للبقاء حيًّا حتى آخر لحظة فيها، عدني بذلك، إن كنت تحبني حقا فعدني بذلك، كانت الدموع التي تنهمر من عيني أقوى بكثير من الكلمات التي تلفظتها، حيث قلت لها بصوت يحمل كلّ معاني الألم الموجودة في العالم: نعم يا حبيبتي سأنفّذ طلبك، فابتسمت قائلة: وداعا يا حبيبي، وأغمضت عينيها للأبد.

***

مضى أكثر من شهرين على موت أفروديت. لم أتمكّن من دفنها في الخارج بل وضعتها في قاعة الصندوق، حيث وضعت عليها الجليد والثلوج. إنني لا أستطيع التحرك إلا بصعوبة كبيرة، أظنّ أنه قد حان أيضاً وقت رحيلي، إنني متسرع الآن إلى مغادرة هذا العالم لأنني أرى أنه لا جدوى الآن من التشبث بالحياة، في الحقيقة كنت قد فكرت في الرحيل مع أفروديت قبل موتها، لكنها كانت ذكية، فقد علمت حتمًا بما يدور في خلدي لذلك لم تمت إلا بعدما تأكّدت من عدم إقبالي على الانتحار بعدها، إنني الآن كئيب، وحزين وفوق ذلك مريض، فهل هذه هي الظروف التي أستطيع العيش فيها؟ أنا الذي اعتدت على الحركة والنشاط أجد نفسي الآن كالشيخ الهرم الذي ينتظر وقت مغادرته النهائية، لقد تمكّنت من تحقيق كلّ ما كنت أريده في هذه الحياة وهذا أمر عظيم. كانت الأحداث دائمًا تتغير بالنسبة لي، حيث أنني كلّما شعرت بالحزن إلا والسعادة تأتيني من حيث لا أنتظرها، لقد حاولت مرارا أن أتكهن بجميع الفرضيات التي يمكن أن تقع لي إلا أنني دائمًا أخطئ فيها، ونادرا ما أحقّق هدفي المتمثل في السعادة وفق الطريقة المسطر لها، لذلك أرى أنّ الإنسان كان عليه أن يستثمر فقط اللحظات التي يعيشها ويحوّلها إلى لحظات سعيدة، ولا داعي لأن يجهد نفسه، فالحياة تحمل من المفاجآت الكثير والكثير.

إنني الآن أملك العالم لوحدي، لم يخطر لأيّ واحد مهما كان الجيل الذي عاش فيه أن يصل إلى ما وصلت إليه الآن، أنا سيد العالم، لكنني لا أشعر بأيّ تغيّر، لأنني وببساطة لا أملك في الحقيقة إلا جسدي، وعندما أموت أفقده بالضرورة، لذلك أجدني مستغربا من الذين يفرحون عند اكتسابهم لشيء ما وكأنه أبدي، إنني آخر إنسان على الأرض، ومن بعدي ستكون نهاية الجنس البشري بأكمله، من الممكن أن يحدث شيء ما في المستقبل كأن تعود الحياة من جديد إلى الأرض، فأتمنى أن يجد هؤلاء الصندوق وأن يعوا ما به، إنني مرتاح كثيرًا لعدم وجود ضرورة من وضع هذا الدفتر في الصندوق لأن ذلك

يشكل لي صعوبة كبيرة، فأنا لا أستطيع تحريك رجلاي، بل لا أحسّ بهما على الإطلاق.

إنني بدأت أحسّ بالبرودة التي تحدّثت عنها أفروديت قد وصلت إلى صدري، وهذا يعني أنه لم يتبق لي من الوقت الكثير، لكنني سأتابع كتابة مذكراتي إلى آخر لحظة، إنني أفكر الآن في الشخصين الذين وجدتهما في المغارتين أثناء رحلتي إلى الجبل الكبير، أظنّ أنني وصلت إلى مرحلتهما أخيرًا، لقد تمكّنت من دفن أصدقائي جميعا ولن أجد من يدفنني، لكن لماذا أدفن، وما الفائدة من ذلك، فأنا لن أضرّ أحدا لأنني آخر إنسان، معها الحق أفروديت عندما تنعتني بالغبي!.

أنا لا أحسّ بيدي اليسرى، لا أعرف ماذا أقول .. أنا لست خائفا من الموت بل أحسّ بالسعادة، وهذا شيء عظيم، لطالما انتظرت هذه اللحظات، حيث فكرت كثيرًا في الأمور التي ستخطر ببالي في لحظاتي الأخيرة، لكنني الآن لا أفكر في شيء! أشعر بنوع من الراحة على الرغم من الألم الذي أحسّ به في رأسي، الحياة والموت شيئين متلازمين، فكما نحبّ الحياة يجب أيضاً أن نحبّ الموت هذا هو مصيرنا ... لكن ما هذا الضوء المنبعث من أمام باب المغارة؟ إنه ضوء أبيض رائع لا أستطيع النظر فيه، إنني أشعر من خلاله بالدفء، إنّ رجلي تتحركان، سأذهب لأستطلع الأمر وسأعود...

****

من بين الأمور التي لم يجد لها العقل البشري تفسيرا منطقيا مسألتي الحياة والموت، لماذا يعيش الإنسان ولماذا يموت؟ فالعلم لم يصل بعد إلاّ لجوانب طفيفة من هذا اللغز المحيّر، آلاف الأجيال مرّت على سطح الأرض ثمّ اندثرت حاملة وراءها أسرارها، كلّ فرد منهم إلا وله حكايته الخاصة، فالحياة دفتر يفتح مع الولادة ويغلق بعد الموت.

أحيانا يتمكّن جيل من هذه الأجيال في ترك بصماته على هذه الأرض حتى تبقى شاهدا للأجيال التي تأتي بعده، ممّا يسمح برؤية الإسهامات التي قام بها، والتي تختلف باختلاف العصور والأزمان والأماكن، فأهرامات مصر، ومائة تمثال في جزيرة باك بالشيلي، أو تماثيل الجنود التي صنعها شي هيونغدي أول إمبراطور لـ "كي " بالصين ومؤسس سور الصين العظيم، أو موقع ستون هينغ بانكلترا، ومعبد شيشان اتزا بالمكسيك، كلها تمثل مسحات فنية قدمتها الأجيال السابقة كصور تذكّرنا بوجودهم كأناس، كحضارات، كقادة، كعظماء ... وأحيانا يتمكّن الشخص بمفرده أن يترك لنا أثرا، أو آثارا تعبّر عن تموقعه في فترة زمنية خاصة على هذه الأرض، فتمثال المفكر لرودان، أو لوحة الموناليزا لليوناردو دي فانشي، أو غرنيكا لبيكاسو كلها تعبّر عن رغبة الإنسان في عدم الفناء، رغبة الإنسان في أن تظلّ تحفته باقية للأجيال، إنه يعلم بمجيء اليوم الذي ستتوقف فيه حياته لذلك أراد أن يستمر فيها عن طريق الأعمال الفنية التي يتركها.

من هذا المنطلق لاحظت أنّ العديد من الحضارات تركت لنا جزء من تاريخها، فآثرت أن أترك بدوري للأجيال المقبلة صورة عن كلّ ما توصّل إليه الإنسان عبر الحقب التاريخية التي مرّ بها ابتداء من العصر الحجري إلى غاية العصر الذي نعيش فيه، ورأيت أنّ الكتب قد لخّصت كلّ ما حقّقه من إنجازات طوال تلك القرون واستطاعت احتواء جملة النشاط الإنساني في محاولته تحسين ظروف إقامته على الأرض.

لكن الإشكالية التي كانت مطروحة بالنسبة إليّ تتمثل من جهة في كيفية وضع هذه الكتب في مكان لا تصل إليه أيادي هذا الجيل، ومن جهة أخرى كيف يمكن للكتب أن تحتفظ بهيئتها مع مرور الزمن. أوصلتني الأبحاث التي قمت بها إلى أنّ الهواء هو الذي يعمل على تعفّن المواد، وبالتالي فإن وضع الأشياء بمعزل عنه سيسمح بإطالة عمرها. وقد أدّت هذه النتيجة إلى التفكير في وضع مخطط لصندوق يمكن تفريغه من الهواء، على أن تكون مادته من الحديد السميك المقاوم للصدأ.

بعد وضع كلّ التفاصيل المتعلقة بالصندوق، أخذتُ المخطط إلى حداد الحي وهو شاب في مقتبل العمر مفتول العضلات لكنه في الحقيقة لا يحتاج إليها كثيرًا في عمله، نظرا لتوفره على كلّ الوسائل الحديثة الموظّفة في الحدادة، وأعترف أنّ ذكاءه الحاد لا يوجد عند الحدادين الآخرين، إذ يملك خيالا واسعا يجعل سبائك الحديد تتحول بين يديه إلى تحف فنّية خلابة.

عندما عرضت عليه الأمر نظر إليّ بعينين تحملان كلّ أنواع الدهشة والغرابة قائلا: إنها المرة الأولى التي يُطلب منيّ صنع مثل هذا الشيء، وإلى جانب ذلك، فأنا لم أسمع به من قبل! ليس من عادتي أن أكون فضوليا، لكن هل يمكن لك أن توضح لي الأمور أكثر حتى أقدّم لك على الأقل وجهة نظري، أو أن أقدّم لك بعض الآراء التي تسمح لهذا الصندوق بأن يؤدي الوظيفة التي تنتظرها منه على أحسن وجه؟، فقلت له بارتباك وأنا أحاول تغيير مجرى الحديث: قل لي فقط، هل تستطيع صنعه أم لا؟ فأنا قصدتك أنت لأنك صديقي وأنا أعلم بمهارتك الفائقة ودقتك في العمل، إنّ المخطط بين يديك، فما رأيك؟ فقال مازحا: لولا معرفتي بك، لقلتُ أنك قد قمت بجريمة، وتودّ أن تخبأ فيه الجثة، ولكنني أعرف أفكارك العبثية وتصرفاتك التي لا يفهمها إلا أمثالك، لكن هل تعرف بأنّ هذا الصندوق سيكون ثقيلا جدا؟. فعلا إنّ هذا الأمر لم يتبادر إلى ذهني، خاصة وأنني لم أحدد بعد الموقع الذي أخبئه فيه،

لكنني قلت له متصنعا اللامبالاة: لا تفكر في هذا الأمر، اصنع لي الصندوق وفق المخطط الذي بين يديك، وأنا سأتكفل بالباقي.

وضعت قائمة لكل الكتب التي أنوي وضعها داخل الصندوق، وفضّلت أن تكون متنوعة: موسوعات مختصة بالتاريخ والجغرافيا والنباتات والحيوانات، كتاب الاختراعات، وكتاب غينيس للأرقام القياسية، بالإضافة إلى بعض الكتب الفلسفية كمقدمة ابن خلدون وبعض الروايات والمسرحيات التي أعجبت بها كدون كيشوت لسرفانتس وفاوست لغوته، البؤساء لفكتور هيغو، العجوز والبحر لهمنغواي، الأم لماكسيم غوركي، روبنسون كروزوي لدانيال دوفووي، الآمال الكبرى لشارل ديكنز، مائة عام من العزلة لغابريال غارسيا ماركيز، نجمة لكاتب ياسين روميو وجوليت لشكسبير، والكتب الدينية كالقرآن والإنجيل والتوراة وإنجيل بوذا. ثمّ تبادرت إلى ذهني فكرة مفادها أنه بإمكان الشخص الذي سيعثر على الصندوق في المستقبل ألا يكون على علم باللغة التي كتبت بها تلك الكتب، لذلك ضمّنت قائمتي بعض كتب النحو والصرف والبلاغة والمعاجم والقواميس.

في أحد أيام الربيع المشرقة كنت كعادتي أقوم بجولة في جبال «أذرار» المتواجد قرب مدينة «آث»، كان الجو رائعا، اعتدت أن أسلك الطريق نفسه في كلّ النزهات التي قمت بها في السابق، لكن في تلك الصبيحة غيّرت من عادتي واتخذت مسلكا آخر، كان كثير الارتفاعات والانحدارات، تذكرت فيما بعد أنني حاولت مرة إتباع ذلك المسلك لكن الصعوبات التي اعترضتني آنذاك قد حالت دون تحقيق رغبتي خصوصا وأنّ الطريق كان موحلا. قرّرت إذن إتباعه على الرغم من صعوبته ومخاطره، إنه مسلك لم يعتد الناس المرور منه، لذلك كانت سعادتي تضاهي سعادة المغامرين والمستكشفين، غمرني إحساس غريب وكأن شيئاً ما سيحدث. واصلت المشي طوال الصباح حيث ابتعدت كثيرًا عن المدينة، وأنا على علم بأنّ المدن الأخرى تبعد عن مدينة «آث» بمئات الكيلومترات، لذلك فمهما واصلت طريقي، فإنني لن أصل إلى نهاية الغابة. لم

أصادف أيّ إنسان طيلة الصبيحة، فقلت في نفسي: هذا الموقع رائع! سيصلح حتمًا كمخبئ للصندوق الذي سميته: صندوق تاريخ البشرية، لم يتبق لي سوى البحث عن المكان بدقة. عرّجت عن مسلكي قليلاً لأنني رأيت منحدرا كبيرا نوعاً ما ولمّا وصلت إليه وجدته ينتهي بوهدة، نزلت إليها بصعوبة وحذر، فأيّ تعثر سيؤدي بالضرورة إلى كارثة بالنسبة لي، فلا أحد يعرف بتواجدي في تلك المنطقة. ازددت حيطة وحذرا من كلّ الخطوات التي أضعها على الأرض وأخذت تحوم بخاطري بعض الأفكار التي جعلتني أشعر بالخوف، إذ من الممكن أن تكون الوهدة مكانا مفضلا للحشرات والزواحف السامة التي تعلم بأنّ كلّ من سيغامر في منطقتها لن يخرج منها سالما. كدت أعود أدراجي لولا رؤيتي بأنّ كلّ ما يربكني سيكون عاملا إيجابيا للهدف الذي كنت أسمو إليه، ألا وهو وضع الصندوق في مكان لا يصله لا الجيل القادم ولا الذي يليه - على الأقل -. مشيت أزيد من ثلاث ساعات داخل تلك الوهدة حيث كانت على يميني الغابة التي جئت منها وعلى يساري جبل لا يتوقف وأن يتعالى تبعا لتقدمي في السير، وفجأة لاحظت شيئاً أسود وراء أشجار الصنوبر والصبار التي كانت تكسو الجبل. تمعّنت فيه جيدا واتضح لي أنه يحمل فتحة في جوفه. صعدت إليها ودقات قلبي تتسارع وكأنني عثرت على كنز عظيم. لمّا وصلت إليها بعد جهد مضني وجدت أنّ تلك الفتحة صغيرة لا تتسع لاحتواء الصندوق. أوشك الليل على الحلول، فشعرت بالكآبة لأنني لم أصل بعد إلى هدفي المنشود، ثمّ أطلقت ساقي للريح حتى أتمكّن من العودة إلى البيت قبل حلول الظلام، وإلا سأكون لقمة سائغة لمختلف الوحوش التي تسكن الغابة.

شغلت بالي تلك الفتحة الصغيرة التي وجدتها بالجبل، فبدأت أخاطب نفسي قائلا: بما أنه توجد تلك الفتحة، فمن الممكن جدا أن تكون هناك فتحات أخرى، فما عليّ إلا البحث عنها جيدا، لقد أخطأت في الأول عندما نزلت إلى تلك الوهدة إذ كان من المفروض مراقبة الجبل من الغابة دون النزول إلى الأسفل، لذلك قرّرت أن أعود إلى المكان نفسه الذي توقفت فيه لأستمر في البحث عن مغارة لصندوقي الذي لم ينته منه الحداد بعد، والذي قال لي في

إحدى المرات ساخرا: كان يكفيك أن تشتري صندوقا من تلك الصناديق المجهزة لوضع المال والمجوهرات، سيكون أقل عناء علينا معا.

في اليوم الموالي للاكتشاف الذي قمت به، خرجت باكرا واتجهت مباشرة إلى الموقع الذي توقفت فيه، كانت الصبيحة لم تنته بعد عندما وصلت إلى المكان الذي يقابل الفتحة الصغيرة في الجبل، بدأت السير بحثا عن فتحة أخرى. كنت أمشي بمحاذاة الوهدة التي كانت عميقة جدا، لاحت لي فتحة أخرى في مكان غير بعيد عن الأولى، نزلت بسرعة إلى أسفل المنحدر ثمّ صعدت بالسرعة نفسها إلى الفتحة التي وجدتها أكبر من الأولى إلا أنها لا تصلح للغرض لكونها غير عميقة فهي لا تتجاوز المترين، عندئذ قرّرت مواصلة البحث حيث نزلت إلى الوهدة وصعدت مجددا إلى الغابة وواصلت السير وعيناي معلقتان بالجبل. كرّرت العملية نفسها لأكثر من أربع مرات، حيث وجدت فتحات أخرى لكنها كانت جميعا لا تصلح لأن تكون مخبئا لصندوقي، وبدأت قواي العضلية تنهار بانهيار قواي الفكرية وأخذ اليأس يتملّكني وكدت أفقد الأمل في العثور على ضالتي. لاحت لي من بعيد فتحة أخرى كانت أعلى من سابقاتها، لكن الوصول إليها سيكون أمرا شاقا، فأخذت أتساءل: هل سأتجه إليها أم لا؟ كنت أعرف بأنني لو أصعد إليها وأجدها غير صالحة للغرض لن أعود مطلقا إلى هذا الجبل اللعين، لذلك آثرت أن أترك أمر استكشافها ليوم آخر، حيث عدت أدراجي إلى البيت.

ناداني الحداد في إحدى الأمسيات قائلا: متى ستأتي لتحمل صندوقك؟ وواصل كلامه بنبرات ضاحكة: إن كنت لا تريده، فإنني سأربي فيه بعض الأرانب. فقلت له: شكرا جزيلا، لكن هل أستطيع أن أتقدم إليك بطلب آخر؟ رفع حاجبيه حائرا وقال: هل تودّ صندوقا ثانيا؟ فقلت له متودّدا: كلا، ولكنني أريد أن تصنع لي عجلات حتى أتمكّن من جذبه ونقله، فقال في شيء من الضيق: إذن لن أتخلص من ذلك الصندوق؟ وكيف تريد أن تكون عجلاته؟ فابتسمت وقلت له: أنظر! لقد حضرت مخططا لها. وأخرجت من جيبي ورقة

قائلا: أريدها أن تكون على هذا النحو، هل ستتمكّن من صنعها بسرعة؟ نظر إليّ الحداد وكأنه غير راض على الطلب الجديد الذي قدّمته له، لكنه ابتسم وقال بلهجة حازمة: سأصنعها لك حتى يخرج من محلي، لكن أنت تعرف ما أنتظره منك؟ فقلت له مبتسما: لا تخف ستشرب حتى الثمالة.

عادت من جديد فكرة الفتحة التي رأيتها في آخر رحلة لي إلى الغابة فقرّرت أن أذهب إليها مجدّدا لاستكشافها. كان يوما حارا، فأشعة الشمس تلهب الجبين، وصلت إلى ذلك المكان بسرعة، واتجهت مباشرة صوبها، وعندما دنوت منها اتضح لي أنها عريضة. دخلت إليها ووجدت أنها واسعة نوعاً ما، كنت أحبّذ أن تكون أكثر عمقا في الجبل، كان ارتفاعها نحو المترين وعرضها يتجاوز الأربعة أمتار، لاحظت في الجدار المقابل للفتحة ثقبا، فاتجهت إليه ونظرت منه، كان كلّ شيء مظلم بحيث لا يظهر أدنى خيال فيه عندئذ صرخت بداخله، فإذا بصوتي يتردد بقوة. أحسست أنني قد عثرت أخيرًا على ضالتي، فما أحتاج إليه هو إحضار الأدوات اللازمة لفتح ذلك الجدار والدخول إلى الجهة الثانية التي كنت أتمنى في أعماقي أن تكون قاعة واسعة .

كان عليّ أن لا ألفت انتباه أحد، فرؤيتهم لي وأنا أتردد إلى الغابة لا يثير ارتيابهم، فأنا معتاد على التنزه فيها، لكن أن أحمل معي أدوات خاصة، فهذا سيحملهم على الاعتقاد بأنني وجدت كنزا وسيقتفون آثاري، لذلك اخترت أن أحمل في الأول الأدوات الصغيرة كالمطرقة والمنقار، وإن استلزم الأمر الفأس أو أدوات أكثر حجما وثقلا، فإنني سوف أبحث في كيفية إحضارها لاحقا. وفي اليوم التالي، قبل بزوغ الشمس أخذت معي حقيبتي الظهرية التي كنت معتادا على وضع الماء وبعض الأكل فيها، وأدرجت بين ثناياها الأدوات التي حضّرتها، واتجهت مباشرة إلى المغارة وأنا أنظر يمينا وشمالا آخذا حيطتي من عدم وجود أيّ شخص في طريقي، لكن الأمور مرّت على أحسن ما يرام .

لمّا وصلت إلى داخل المغارة، أخرجت من حقيبتي المطرقة والمنقار وبدأت أطرق على الحائط العازل بين الفتحتين. استمر عملي يوما كاملا لم أتمكّن فيه

إلا من فتح نحو ثلاثين سنتيمترا فقط. كنت في كلّ مرة ألقي نظرة إلى الخارج لأرى إن كان هناك من سمع صوت الطرق الذي أحدثه، لكن المكان كان خاليا تماما من المتطفلين والفضوليين. بادرتني في بعض الأحيان رغبة الكف عن هذا العمل، فلماذا أجهد نفسي بالقيام بشيء لن أرى نتيجته! فمن الممكن ألا يصلح ذلك الصندوق للغرض المرجو منه، ومن الممكن ألا يجده أيّ شخص، لا من هذا الجيل ولا من الأجيال المقبلة، كما يمكن أن يعثر عليه البعض لكنهم سيقومون بتحطيمه وحرق محتوياته لأنه لن يشكّل في نظرهم أدنى فائدة، فإنسان هذا الجيل - ومن الممكن الأجيال المقبلة كلّها- لا تهمهم سوى المادة كالذهب والفضة والمال بينما العلم والثقافة تعتبر من الأمور الثانوية التي لا يمكن لها أن تشبع بطونهم. ثمّ أستيقظ من أفكاري على صوت غريب يجعلني أتوقف عن الحفر لأنظر من جديد إلى خارج المغارة علّني أشاهد شخصا يراقبني لكن المكان ظلّ خاليا. قرّرت أن أحمل في اليوم الموالي الفأس لكن من دون أن أضع له يدا حيث سأصنعها له في الغابة من أحد أغصان الأشجار، وكان ذلك أمرا سهلا بالنسبة لي، فالأعمال اليدوية أجد فيها متعة لا نظير لها، إذ تمكّنني من القيام بما يفعله المتخصصون في أيّ مجال وكان ذلك يجعلني أشعر بالحرية وعدم الارتباط بهم. تمكّنت إذن في اليوم الموالي من صنع يد لفأسي ثمّ صعدت إلى المغارة وبدأت عملية الحفر، وعلى الرغم من صعوبتها إلا أنها كانت أسهل من استعمال المطرقة والمنقار. استطعت توسيع الفتحة التي قمت بها في السابق بالمقدار الذي كنت أستطيع عن طريقها المرور. أخذت المصباح من الحقيبة وتسللت إلى الداخل حيث وجدت نفسي في قاعة أكبر وأوسع من الأولى.

كان ذلك اكتشافا عظيما بالنسبة لي، حيث تملّكني شعور بالسعادة نادرا ما أحسست به، لم يكن بسبب كون الحجرة صالحة لوضع الصندوق، بل لأنني أول إنسان على هذه الأرض يدخل إلى ذلك المكان. تبادر إلى ذهني في تلك الآونة ما شعر به نيل ألدن أرمسترونغ. نظرت إلى أطراف تلك القاعة ووجدت بها فتحات أخرى صغيرة من الممكن أن تؤدي إلى قاعات أخرى، لكنني لم أكن مهتما بها، فتلك الحجرة تفي بالغرض المطلوب. ازدادت عزيمتي، وبدأت في

عملية توسيع الفتحة حتى يتمكّن الصندوق من الدخول إليها وانتهيت من تلك العملية في أواخر النهار حيث عدت مباشرة إلى بيتي أين أمضيت الليل وأنا أفكر في الخطة التي أتمكّن بها من نقل الصندوق إلى تلك المغارة، ووجدت أنه بالإمكان ربطه إلى حصان أو حمار لجره وإيصاله إلى غاية الوهدة، لكن كيف يمكن لي إنزاله إلى المنحدر ثمّ رفعه إلى تلك المغارة وهو بذلك الثقل؟ تبادرت إلى ذهني جملة من الطرق ومن بينها أن أشد الصندوق إلى بالون كبير ممتلئ بالهليوم الذي يقوم برفعه عن الأرض ولا يتبقى لي سوى قيادته إلى الفتحة. لكن أين لي بالهليوم أو بالبالون؟ ففضلت استعمال طريقة المصاعد، إذ أنّ الأسلاك الحديدية والبكرات ستسمح لي بنقل الصندوق من الغابة إلى المغارة من دون أن يمرّ بالوهدة، وكان عليّ فقط أن أفكر في الطريقة التي أربط بها الأسلاك في الغابة من جهة وفي المغارة من جهة أخرى، ثمّ كيفية وضع البكرات لتقسيم القوى حتى لا أبذل جهدا كبيرا أثناء عملية السحب، فمستوى المغارة كان عاليا نوعاً ما عن مستوى الغابة.

وضعت المخططات اللازمة لتلك العملية، ثمّ فكرت في أمر الحصان، لم أكن أعرف بوجود أيّ حصان في مدينتي بينما أعرف صديقا لي يسكن بجوار الغابة ويملك عدة حيوانات في حظيرته ومن بينها حمارا بنيا يمكن أن يصلح للغرض، فقصدته مباشرة حيث طلبت منه استعارة حماره. استغرب صديقي من الطلب وقال بلهجة فيها نوع من المزاح: هل تودّ أن تحرث به أرضك أم أنك تريد أن تتخيل نفسك من رعاة البقر؟ فقلت له: لقد أصبت، أريد امتطاءه للقيام بنزهة في الغابة حتى أرى إن كنت سأشتري حمارا لأتنزه عليه أم لا!. كنت أعلم أنه لن يأخذ كلامي محمل الجد، لكنه لم يكن من الفضوليين، فالمهم عنده أن يعود إليه حماره سالما في آخر النهار.

ذهبت بالحمار إلى الحداد، وقمت بربط الصندوق بعد إخفائه بقطع من القماش ثمّ اتجهت به صوب الغابة، كنت أعلم ما تحمله تلك العملية من خطورة على مشروعي، لأنني سأثير انتباه العامة والفضوليين، فهم لم يتعودوا

على رؤيتي مع حمار، وسيزداد فضولهم أكثر بتواجد الصندوق معنا لذلك كنت في كلّ مرة أتوقف وأمعن النظر إن كان هناك من يتتبع خطاي. ولتفادي إشكالية الآثار التي تتركها عجلات الصندوق، آثرت قبل أن أعرج إلى طريقي الخاص إتباع الطريق الآخر لأكثر من كيلومترين، لأعود أدراجي على نفس الآثار التي تركها الصندوق إلى غاية المكان الذي يجب أن أعرج منه. عندئذ قمت بمسح كلّ الآثار التي تظهر دوران الحمار والصندوق، واتبعت العملية نفسها ، أي مسح الآثار التي نتركها إلى غاية المكان المطلّ على المغارة.

استغرقت عملية نقل الصندوق يوما كاملا كنت مجهد القوى، بينما لم تظهر على الحمار أيّة علامة من علامات التعب. خبأت الصندوق بين الأشجار وأقفلت عائدا على ظهره.

في اليوم الموالي اشتريت الكوابل الحديدية السميكة، والبكرات القوية الكبيرة، بالإضافة إلى بعض القطع الحديدية التي سأستخدمها لتثبيت البكرات على جدار المغارة، اضطررت من جديد استعارة الحمار لنقل الكوابل والأدوات الأخرى، كنت شديد الحرص على مراقبة كلّ المحيط الذي أتواجد فيه، فقرب نهاية العملية تفرض عليّ أخذ حيطة أكبر، وإلا ضاع كلّ شيء.

استمرت عملية تثبيت الأسلاك والبكرات أكثر من أسبوع، كانت عملية صعبة، إذ من الواجب عليّ ألا أخطأ فيها، وإلا فإن الصندوق سيجد نفسه في الهاوية ولن أستطيع جره إلى الأعلى، خصوصا وأنه كلفني المال الكثير والعناء الكبير للوصول إلى ذلك الوضع. ثمّ جاء اليوم المنشود، كنت فيه على أعصابي. أعدت دراسة كلّ المخططات والعمليات الحسابية لأتأكد من سلامتها، ثمّ ربطت الصندوق جيدا بالكابل، بعدها نزلت إلى أسفل المنحدر وتسلقت الجبل إلى غاية المغارة وبدأت عملية السحب شيئاً فشيئاً، كنت أنظر تارة إلى الشجرة التي ربطت بها طرف الحبل إن كانت قادرة على تحمل ثقله وأنظر تارة أخرى إلى قطع الحديد المثبتة على الجدار إن كانت تقاوم بدورها ثقل الصندوق. سار كلّ شيء وفق الخطة المسطرة له، فالحبل المعدني والشجرة والبكرات والمثبتات

الحديدية كلها تتحمل العبء المفروض عليها وكان الصندوق يقترب من فتحة المغارة كالنسر الكاسر الفاتح لجناحيه وكلما اقترب، كلّما ازدادت مهابته وعلا شأنه إلى أن تمكّن من النزول على أرضية المغارة بصورة رائعة خيل لي أنها طائرة تمكّنت من الهبوط على مدرجها بسلام، ولم يتبق لي سوى دفعه إلى داخل الحجرة ثمّ وضع الكتب التي هيّأتُها له في المنزل. لم تكن عملية دفع الصندوق داخل المغارة بالأمر الهيّن لأنّ سطحها لم يكن مستويا، فعانيت الأمرّين حتى تمكّنت من إدخاله إلى المكان المخصص له، وكان الليل قد حلّ عليّ.

آثرت البقاء وإمضاء الليلة بالمغارة على أن أخاطر بنفسي في تلك الغابة الموحشة، وفي الصباح قمت بنزع الكوابل والبكرات والمثبتات من حائط المغارة ومن جذع الشجرة حيث سحبتها إلى مكان بعيد عنها ثمّ رميتها في الوهدة وعدت إلى البيت فرحا غير آبه بالتعب الذي أنهك جسدي.

قمت بجمع الكتب داخل أربع حقائب كبيرة، وعدت مجددا لاستعارة الحمار مؤكّدا لصديقي بأنها المرة الأخيرة. حمّلته الحقائب واتجهت مسرعا إلى المغارة وأنا أنظر ورائي، فالحيطة كانت واجبة، ولمّا وصلت إليها ندمت على نزعي للكوابل إذ كانت تصلح لنقل الحقائب الثقيلة إلى المغارة، فما كان لي إلا حمل جزء من الكتب أنزل بها الوهدة وأصعد بها إلى المغارة مكررا العملية تسع مرات. لم أنته من إدخال الكتب إليها إلا وقواي قد انهارت تماما، ثمّ عدت بعد ذلك على ظهر الحمار إلى البيت.

وفي الليل خطرت ببالي فكرة مفادها أنه بإمكاني إضافة بعض الأشياء داخل الصندوق مثل رسالة أشرح فيها أسباب وضع الكتب مركّزا على دورها كشاهد على العصور الماضية، بالإضافة إلى دفتر وأقلام رصاص، حتى يتمكّن الذي يجد الصندوق من كتابة ملاحظات أو تعاليق حول ما وجده في الصندوق ولِمَ لا وصف الحياة التي يعيشها، ونظرت في أطراف غرفتي ثمّ قرّرت أن أضيف إليه المنظار والخنجر ومقياس درجة الحرارة والولاعات الخمس

المتواجدة على مكتبي، فمن الممكن أن تصبح تلك الأشياء قطعا أثرية في المستقبل، وبذلك يحنّ قلب الذي يجد الصندوق ولن يقوم بتحطيمه أو حرق محتوياته.

في اليوم التالي اتجهت إلى المغارة حاملاً معي تلك الأشياء، حيث قمت بوضع الكتب والدفتر داخل الصندوق مع الأشياء الأخرى، ووضعت الرسالة فوقها، ثمّ أحكمت غلق الصندوق، وبدأت تفريغه من الهواء عن طريق إدارة الذراع المخصص لهذا الغرض، لم أتوقف من التدوير إلا بعدما صعبت عليّ العملية، وهو دليل على تمام فراغ الصندوق من الهواء، لقد استدعى تفريغه عملا دام أكثر من أربع ساعات، كلّ هذا من أجل البشرية!.

قرّرت العودة في اليوم الموالي لغلق فتحة الجدار، حيث حملت على ظهري الإسمنت، وبعض أدوات البناء حتى لا أستعير من جديد حمار صديقي، بينما كانت الحجارة متوفرة بالقدر الكافي في تلك الوهدة. عندما انتهيت من تلك المهمة التي لم تستغرق طويلا، عدت إلى البيت واستلقيت على فراشي وأنا أحسّ بالراحة، وكأنّ عبئا ثقيلا قد أزيل عنّي، أحسست أنني قد قمت بعمل كبير من أجل الإنسانية، ولم أكن أنتظر من ورائه أيّ مقابل، إذ أنّ كلّ ما قمت به قد تمّ دون علم أحد، وحتى الرسالة التي ضمّنتها في الصندوق لم تحمل سوى تاريخ ذلك اليوم بتوقيع: "صديق"، فأنا لا تهمني لا الشهرة ولا المال، وأبحث فقط عن الشيء الذي يُسهم في معرفة الإنسان لنفسه ولجذوره ولمعرفة ماهية حياته، كلّ له هدف معيّن في هذه الحياة، وأنا ربما يكون هدفي هو تمكين الأجيال المقبلة من تعريفهم بماضيهم .

اتّكأت مجددا على السرير وأنا في قمة النشوة، وفجأة تذكّرت عدم وضعي لكتاب ألف ليلة وليلة في الصندوق! كيف نسيت إدراج ذلك الكتاب العظيم بين تلك الكتب؟ عادت إليّ الوساوس من جديد ورأيت أنني لن أنعم بالهناء إلا إذا أضفت ذلك الكتاب إلى الصندوق وما يحمله ذلك العمل من متاعب: فتح الحائط المبني إدخال الهواء ثمّ تفريغه من جديد، حمل الأدوات

والإسمنت وإعادة البناء.عندما تترسخ في ذهني فكرة إزاء نقص ما، فإنني أعمل المستحيل مهما كانت المشقة التي تقف وراءه حتى يتمّ لي تعديله وتقويمه وإلا فإنني لن أنعم بالهناء، فالمهم أنّ ذلك الشيء سيصبح موافقا مع النظرة المثالية التي أقدّمها له، فأنا لا أكترث بالصعوبات.

في الصبيحة أخذت معي نسخة من ألف ليلة وليلة، وحملت مجددا على ظهري الإسمنت وأدوات البناء متجها إلى المغارة. لم يكن فتح الحائط الذي بنيته بالأمر الصعب، فالإسمنت لم يجف بعد، قمت بإدخال الهواء إلى الصندوق عن طريق قفل صمّمته خصيصا لذلك الغرض، ثمّ فتحت بابه لوضع الكتاب، فكانت المفاجأة! إذ لاحظت أنّ الأشياء التي وضعتها بالداخل قد تغيرت مواضعها، حيث وجدت الدفتر الموضوع على اليمين بمحاذاة أقلام الرصاص قد أصبح على الجهة اليسرى من الصندوق. كنت متأكدا من المكان الذي خصّصته له، فمن الذي حرّكه إلى الجهة الأخرى؟ أيمكن لحركة خروج الهواء أن تقوم بذلك؟ أخذت الدفتر لأضعه من جديد في مكانه الأصلي لكنني لاحظت بأنه بالٍ نوعاً ما، فتصفحته متعجبا وإذا بي أجده ممتلئا! كلّ صفحاته مكتوبة بخط أسود!، فماذا يفعل هنا؟ تبادرت إلى ذهني صورة مفادها أنّ هناك من علم بأمر الصندوق، ولربما هو الآن ينظر إلى هذه المغارة ويقهقه بملء فاهه. لذلك قفزت إلى خارج المغارة ولا أعرف الطريقة التي نزلت بها من ذلك الجبل ولا كيفية صعودي إلى الغابة لأجد نفسي أجري يمينا وشمالا علّني أعثر على ذلك الشخص الشقي الذي نغّص حلمي، لكنني لم أجد أحدا!.

عدت أدراجي إلى المغارة، وأخذت الدفتر القديم ثمّ أغلقت الصندوق، وعدت إلى المنزل من دون أن أبني الحائط، لم تكن لديّ لا القوة ولا الرغبة للقيام بذلك، فالاحتياطات التي قمت بها لم تنفع. كنت أحسّ بالإحباط لأنني فشلت في إنجاز عمل بالغ الأهميّة وفوق ذلك من أجل البشرية جمعاء! أخذت أحاور نفسي قائلا: ماذا سأفعل بهذا الدفتر؟ يستحسن عليّ أن أحرقه! فالذي كتبه سيظنّ بأنني سأقرأه، لذلك لن أقرأه، إنه يريد أن يتسلى بي باختياره

لنفس نموذج الدفتر الذي وضعته. ثمّ تبادرت إلى ذهني فكرة أخرى: ربما لم يكن يقصد أن أقرأه أنا بل كان يريد أن يُقرأ مع الكتب الأخرى من طرف شخص من الأجيال المقبلة، فهو لم يكن يهدف من وراء عمله أن يتسلى ويضحك عليّ، لأنه لا يعلم على الإطلاق بأنني سأعود وأفتح من جديد باب المغارة. لهذا السبب عدلت عن رأيي الأول قائلا: بما أنه يودّ أن يُدخل إبداعه بين الكتب المهمة، فإنني سأقرأ ما كتبه !.

بدأت تصفح الدفتر وأنا أقول: إنها عبارة عن مذكرات، شيء جميل. ثمّ واصلت قراءة الدفتر، لكن عوض أن أضحك من الأسلوب أو الأفكار المتضمنة فيه بدأت يداي ترتعشان، وبدأت نبضات قلبي تتسارع والعرق يسيل من جبيني ثمّ أصبح كلّ جسدي يرتعد، لقد كان أمرا مهولا! أيعقل لي أن أصدّق ما تضمّنه من أحداث؟ لم أتمكّن من التوقف عن القراءة، على الرغم من كلّ ما أحدثه بي حيث ظللت مسمرا به إلى أن فرغت منه.

أظنّ أنني قد أصبت بالحمى بعد إتمامي من قراءته، فالعرق لم يتوقف عن السيلان على جبيني، وجسمي لم يهدأ من ارتعاده. فكّرت جليا في الأمر: ماذا سأفعل؟ ثمّ قلت: يستحسن لي ألا أؤمن بما جاء فيه، ذلك أحسن لي! فأنا إنسان أؤمن بالعلم، وكل ما هو علمي أؤمن به، وكل ما يخرج عنه أضعه جانبا، وهذا أمر غير معقول، إذن لن أؤمن به! ... لكن عادت من جديد تفاصيل عملية فتح باب المغارة وفتح الصندوق، كنت متأكدا من أنّ الحائط الذي بنيته قد وجدته على نفس الهيئة التي تركته فيه، كما أنني لم أجد مطلقا أيّ أثر مخالف لآثاري! فأنا كنت معتادا على تصفح كلّ شيء لطبعي الذي يجعلني أحتاط من كلّ شيء! وحسمت أمري في الأخير بعرض الدفتر على مختص في الآثار عساه سيفيدني بتجربته ويزيل عنّي الوساوس التي انتابتني. لم أنم طوال تلك الليلة، فمختلف الأفكار والهواجس كانت تحوم في ذهني: ماذا لو كان ما ورد في الدفتر حقيقيا؟ لكنني لا ألبث وأن أرفض هذه الفكرة قائلا: لا ... أنا أؤمن بالعلم والعلم فقط !.

لم تبزغ الشمس بعد عندما أخذت سيارتي واتجهت مباشرة إلى العاصمة، وبالضبط إلى معهد الآثار، فأنا أعرف زميلا زاول معي الدراسة في الثانوية وجعل تخصصه الآثار والآن يشتغل هناك بالمعهد، لم أتعرف عليه بل هو الذي ناداني من بعيد. بعد أن تبادلنا التحية لم أتمالك نفسي وقلت له مباشرة: أصغ إليّ باهتمام، أنا جئتك لأمر هام وخطير بالنسبة إليّ ولن يساعدني غيرك، لذلك استمع إليّ جيدا، فأنا أريد منك أن تجري فحصا على دفتر وجدته، لكي تحدّد لي تاريخ صنعه. فقال مبتسما: ناولني الدفتر لأراه، فأنا أعلم أنك تحب المغامرات، فلربما تحصلت على نسخة نادرة بخط أحد عظماء هذا الكون ... فقاطعته قائلا: كفاك مزاحا من فضلك، فأنا شديد التوتر، أرجوك قم بما طلبته منك، فقال بلهجة جدّية: أرى فعلا أنك متوتر، ناولني الدفتر. ثمّ تفحصه ونظر إليّ مندهشا: هذا الدفتر مصنوع في هذه الفترة فالشركة التي طبعته لا تزال موجودة، ثمّ أردف قائلا باستغراب: أأنت تمزح معي أم ماذا؟ فقلت له بصوت يحمل كلّ معاني الجدّ: أنا أعلم هذا الأمر، وهذا ما أثار ريبتي، ألا ترى أنه قديم جدا؟ هل يمكن في فترة وجيزة أن يتحول إلى هذه الحالة؟ فقال مندهشا: إن ما تقوله صحيح، سأجري عليه تحاليل الكاربون 14 ربما ستتضح الأمور أكثر.

وبعد قيامه بتحاليله رجع إليّ حائرا وهو يقول: أقول لك صراحة إنها المرة الأولى التي تخطئ فيها التحاليل، فلقد قمت بأكثر من سبع تجارب عليه وكلها تشير إلى أنّ هذا الدفتر مصنوع منذ قرون عدة... إنّ في الأمر سرا! هلا أوضحت لي جانبا منه؟ هل تمكّنت من الوصول إلى الطريقة التي تجعل بها الأشياء تكتسي صفة القدم بحيث لا يستطيع العلم اكتشاف تلك الخدعة؟ إنه لأمر خطير! هل أنت واع به؟ فقلت له متظاهرا عدم المبالاة: لا! الأمر ليس على هذا النحو، ربما خطأ في التحاليل فقط! شكرا على مساعدتك لي. ثمّ أقفلت عائدا إلى البيت هربا من فضوله.

قرّرت نسخ الدفتر، ثمّ أعدته من جديد إلى داخل الصندوق حيث وضعته تحت الكتب لسبب خاص، ووضعت دفترا جديدا في موضعه، ثمّ أفرغت الصندوق من الهواء وأعدت بناء الحائط، وبعد تفكير طويل آثرت نشر محتويات الدفتر وفق ما جاءت عليه دون تغيير أو تحريف بعنوان "**مذكرات آخر إنسان على الأرض**".

طبع هذا الكتاب بدار الحكمة
للنشر والطباعة والترجمة والتوزيع

Betatache Boualem

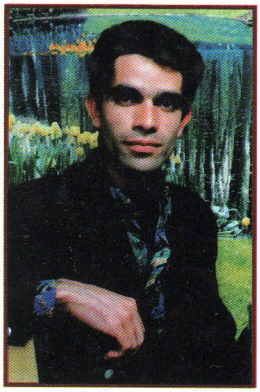

Memoires
du dernier homme sur la terre

" ... إنني لن ألوم الأجيال السابقة على ما اقترفته في حقنا، فاستغلالها للثروات الباطنية والسطحية من دون تفكير فينا قد جعل الطبيعة ميتة، الشيء المؤسف هو أنها لم تتمكّن حتى من تحقيق السعادة لنفسها ولا لغيرها، بمعنى أنها حطمت كلّ شيء من أجل التحطيم لا أكثر ... "

مقطع من الرواية

ISBN : 978-9947-842-59-1

9 789947 842591

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة